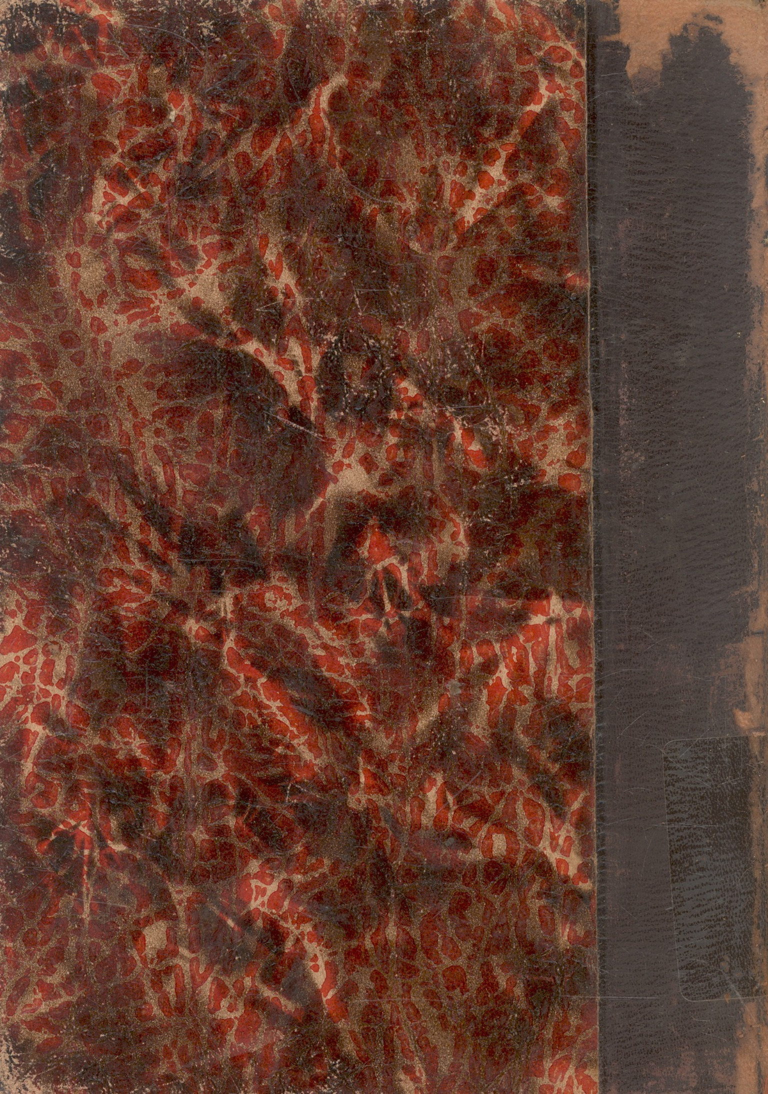


الإجرام السياسي

حسن الحداوي

LE CRIME POLITIQUE

LOUIS PROAL

إلى زوجتي . . . . .

محمد

للمترجم

ص

المرافعة

(بحث فى أساليبها وحقوق المترافعين

وواجباتهم) .... ١٥ نقد

مرافعات

(مجموعة من مرافعات أساطين المحامين

الفرنسيين مترجمة)

الطبعة الأولى .... ١٥ نقدت

الطبعة الثانية — مضاف إليها ١٠

فهرست

مقدمة

فن الحكم ، ذلك الفن النبيل العظيم ، قد شوهه وبدل محاسنه الكثير من مبادىء خاطئة جعلته فناً للكذب والخداع والاضطهاد والافساد ، تحت ستر كاذب من العدالة الموهومة .

وإنك لتجد بجانب السياسيين الذين حكموا لصالح الشعوب وتفانوا فى سبيل النهوض بها ، سياسيين آخرين استغلوا السلطة لقضاء مصالحهم وشهواتهم . تلك الشهوات هى موضوع هذه الدراسة .

لقد تصدر لحكم الانسانية رجال كان فيهم السفاك والمغتصب واللص والمزيف والمفلس والمعتوه والمجنون ورجال مرتشون وآخرون نبت الفساد فى حجورهم وترعرع . وما أكبرها مسئولية ، مسئولية هؤلاء الرجال ، الذين حكموا الأمة وقادوها ، وكان فى مقدورهم أن يخففوا من متاعب شعوبهم ، ويرفعوا من مستوى الاخلاق فيها ، ولكنهم أفسدوا وأساؤا إلى مواطنيهم بما أصدروا من قوانين فاسدة وما قدموا من مُثُل سيئة . فليس

أشر على الانسانية من الرجل الذى يدعو إلى التفرقة والبغضاء مدفوعا بطمعه وجشعه وحسده . فالأشرار العاديون الذين تحاكمهم المحاكم انما يقتلون أو يسرقون أفراداً قلائل ، فعدد ضحاياهم محدود ، أما أشرار السياسة فتعد ضحاياهم بالالوف ، فهم يفسدون ويخربون أمما بأكملها .

لقد تقدمت المدنية بالانسانية فى كل ناحية من نواحيها إلا السياسة فأنها لا تزال مرتعاً فسيحاً للغش والدس وخنق الحق والحرية . ان الجماعة الانسانية ، الفخورة بما وصلت إليه من تقدم صناعى واختراعات علمية ، لتطأطىء الرأس خجلا كلما فكرت فيما آلت إليه أخلاقها السياسية والمالية . انها تستطيع أن تظهر فى معارضها آلات صناعية مثيرة للفكر ، ولكن تلك الآلة السياسية الكبرى التى تدعى الحكومة لاتزال ناقصة نقصاً معيباً ، والرجال المعهود إليهم بادارة دفتها ليسوا بأكثر الناس عقلا وأوسعهم ادراكا وكما لاحظ لتريه : « كل شىء عندنا يتقـــدم إلا الأنظمة السياسية فانها ، بما تقع فيه من أخطاء ، تسلبنا دائما كل منفعة قد تعود علينا » .

وأنا أرمى بتعداد الجرائم التى ارتكبتها الأنظمة السياسية فى مختلف الأزمنة والمبنية على العنف والقوة أن أثبت ، بأدلة من الوقائع ، أن السياسة الشريفة المخلصة أجدى أنواع السياسات ، وأن السياسة إذا تخلت عن الأمانة والشرف هبط مستواها وانقلبت

إلى مجازفات ورياء وأخيرا ، كما قال تاسيتوس : « إن أفضل آلة للحكم الطيب هم الرجال الطيبون » .

فالمسألة السياسية ، شأنها شأن المسألة الاجتماعية ، ما هى إلا مسألة أخلاق قبل كل شىء . فهدف السياسة الحقيقى يجب أن يكون السعى لجعل الناس أكثر فهما وأنقى أخلاقا واتحادا وسعادة . فافضل السياسات إذاً ما دعت إلى الخير ، وتقليل الآلام ، وتخفيف حدة البغضاء ، وتشجيع الجدارة والعمل ، وتنمية معنى الخلق بين أفراد الشعب . أما المشاحنات السياسية التى تدور حول الألفاظ والأشخاص فانها تحرك الشعب وتهيجه دون أن تؤدى إلى أى تقدم . فليست المناورات الوزارية والأوامر والدكريتات والقوانين التى لم تُبحث البحث الكافى ، والتى تتغير وتتبدل بين آن وآخر ، هى التى تصلح لتقويم الانسانية ، بل إن تقدمها رهين بالعواطف الأصيلة والتفكيرات العميقة المنبعثة من القلب ، ورهين بالمثل الحسن الذى يقدمه من يملكون السلطة فى الشعوب . من أجل ذلك ، ودون أن أذهب إلى حد مجاراة أفلاطون فى القول بأن الحكومات يجب أن يديرها الفلاسفة ، فانى أعتقد أن السلطة يجب أن لا يتولاها إلا من لديه قسط من الفلسفة ، أى الذين يخضعون لمبادىء مصدرها نوع من الاعتقاد الدينى . فالشعور الدينى الصحيح هو الذى يمنع الهيئة الانسانية من الاندفاع فى تيار الفساد ، ولكن ذلك الشعور لسوء الحظ قد فقد فى السنين الأخيرة الكثير من مفعوله ، وبالأخص فى أوربا .

ولست أجهل أن الشهوات سوف تظل تلعب دورها فى شؤون السياسة . ولكن ذلك لايمنع من أن نأمل أن نرى السياسة يوما ما أقوم خلقا وتهذيبا . فلقد نجح العقل الانسانى فى التخلص من الرق والاستعباد ومن امتيازات الملوك واستبدادهم . فلماذا لاينجح فى أن يجعل السياسة أكثر اعتدالا وإخلاصاً ، وأقرب إلى العدل والانسانية ؟

المكيافيلية

لا ترجع المكيافيلية إلى مكيافلى فقط وليس هو مخترعها بل كل مافعله هو أنه أثبت ما رأى السياسيين يفعلونه فى عهده . أما جرمه الوحيد ، وما هو باليسير ، فهو أنه شرح - بغير أن يبدى أى إعتراض - سياسة مبنية على العنف والغش ، وأظهر كيف أن القسوة والحيلة قد تساعدان على اغتصاب السلطة والاحتفاظ بها .

أما السياسيون فلم ينتظروا ظهور مكيافيلى ليتخذوا من التلون والقسوة واراقة الدماء سبلهم . ولم يكن الحكام فى حاجة للكاتب الايطالى ليعلمهم أنواع الكذب واضطهاد خصومهم ومصادرة أموالهم ، بل إن الرغبة فى الوصول إلى الحكم واستغلال السلطة كفيلتان بتلقينهم ضروب الغش والقسوة .

من العسير حقا أن يتولى المرء السلطة ويظل عادلا معتدلا . وعندما أراد تاسيتوس أن يبرر مظالم تيبريوس قال إنه اندفع أمام تيار السلطة فتبدلت أخلاقه . كذلك يقول بلوتارك إن « سيلا » كان فى شبابه طيب الاستعداد ، ميالا للضحك ،

شفوقا حتى أنه كان يبكى لأتفه الأسباب ، ولكنه فى نهاية الامر وبعد أن أصبح قاسيا نسب إلى السلطة وما تحيكه حول الشخص من المظاهر ، مسئولية تغير اخلاق الناس ، فتصيب البعض منهم بالجنون ، والبعض الآخر بالغرور والقسوة وفقدان العواطف الانسانية .

ويندر أن لاتؤدى السلطة إلى الافساد حتى أن تاسيتوس كتب عن فاسباسيان — فى بداية عهده — إنه الرجل الوحيد الذى انتقل من الحياة الخاصة إلى الحياة العامة فازداد بالفضيلة تمسكا .

وما كان لاحد أن يتوقع — فى السنين الأولى من حكم نيرون وشارل التاسع وكثيرون غيرهما من الحكام — الجرائم التى ارتكبوها عقب ذلك . ولقد بلغت الدهشة من المستشار لوبيتال Hopital للتغير الذى طرأ على أخلاق شارل التاسع حدا جعلته يكتب لاحد أصدقائه : « لقد بلغت من الكبر عتيا وانى لحزين لما وصلت اليه من عمر طويل فقد شاهدت خلقا كريما يتبدل ، وملكا ينقلب الى طاغية . وما كان أحد ليستطيع أن يقنعنى ، وأنا الذى حضرت سنينه الأولى ، بهذا الذى تراه عيناى » .

إن الحكام ذوى النفوذ الكبير يسكرهم التملق ويعميهم الغرور فيفقدوا الاتزان والتقدير ويعتقدوا أن قواعد الخلق لا تقيدهم . ولقد قال نابليون اذ حضره الموت ، وأخذ يستعرض ماضيه « إن السلطة تفسد عقول الرجال » .

فى سبيل تحقيق أغراضهم قبل أن يتحرج من بيدهم الامر فى اختيار الوسائل. ولذا فيلذ لهم أن يقولوا إن الغاية تبرر الواسطة، وإنه اذا اعترضت الاخلاق فى سبيل أى عمل مفيد فلا مفر من تضحية الأخلاق لخير المملكة ومصلحة الامن العام. فالسياسة اذاً تفسد الضمير وهى المسئولة عن تطبيق أمثال هذه المبادىء المنكرة: (القوة فوق الحق) و (الغاية تبرر الواسطة) و (أمان الشعب هو القانون الأعلى) . فما من جريمة لم تسع السياسة لتبريرها تحت ستر تغليب صالح الدولة وما فى ذلك الصالح مايصلح للتبرير. لقد اتخذ هذا الصالح تكأة لنشر الانتقام واضطهاد الابرياء ووضع اليد على ممتلكات الآخرين والسعى إلى توسيع السلطان ضد كل عدالة وأنصاف. ويتخذ السياسيون هذا التعبير رداء يسترون به كل تصرف ظالم. ففى سبيل ما أسموه صالح الدولة سقوا سقراط السم، واضطهد أباطرة الرومان المسيحيين، وذبح شارل التاسع البروتستانتيين وشردهم لويس الرابع عشر. وبدعوى مصلحة الدولة استطاع نيرون أن يبرر قتل أمه وهكذا وهكذا.

أما نظرية مكيافيلي فنجدها فى كتابات Phoenissae ليوربيدس Euripides اذيقول على لسان ايتوكلس Eteocles : «واذا كان لابد من الاستعانة بالظلم للحصول على السلطة فلنستعن به، أما فيما عدا ذلك فالعدل واجب». هذه نظرية خلقية ذات شطرين أحدهما للحياة الخاصة والآخر للحياة السياسية. فالرجال الذين يحترمون العدالة فى حياتهم الخاصة يستبيحون كل ظلم فى شئون السياسة.

ويقول توسيـــديدس Thucydides إن الآثينين كانوا يقولون عن اللاسودنيين « إنهم فيما بينهم وبين أنفسهم وفى داخل حدود بلادهم يتبعون عادة أوامر الفضيلة ، أما فى علاقاتهم الخارجية فالامر جد مختلف ، فهم أكثر من غيرهم من الشعوب المعروفة لنا يعتبرون ما هو فى صالحهم شريفا ، وما هو مفيد عادلا » .

ولم تكن سياسة الآثينين تختلف كثيراً عن ساسية اللاسودنيين ، وكان مجلس الشيوخ الرومانى يتبع هو الآخر سياسة مكيافيلية ، حين كان يتوسل بمصلحة الجمهورية وأمنها ، لتحقيق أغراضه .

فالظلم يتستر دائما فى طيات السياسة ووراء الحجج الكاذبة ، ومع ذلك فقد رأينا فى بعض الاحيان رجالا سياسيين لا يعرفون الخجل فى ابداء احتقارهم للعدالة . ويحدثنا التاريخ أن وفد كورنتا قال « إنه ليس فى الوجود شخص يرفض استغلال فرصة تسنح لتوسيع ممتلكاته بالقوة لان العدل لا يقر ذلك التوسع »

ولقد حاول شيشرون ، بين الاقدمين ، دحض النظرية القائلة بأن الحكم بقواعد العدل مستحيل وبان مصلحة المملكة تبيح الالتجاء لاى نوع من التصرفات ، ولام السياسيين الذين دافعوا عن الاجراءات الظالمة بدعوى أن مصلحة الدولة تعلو كل شىء ؛ وهو يقول « ليس القول بان الناس لا يمكن أن يحكموا الا بانتهاك العدالة خطأ فحسب ، بل إن حقيقة الواقع أنه لا يمكن أن تحكم الامم الا بالعدل المطلق وحده » . ودلل شيشرون على صحة

نظريته بمجموعة من الافكار النبيلة فى العلاقة بين ما هو عادل وما هو مفيد .

وبينما كانت الفلسفة تدلل على أن العدل هو أثبت أساس لحكم الجماعة الانسانية ، كانت السياسة تعمل فى عهد أباطرة الرومان وفى القرون الوسطى على نشر الاضطهاد والفساد والاجحاف . وكان الامراء الايطاليون على الاخص قد جعلوا السياسة فنا للخديعة والاغتيال والسم . ودخلت المسيحية فى عراك دائم مع المكيافيلية ولكنها لم توفق للقضاء عليها . وكانت السياسة فى اسبانيا وانجلترا والمانيا وفرنسا وغيرها من الدول المتمدنة تجنح فى كل تصرفاتها الى تغليب مصلحة الدولة . فمن أجل مصلحة الدولة نفى فرديناند وايزابيلا اليهود من اسبانيا وارتكب ملوك انجلترا أعمالا كثيرة لايقرها العدل . ذلك أن الانجليز ، وهم شعب نفعى بطبعه ، مدفوعون للخلط بين ما هو مفيد وما هو عادل وكثيرا ما اقترح سياسيوهم اتخاذ اجراءات ظالمة لمجرد أنها فى نظرهم لازمة لسلامة الدولة(١)

وأفضل ملوك فرنسا ، إذا استثنينا لويس الصالح ، وأكبر

---

(١) انك لتستطيع أن تتبع هذا الخلط بين ماهو عادل وما هو مفيد فى خطب أكثر السياسيين الانجليز شهرة . فحين كان كانتج Canning يحارب ، فى سنة ١٨٢١ مشروع اخراج الكاثوليك من البرلمان ، قال إن اخراجهم يكون عادلا لو أنه كان لازما ولكى يثبت أن ذلك العمل ليس عادلا أخذ يدلل على أنه ليس لازما ، وذكر القوانين الظالمة التى سنت ضد الكاثوليك فى عهد جيمس الاول وأضاف « بالرغم من أن هذه الاعمال كانت ظالمة فان سلامة الدولة جعلتها ضرورية

وزرائهم بما فيهم ريشليو وما زاران كانوا يعملون بالنظرية القائلة بأن مصلحة الدولة تعلو على ماعداها . ولقد نصح هنرى الرابع نفسه للملكة اليزابث أن تنفذ حكم الاعدام الذى صدر على مارى استيوارت .

وفى الحياة الخاصة يتعرض للاحتقار الرجل الذى يلجأ للغش ، أما فى ميدان السياسة فان المغالطة والمداورة وكل وسيلة لاخفاء الحقيقة انما هى جزء من عدة الرجل الدبلوماسى . فالدبلوماسية تخلق المبررات لكل اعتداء ، وتغطى كل مطمع وكل جشع برداء من الألفاظ الرنانة المعسولة . ولم تكن السياسة فى العصور القديمة ، سياسة اليونانيين والقرطاجنيين والرومان موسومة بحسن النية ، وكان الغش والجرأة من أهم الوسائل التى لجأ اليها الرومان للتوسع . وظلت السياسة عند الدول الحديثة بعيدة عن أن تكون مدرسة لنقاء الطوية والانصاف . وحين رغب مازاران فى أن يعهد إلى مارشال دى فابر Faber بمفاوضة مشكوك فى أخلاصها ، طلب المارشال منه أن يعفيه من تلك المأمورية بقوله : « أعفنى يامولاى من مهمة ادخال الخديعة على دوق سافوى . ويقوينى فى هذا الطلب أن الأمر قليل الأهمية . فالمشهور عنى أننى رجل أمين فاحتفظ ياسيدى بما هو معروف عنى من الأمانة لفرصة تكون فيها سلامة فرنسا فى خطر » .

وكان الدس فى أمور السياسة فى القرنين الخامس عشر

والسادس عشر لا يعـــاب فاعله بل على العكس يعتبر دليلا على المهارة جديرا بالاطراء . فبرنتوم Brantôme يصف دسائس لويس الحادى عشر بأنها « حيل طيبة » فى حين يصفها كومين Commines بأنها أكاذيب دقيقة . وحين أقسم سفراء ميلانو سنة ١٤٩٤ لكومين أن لا يد لمدوقهم فى العصبة المكونة ضد فرنسا ، قال سانوتو أحد أهالى البندقية « إنهم فعلوا مايجب أن يفعـــله رجال مهرة فى تصريف شئون السياسة اذ أكدوا لخصومهم أنهم سيعملون أمرا وهم يعملون عكسه » . ويقول مكيافيلى « إن واجب السفير أن يكون قادرا على الكذب (١) ، وعلى كسر سيفه ، وعلى اكتساب سمعة الشرف والاستقامة حتى تساعده على الخداع » ولم يوجه له مواطنوه أى اعتراض على هذه الاقوال .

ولقد أجاز أغلب كتاب القرن السادس عشر ، وبالاخص

---

(١) ويتفق أفلاطون مع مكيافيلى فى هذا الموضوع « يخال لى أن حكامنا كثيرا ما يضطرون الكذب والغش فى سبيل مصلحة مواطنيهم ولقد قلنا إن الكذب مفيد اذا استعمل كعلاج » . ويقول بريزاك Priezac أحد مستشارى ملك انجترا فى خطاب له يفسر به كتاب السياسة لارسطاطاليس طبع سنة ١٦٥٢ « أنه لا لوم على الرياء فى السياسة لانه مفيد . فاذا كنا لا نقدر التصوير إلا اذا وصل الى حد خداع النظر بما فيه من أنوار وظلال فلماذا يستكثر على السياسة ، سيدة العلوم والفنون ، أن تلجأ الى المغالطة فى سبيل غاية أنبل وأفيد » .

مونتانى وشارون ، المبدأ الخاطىء القائل بأن الغاية تبرر الواسطة.
فى مقالات مونتانى Montaigne نجد استنكارا واضحا لاعمال العنف والخيانة التى كانت تتبع فى الخلافات الدينية والسياسية فى عهده . وبالرغم من ذلك فمونتانى يقول : « إن ضعف الطبيعة البشرية يدفعها غالبا للالتجاء الى وسائل معوجة فى سبيل الوصول الى نتائج طيبة » .

ويتفق شارون معه فى هذا الرأى : « كثيرا ما يجبر الانسان على استعمال وسائل منكرة ليتجنب شراً أكبر أو يصل الى خير أعم ، الى حد أنه كثيرا مايسمح بأمور ويعدها مشروعة على حين أنها ليست ضارة فحسب ، بل مسيئة الى أقصى حدود الاساءة » .

وفى رسالته المطولة عن الحكمة يبيح هذا الفيلسوف المداراة والعنف اذا كانتا ضروريتين لخير الدولة وهو يقول « إن المداراة ، وهى رذيلة فى الحياة الخاصة ، لازمة للافراد الذين لا يستطيعون بغيرها أن يحكموا ويسودوا من أجل المصلحة العامة . . . فالرجل البسيط الصريح ، الذى تقرأ أفكاره على صحيفة وجهه ، لا يصلح لمهنة الحكم (١) » ويضيف شارون « إن الامير الحريص العاقل

(١) الفكرة القائلة بان الامير يجب أن يكون قادرا على الكذب تكاد تجد رواجا فى أيامنا هذه - قال مينيه Mignet المؤرخ الفرنسى الشهير يقول عن نابليون الثالث الذى لا يحبه «انى اعترف مع ذلك ان لهذا الامير ميزتان هامتان فهو يعرف متى يسكت وكيف يكذب » .

يجب أن لا تقف قدرته على الحكم تبعا للقوانين بل يجب أن يكون في مقدوره ، اذا دعت الضرورة ، أن يخضع القوانين لسلطانه . وأخيرا ، بقدر ما يجب على المرء أن يعدل فى مهام الامور ، تلزمه الضرورة أحيانا أن يكون أقل عدلا فى صغائر الشئون ، وكما يجب أن يتبع المرء الحق فى المصالح الهامة ، يباح له أن يخطىء فى الاغراض القليلة الاهمية » .

فالضرورة تبرر كل شيء ، ومن المستحيل أن لا يرتكب الامراء الطيبون بعض المظالم ، وهى مظالم مشروعة مادامت لمصلحة الدولة وعلى الامراء أن يروضوا أنفسهم على ارتكابها بالرغم منهم ولو على مضض .

ويذهب جبرائيل نوديه Gabriel Naudé أمين مكتبة مزاران فى كتابه « نظرية سياسية فى الانقلابات » إلى أبعد من شارون فى احتقاره للعدل فى السياسة وفى نظرية العدالتين ، فهو يقول : « إن العدالة العادية محدودة وهى لذلك مصدر لكثير من المتاعب فى إدارة شئون الدولة . لذلك يجب التوفيق بينها وبين ضرورات السياسة ، ففى مصلحة الدولة يجب أن يقبل الأمير على نفسه أن يتخذ أمورا لا تقرها العدالة المطلقة وأن يرضى باتباع المثل التى سنها له سابقوه . فعدالة الملوك وفضيلتهم واستقامتهم تختلف عن هذه الصفات فى آحاد الناس ذلك أن ميدانهم أوسع وأفسح . وواجب الملوك ، بلاشك ، أن يجمعوا بين المصلحة والشرف ، ولكن

إذا استحال الجمع فليقنع الملك بأن تكون حيدته عن الحق أقل مايستطاع ». ويعرف نوديه الانقلابات coups d'Etat بأنها أعمال جرأة استثنائية يضطر الأمراء للالتجاء إليها فى الصعوبات والأحوال الميئوس منها غير ناظرين للانصاف أو محترمين لأى نوع من أنواع العدالة، بل مضحين بمصلحة الفرد فى سبيل الصالح العام. ويقول نوديه « إنه يجب أن لايلجأ الأمراء للانقلابات إلا عند الضرورة القصوى، فهى دواء قوى المفعول لا يوصف إلا فى الأمراض الخطيرة ». فاذا كان لابد من الانقلاب فليجر العمل سريعا. والانقلابات المدروسة حق الدرس يجب أن تكون ضرباتها كالبرق يخطف النظر قبل أن يسمع صوت الرعد.

ويرى نوديه أن اغتيال الخصوم مباح اذا كان الملك يعمل للصالح العام ولصالحه، إذ لافرق بين هذا وذاك. ويقر نوديه مذابح السانت بارتلمى ويراها جديرة بالثناء، وهو يهون إهراق الدماء ويقول « إنها لاتقارن بمذابح كوتراس أو مونت كونتور — وإن ضحايا شارل التاسع يقلون كثيرا عن غيره من الملوك فقد تسبب قيصر فى قتل مليون ومائة واثنين وتسعين ألفا فى حروبه الخارجية وأودى بومبي بعدد أكبر من ذلك، بينما أرسل كنتوس فابيوس مائة ألف من الغاليين إلى العالم الآخر ... ان كل من يقدر تلك المذابح الدموية يشيب من هول وحشيتها ويدرك أن حوادث السانت بارتلمى لاتقارن بها على حين أنها أكثرها عدلا وضرورة ».

ولا يجد توديه مايعيب به مذابح السانت بارثلى الا أنها كانت ناقصة ونفذت نصف تنفيذ . ولو أن جميع الزنادقة كانوا قد ذبحوا لما بقى فى فرنسا على الاقل من يعيبها . ولقد ارتكب كولينى واصدقائه خطأ كبيرا بحضورهم لباريس وكان الخطأ يكون أكبر لو أنهم تركوا سالمين . أوبعبارة أخرى اذا مهد لك خصم سياسى فرصة اغتياله فمن الخطأ أن تتركه يعيش . وبالتطبيق لذلك حين ذهب لوثر الى اجسبورج كان يتحتم على شارل الخامس أن يقتله لمصلحة الانسانية ، ولو فعل ، لقضى على الحروب الدينية . الفضيلة لاتقر الاغتيال ، ولكن السياسة تبيحه لمصلحة الدولة ، تلك باختصار هى نظرية أمين مكتبة مازاران .

ومذكرات الكاردينال رتز تصلح هى الاخرى لان تكون درسا فى سوء الخلق السياسى فهو يدافع فيها عن كل مبادىء المكيافيلية التى كان يحاربها فى عظاته .

ولقد طبقت جميع الممالك بغير استثناء النظرية الفاسدة المبنية على أن مصلحة الدولة تعلو كل شىء . طبقتها الملكيات كما طبقتها الجمهوريات . وليس بين الحكومات التى طبقت تلك النظرية من طبقتها بمثل القسوة التى طبقها بها مجلس العشرة بمدينة البندقية ، فقد تخلص من جميع خصومه السياسيين بالسم والغرق . وفى رسالة لأحد سفراء البندقية بروما مؤرخة فى ٢٧ أبريل سنة ١٥٦٦ يقول : « نحن نعمل أكثر مما نتكلم . اننا لا نلجأ للحرق أو السيف ولكننا نعمل

على أن من يستحق الموت يلاقى حتفه بطريقة خفية » . واعتاد سكان البندقية أن يقولوا إنهم ينتمون الى البندقية أولا ثم الى المسيحية بعد ذلك :

ولقد جاهد الكتاب المسيحيون الذين كتبوا عن السياسة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر من أمثال بوسويه وفنلون وماسيون وكندياك ومابلى فى محاربة المكيافيلية ولكن دون جدوى . فقدحاول بوسويه فى كتابه (السياسة المستخرجة من الكتاب المقدس) ، وفنلون فى كتابيه (تلماك) و (نصائح لتكوين ضمير الملك) أن يعلما ولى العهد ودوق بورجندى أن يتجنبا سياسة العنف ونقض العهود والمخادعة ، وأن لا يفرقا بين السياسة والعدل . ويضع كتاب تلماك نظامامحكما لسياسة مسيحية . فسياسة بوسويه مأخوذة من التوراة وسياسة فنلون من العهد الجديد . ويرى أسقف كامبريه أن المسيحية ان هى الا أسرة واسعة وجمهورية مترامية الأطراف وكل مملكة هى عضو من أعضاء تلك الاسرة . ويرغب فنلون فى أن تكون الحرب ، اذا لم يكن منها مفر ، مسيرة بحسن النية مجردة من كل قسوة . فما المتحاربون إلا إخوان من بنى الانسان . وعلم دوق بورجاندى أن لا يخلط بين أغراضه الشخصية ورغبته فى العظمة وبين مطامعه ومطالب الدولة ومقتضياتها ، كما لقنه أن السياسة لاتعفيه من أن يكون عادلا مخلصاً مشفقاً ، ولا تضعه فوق القوانين العادية المؤسسة على العدالة والانسانية .

وتابع ماسيون وكوندياك فى القرن الثامن عشر مابدأه بوسويه وفنلون . فحاول الأول أن يقنع لويس الخامس عشر كما حاول الثانى أن يلقن دوق بارما مايجب أن يكون بين السياسة وحسن الأخلاق من ارتباط . ففى دراساته عن التاريخ Etudes de lfl'Histoire حارب كوندياك المبادىء الفاسدة التى تشوه السياسة : ذلك الخليط من الصغار والحيل والمغالطات والمستحيلات التى يراد من الشعب أن يعجب بها والتى لا تخرج عن التدجيلات السياسية .

وبينما كان الكتاب المسيحيون وبعض الفلاسفة من أمثال هولبك (١) Holback وباربيراك Barbeyrac وما بلى يحاربون المكيافيلية كان وصى العرش ودوبوا ولويس الخامس عشر وفردريك الثانى وكاترين ملكة روسيا يتبعون فى القرن الثامن عشر سياسة تبعد عن مبادىء الاستقامة والخلق الحسن بعداً شاسعا .

ولقد ظن الوزير تيرى Terray أنه يستطيع أن يبرر الافلاس

---

(١) حارب هولبك المكيافيلية فى كتابه المسمى (نظام اجتماعى Système Social) وهو كتاب جيد وان لم يكن معروفا وهو يشرح النظرية القائلة بأن السياسة الحقة هى تطبيق قواعد الاخلاق على ادارة دفة الحكم فى الممالك . وحاول بربرياك أن ينزع الغطاء عن ذلك الرياء السياسى الذى يسمى تحت ستر الدين او الصالح العام الى الالتجاء الى العنف والظلم ، ونصح بالقضاء على ذلك الوهم الذى يتسلط على الشعوب بما يذر فى اعينهم من رماد الالفاظ الشيقة والتعابير الرنانة . وقد أوجب مابلى على نفسه فى محادثات فوسيون Entretiens de Phocion أن يثبت أن السياسة لا تؤدى الى سعادة المجموع الا اذا اتبعت قواعد الاخلاق بكل دقة .

بقوله : « الضرورة تبيح كل شيء » . وظلت السياسة فى فرنسا وفيما عداها من الممالك مكيافيلية تستعين بكل الطرق لاحراز النجاح فلا تتعفف عن الحيلة والغش والدس وعن الاستعانة بمحظيات الملوك والوزراء ، وبالرسل السريين وبالرشوة . وكما قال المسيو سوريل فى كتابه عن اوروبا والثورة الفرنسية : « إن ألف السياسة وياءها فى القرن الثامن عشر كانت مصلحة الدولة هى المبدأ والغاية ، والدس هو الوسيلة » .

وقد وجدت فكرة تغليب مصلحة الدولة على كل ما عداها قبولا فى جميع الأوساط . وانك لتجدها فى كتابة قسيس كنيسة القديس بطرس نفسه الذى يقول : « إن الملك لا يُطَالَب بالمحافظة على عهده ، إن المبدأ القائل بانه لايجوز نقض العهود يخضع لذلك المبدأ الآخر القائل Salus populi suprema lex سلامة الشعب هو القانون الأعلى » لقـــد كانت سياسة ذلك العهد لاتعرف الحرج . فكان الفلاسفة يعجبون بتلامذة مكيافلى وفردريك الثانى وكاترين ملكة روسيا ويُغْرِقُونهم بمدائحهم . وحتى ملك بروسيا الذى انتقد فى صغره كتاب « الأمير » لم يكد يعتلى العرش حتى أخذ يطبق مبادىء الكاتب الايطالى الفاسدة ، ولم يتردد فى أن يكتب فى مقدمة كتابه (تاريخ زمنى History of My Time) أن للملك أن ينقض عهده وتعهداته إذا وجد فى ذلك مغنما ؛ ونسى أنه نفسه قد وصم مثـــل هذا التصرف بقصيدة يقول فيها :

« عند ما تلجأ السياسة للمغالطات ـــ وتتخذ مثلها العليا من مبادىء مكيافلي الخادعة ـــ فان العين لا ترى إلا مجموعة من السفلة والغشاشين والكذبة ـــ والا وزراء مخدوعين ووزراء خادعين ـــ تلك المبادىء الكاذبة قد قضت على كل استقامة ـــ وجعلت من الحكم مدرسة للجريمة . »

ولما قامت الثورة الفرنسية ، على أساس مبادىء العدل والانسانية الكبرى ، كان من المعقول أن نأمل أن تباعد السياسة بينها وبين فساد الخلق ، فاننا نرى سايس Sieyès فى منشوره الشهير عن الطبقة الثالثة يبرأ من أولئك الذين لا يحسبون حسابا للوسائل العادلة الطبيعية ولا يحترمون الا الطرق الملتوية المبنية على المظالم والتلون ويعدونها وحدها التى تقيم شهرة الحكام ورجال السياسة .

ولكن شيئا من تلك الأحلام الطيبة لم يتحقق لسوء الحظ . فقد باعدت الثورة بينها وبين قواعد الخلق الحسن وتابعت خطواتها بمجموعة من الانقلابات العنيفة . ولقد قال منتسكيو قبل ذلك فى كتابه روح القوانين : « لقد بدأنا نعالج أنفسنا من المكيافيلية وسنستمر فى هذا العلاج يوما بعد يوم . . . فان ما كان يدعى بالانقلابات ستصبح بعد اليوم ، علاوة على ما يصاحبها من فظائع أخطاء سياسة مجدبة » . ولكن سرعان ما كذبت الحوادث هذه الآمال الطيبة بقسوة مؤلمة . فالثورة التى بدأت باسم العدل استمرت فى تيار القوة والعنف . وما أكثر التواريخ التى تذكرنا

بانتصار القوة : ١٥ اكتوبر ، ٢ سبتمبر ، ٢٠ يونيو ، ١٠ اغسطس ، ٢١ يناير ، ١٧٩٣ و ٣١ مايو ، ٢ يونيو ، ١٧٩٣ ، مارس وابريل ، ١٧٩٤ ، ٩ ترميـــدور ، ١٣ فانديمير ، ١٨ فروكتيدور و ١٨ برومير وغيرها وغيرها .

ولم تكن الثورة إلا مجموعة من الانقلابات ففى ٢٠ يونيو و ١٠ أغسطس انقلاب ضد الملكية وفى ٣١ مايو و ٢ يونيو انقلاب ضد الجيروندبين ، وفى ٢ ابريل ١٧٩٤ انقلاب ضد الديركتوار . وكانت الناس فى عهد الارهاب تذبح وتفصل رءوسها فى باريس وتغرق فى نانت ، وتضرب بالرصـــاص فى ليون وطولون . وفى عهد الديركتوار كانت الضحايا تنفى وكذلك كانوا ينفون بمناسبة انقلاب ١٨ برومير . وأضحت هـذه المذابح والتغريق واطلاق الرصاص والنفى مبدأ للحكم فى وقت كان البرنامج السياسى يرتكز على مبادىء الثورة الكبرى الثلاث : الحرية والمساواة والاخاء .

ويكاد جميع رجال الثورة من ميرابو إلى بونابرت يطبقون المكيافيلية . فقد كان ميرابو متأثرا بمكيافلى حين قال . « اتباع قواعد الخلق فى الصغائر يضحى بكبائر الأمور » . وفى المذكرة التى كتبها لمصلحة البلاط قدم للملك نصيحة مكيافيلية حين أشار عليه بالقضاء على سلطان الجمعية العمومية بمجموعة من الوسـائل الغير الشريفة وأن يلقى نخاخه لتلك الجمعية ويضع العوائق فى طريقها ويحرض

عليها ليسلبها كل سلطة ، ويقول « إن هذه الطريقة سوف تؤدى إلى تفكك المملكة وتزيد فى ارتباكها ، ولكنها بذلك تمهد الطريق لأزمة وتزيد على مر الزمن مشاكل المملكة فلا يبقى أمامها إلا أن تلجأ لسلطة الملك » . لقد كانت هذه السياسة التى أشار ميرابو على لويس السادس عشر باتباعها سياسة تخالف كل المبادىء الخلقية ، لأنها تتلخص فى زيادة الاضرار على أمل مشكوك فيه ، هو أن يؤدى ذلك إلى بعض الخير .

وأراد ميرابو أن يقنع البلاط باكتساب زعماء الأحزاب . « ولست أستثنى أى وسيلة » لأنه لابد من الوصول إلى النجاح .

ويرجع إلى تأثير نصيحة ميرابو هذه أن مدام مونموران Montmorin وزعت سبعة ملايين من الفرنكات على أعضاء حزب الشعب .

ولا تخرج سياسة بقية رجال الثورة عن أن تكون مجرد تقليد حقير لسياسة العهد القديم المجردة من كل شرف . لقد كانت سياسة مقابلة الطوارىء والمذابح والعنف ، سياسة تلجأ إلى القوة والاضطهاد والانقلاب كما تلجأ إلى القبض بغير حق والذبح والتفتيش واضطهاد المشتبه فيهم والمصادرة . واغترفت مثلها من نظرية مصلحة الدولة ، واستعارت مبادىء الحكومات المستبدة : كأهمية الغرض واهدار مصلحة الفرد ، وفاقت قسوة هنرى الثامن وفيليب الثانى ودوق إلبا . لقد رفض المجمع اليونانى أن يستمع الى قراءة

مشروع قانون قال عنه ارستيد إنه مفيد ولكنه غير عادل ، ولكن رجال المجمع التشريعى الفرنسى والمؤتمر لم يشعروا بمثل ذلك الحرج . فكم أقروا قوانين كانوا يظنونها ضرورية مع علمهم بما فيها من اجحاف ؟ ويعترف ميشيليه ، وعطفه على رجال الثورة معروف ، أنهم حين وصلوا إلى السلطة لم يجدوا أية صعوبة فى قبول تلك النظرية الفاسدة ، نظرية المبادىء المزدوجة : مبادىء للحياة الخاصة ، وأخرى للحياة العامة ، وان المبدأ الأول عند الضرورة يجوز اهداره فى سبيل الثانى . لقد كانت هذه نظرية جميع سياسيي ذلك العهد . تصوروا أنهم ، فى هذا الأمر ، خلفاء بروتوس على حين أن جدهم الحقيق هو مكيافلى . فالغاية فى نظرهم تبرر الواسطة ، وكل تصرف عندهم جائز مادام موجها ضد النبلاء . ولقد قال أحد رجال الثورة لجارا Garat : « إن فيك نقطة ضعف هامة ذلك أنك لا تقبل ارتكاب عمل سىء ولو كان فى سبيل المصلحة العامة » . وأكد بازير Basire من فوق منبر البرلمان « أن كل عمل مقبول مادام موجها لأعداء الأمة » . وقال لكليرك Leclerc : « لابد من تأسيس مكيافيلية لخدمة الشعب » ، وصرح دانتون بأنه لن تقف الجرية فى طريقه إذا كان ارتكابها لازما . ولقد سبب مذابح سبتمبر كما قال : « ليضع نهرا من الدماء

بين الباريسيين والمهاجرين ». وحين طلب مجلس باريس Commune، عقب مذابح سبتمبر ، من المديريات أن تحذو حذو العاصمة سمح دانتون ، وكان وزيرا للحقانية ، أن يرسل هذا التحريض الكريه مختوما بخاتمه الوزارى الخاص .

وعهد الأرهاب وليد تطبيق مبادىء مكيافلى الفاسدة . كان المؤلف الايطالى قد قال : « إذا غشت دولة من الدول ثورة ، سواء تحولت جمهورية إلى حكومة مطلقة أو حكومة مطلقة الى جمهورية ، فلا بد من قتل مريع يدخل الرعب فى قلوب أعداء النظام الجديد » .

وكان مكيافلى قد قال : « إنه من المفيد الاسراع والجرأة فى القضاء على الخصوم السياسيين » . وكلمة الجرأة هى التى كانت تجرى دائماً على ألسنة رجال الارهاب . فلمناسبة مذابح سبتمبر قال دانتون كلمته المعروفة : « الجرأة ، الجرأة ، والجرأة دائما » وكان شعار سان جوست هو نفس شعار دانتون : « الجرأة هى السر كله فى الثورات » . وحقاً لقد أثبت رجال الارهاب أنهم جريئون .

ولقد حارب روبسيير المكيافيلية فى خطبه ، ولكنه لجأ إليها فى أعماله . فهو يقول : « لقد كان فن الحكم إلى الآن فن الخداع وإفساد ضمائر الرجال ، والواجب أن يوجه لتوسيع مداركهم وتحسين مشاعرهم » . ومع ذلك فكل تصرفه كان تصرف أحد

اتباع مكيافلى . فقد استند على مصلحة الدولة ليقضى على خصومه ، واعتبر الاضطهاد وسيلة لاقامة الحرية والمساواة والأخاء.

وكان مكيافلى قد قال : « فى كل حالة يكون الاجراء المطلوب لازما لسلامة الدولة ، يجب أن لا يقيم الانسان وزنا لأى اعتبار راجع إلى العدالة أو الظلم ، إلى الأنسانية أو القسوة ، إلى الشرف أو ما عداه » . وقد ردد رجال الارهاب هذا الكلام حين صاحوا « لتهلك سمعتنا إن كان فى ذلك نجاة للوطن » وكتب مارا Marat فى جريدته (صديق الشعب) فى ٢٨ فبراير سنة ١٧٩١ : « إن سلامة الشعب فى خطر . وامام هذا القانون الأعلى لا تقوم لأى قانون آخر قائمة . فنى سبيل نجاة الوطن كل الوسائط مفيدة وكل السبل عادلة ، وكل الوسائل طيبة » وكما فعل مارا كان كثير من اليعاقبة يفكر فى تبرير الاضطهاد بعظمة الهدف وسلامة الجمهورية .

ويظهر من مقارنة هـذه الفقرات المختلفة من كتب مكيافلى ومبادىء رجال الثورة أن هؤلاء السياسيين الذين ادعوا أنهم يقيمون صرح سياسة جديدة إنما كانوا فى الواقع يقلدون ـ بل ويغالون ـ فى تطبيق سياسة الحكومات المستبدة السابقة ، ولم يكن عندهم أقل إدراك للمبادىء الجديدة التى جاءت بها الثورة الفرنسية ، وكان ينقصهم الشعور بالحرية والمساواة والأخاء . وبدلا من أن يكونوا مبتكرين فى ميدان السياسة كان كل ما عملوه أن قلدوا السياسة المكيافيلية القديمة . لقد لجأوا ، ليدفعوا عن قضية الشعب ، إلى نفس

الوسائل الاجرامية التى كان يلجأ إليها من قبلهم أنصار الملكية المطلقة .

واحتفظت حكومة الديريكتوار بالتراث المكيافلى فلم تقبض على أعنة السلطة إلا بالدهاء والعنف ، وبانتهاك حقوق ممثلى الأمة فى ١٨ فروكتيدور .

وسرعان ماأدى انقلاب ١٨ فروكتيدور ـ الذى كان من عمل ثلاثة من أعضاء الديريكتوار وأوجيرو Augereau الجندى الفاجر ـ إلى إنقلاب آخر هو ١٨ برومير تولاه جنرال آخر لم يكن استعداده الخلقى فى مستوى واحد مع نبوغه . فهذا الانقلاب وإعدام الدوق دانجيين Duc d'Enghien ، وخطف البابا ، وكمين بايون يجعل من المستحيل القول بأن سياسة نابليون الأول كانت سياسة شريفة وعادلة دائماً . إن من الميسور وصف نابليون بأنه كان عظيماً ما دام التاريخ يقيم وزنا للعظمة الفعلية دون العظمة الخلقية فيجود بهذا الوصف على جميع الفاتحين من أمثال الاسكندر وقيصر ولويس الرابع عشر وفردريك الثانى ، ولكن لا يمكن أن يوصف بالعاقل أو العادل لأنه لم يتردد فى انتهاك العدالة بدعوى مصلحة الدولة . أليس هو القائل « إن مصلحة الدولة حلت فى العصور الحديثة محل استسلام الأقدمين وإن كورنيل هو الوحيد بين الكتاب التراجيديين الفرنسيين ، الذى قدر هذه الحقيقة ولو أنه عاش فى زمنى لاتخذت منه رئيس وزرائى » ؟

ولختام هذا الفصل أريد أن أستعرض : هل الفوائد التى تجنى من أتباع سياسة لا ترتكز على المبادىء القويمة من الأهمية بقدر ما يظن ؟ ويبدو لى أن فوائد السياسة المكيافيلية مبالغ فيها جداً ، فقد اعتدنا إحتساب الفائدة المباشرة ، وإهمال النتائج المعقبة .

ولما كانت حياة الانسان قصيرة فقد يستفيد الشخص من جريمة يرتكبها ويموت قبل أن ينال جزاءه . أما حياة الأمم فأطول بكثير . والجريمة السياسية وإن عادت بفوائد مؤقتة لاتلبث أن تكفر عنها فى النهاية . فنجاح الخداع مؤقت ، وإذا امتد بحثنا لمدة طويلة أدهشنا أن نلمس الفشل الذى تؤدى إليه السياسة الفاسدة . فالسياسى ، كلما واجه صعوبة ، يخيل إليه أن الالتجاء إلى وسيلة غير مشروعة تأتى له بفائدة سريعة تخلصه من المأزق ولكن المستقبل لا يلبث أن يعلمه ما للظلم من عواقب وخيمة .

فالمكر والظلم لاينفعان دائما وكثيراً ما اضرا من التجأ اليهما . وأمثلة الخيانة السياسية والقسوة التى يذكرها مكيافلى للتدليل على المهارة تدينه كلها . والأمراء الذين يعجب بخياناتهم لم ينتفعوا طويلا بثمار جرائمهم ـ فبطل كتابه ، سيزار بورجيا Caesar Borgia لم يحتفظ طويلا بابتسامة الحظ . ومكيافلى نفسه ، بالرغم من نبوغه ، لم يكن رجلا موفقا فقد أفرغ قصارى جهده ليشق طريقه فى الحياة ولم يفلح .

والجرائم السياسية ، كغيرها من الجرائم ، لاتمر بغير عقاب .

فأتباع مكيافلى الذين تسببوا فى قتل الأبرياء لاعتبارات سياسية كثيراً ماأصابهم أنفسهم نفس المصير ، والذين اضطهدوا الآخرين اضطهدوا بدورهم .

فالجيرونديون المسئولون عن ٢١ يناير كانوا ضحية ٣١ مايو . ورجال دانتون الذين اتهموا الجيرونديين بالاعتدال اضطهدوا بدورهم لأنهم معتدلون . وروبسبيير وأصدقاؤه الذين أرسلوا العديد من الضحايا للمقصلة ذاقوا المقصلة بدورهم . واليعقوبيون الذين أسسوا المحكمة الثورية ماتوا ضحية تلك المحكمة . وأعضاء البرلمان الذين حكموا على شارل الأول بالاعدام ، واضطهدوا عدداً كبيرا من زملائهم ، ساقهم كرمويل من فوق مقاعدهم ومثّل بهم ، وكان يقول لكل منهم وهو يطرده : « أنت سكير ، وأنت فاجر ، وأنت زان ، وأنت لص » .

وترجع أغلب الأخطاء التى تعرض رفاهية الأمم للخطر إلى تجاهل روح العدل والانصاف . الأخطاء السياسية الكبرى للويس الرابع عشر ونابليون الأول هى أخطاء أخلاقية فى نفس الوقت . فلقد ظن لويس الرابع عشر أنه يقوى الدولة بنقضه أوامر نانت والواقع أنه أضعفها . ولما علمت زوجة القنصل الأول بخطف دوق انجين توسلت إلى زوجها والدموع تنهمر من مآقيها أن لا يريق دمه فأجابها بونابرت : « أنت امرأة وسياستى تعلو على إدراكك ، وواجبك أن تصمتى » .

لقد حسب أنه يجنى مغانم كبرى من عمله الظالم فى حين أن النتيجة الصحيحة لذلك الانتهاك للعدالة هو أنه أثار سخط جميع الرجال الأفاضل فى فرنسا وفى انحاء أوربا ، وفقد تعضيد بروسيا مع أنه فى حاجة إلى هـذا التعضيد ، وكان ذلك كله فى مصلحة خصمه انجلترا . والرجل الذى قال حين علم بمقتل دوق دانجين « إنها أكثر من جريمة ، هى غلطة » انما عبر عن رأى فاسد لأنه اعتبر أن الجريمة أقل خطورة من الغلطة السياسية ، ولكنه لم يكن مخطئاً حين عبر عن الفعل بأنه غلطة ، فان المرأة الرقيقة العاطفة كانت أصدق إحساسا من السياسى النابغة . فالنباهة ، حين تعمل بمفردها غير مسترشدة بالعاطفة النبيلة ، ترتكب الأغلاط ، والشعور الصادق يؤدى ـ حتى فى السياسة ـ الى املاء خطة للعمل تنافى تغليب مصلحة الدولة ولكنها ، من حيث سلامة النتيجة ، أقوم بكثير مما يشير به التفكير العميق . فالسياسة ، اذا جردت من العاطفة ، حرمت من مورد مملوء بأشهى الثمار .

وحين انتزع نابليون الأول تاج اسبانيا من شارل الرابع وابنه فرديناند وحاول أن يبرر تلك القسوة والخداع بالضرورة السياسية قال : لاأنكر أن ما أعمله ليس عادلا من كل وجهات النظر ولكن للسياسة ضروراتها التى لا مفر من قسوتها . . . . . السياسة ، السياسة هى التى يجب أن توجه جميع أعمال رجل مثلى »

لقد حسب أن يبرر هذه الجريمة السياسية بعظمة الهدف الذى

يرمى إليه ، أى اصلاح أسبانيا ، ولكنه فشل مع ذلك حتى فى الوصول إلى الغرض الذى أراده ، ولم يحصد من اعتدائه على استقلال اسبانيا ، الا نتائج ضارة بشخصه .

وهذه الأمثلة التى ذكرناها تكفى للتدليل على خطأ النظرية المكيافيلية التى تقول بأن الغاية تبرر الواسطة . بل ليس هناك أى دليل على أن الوسيلة الفاسدة تؤدى إلى غاية مفيدة — فلا نابليون قد حقق باعتدائه على استقلال اسبانيا الغرض الذى رمى اليه ، ولا لويس الرابع عشر بنقضه أوامر نانت قد وصل الى الوحدة الدينية التى سعى اليها .

ويخضع النبوغ كغيره للقانون القائل بأن الجريمة ، سواء كانت سياسية أوغير سياسية ، تنال ، إن عاجلا أو آجلا ، عقوبتها . ولو أن نابليون ، بدلا من استيلائه على السلطة بالقوة ، كان قد انتظر حتى عهد إليه بها بطريق مشروع ، لكان قد حقق الأعمال العظيمة التى رفعت اسمه ؛ فى حين أن الرقابة التى كان لابد لاطماعه من أن تخضع لها ، كانت تحول دون وقوعه فى الاخطاء التى أدت إلى ضياعه وإلى خراب فرنسا معه . فاذا كان أكبر نوابغ الأزمنة الحديثة قد أخطأ فى تقديراته السياسية ، فان ذلك يسمح لنا أن نؤكد أن أضمن سياسة هى التى ترتكز على المبادىء القويمة .

لقد كانت المكيافيلية حجر عثرة فى طريق الثورة الفرنسية . فالقلق الذى ساد تلك البلاد من قرن أو أكثر ، والتى لاتزال تعانى آثاره ،

انما مرجعه إلى أن الرجال الذين عهد اليهم بتطبيق المبادىء السياسية الجديدة قد جهلوا الاخلاق القويمة . ولا ترجع المتاعب إلى تلك المبادىء نفسها بل إلى الوسائل المجرمة التى اتبعت فى تطبيقها . فالالتجاء إلى القوة ، والعصيان المنظم ، والاضطهادات ومحكمة الثورة والمقصلة قد عطلت ، بدلا من أن تحقق ، الحرية السياسية ووحدة الفرنسيين .

القتل السياسى واغتيال الطغاة

اذا تتبع المرء تاريخ الاضطهادات السياسية ادهشه فيها من أعمال القسوة ما تنفطر له القلوب . فقد صدق بوسويه Bossuet حين كتب « أن ليس بين المخلوقات من هو أقسى وأميل لسفك الدماء من الانسان » ، خصوصا اذا حركته شهوة سياسية .

استعرض حوادث التاريخ تجد أن النبلاء فى روما اضطهدوا الشعب وأن الشعب اضطهد النبلاء ، وأن الملوك أهلكت الشعوب وأن الشعوب ذبحت الملوك ، وأن الشهوات السياسية قد أغرقت الأرض بالدماء . فالملوك والاباطرة والارستقراطيات والديمقروطيات والجمهوريات ، كل الحكومات قد لجأت الى القتل لاعتبارات سياسية . فأولئك حبا فى السلطة ، وهؤلاء كرها فى الملكية أو الارستقراطية ، وأحيانا بدافع الخوف ، وأحيانا بدافع التعصب .

وقد قتل الاباطرة الوثنيون آلاف الناس لأنهم مسيحيون . واضطهد الأمراء المسيحيون اليهود من رعاياهم ، وذبح الملوك

الكاثوليك البروتستانتيين ، كما ذبح الملوك البروتستانتيون الكاثوليك .

ولم يتحرج ملوك مشهورون وأباطرة معروفون عن ارتكاب جرائم القتل . فالاسكندر ذبح كليتوس وبارمنيون ، وتيتوس تسبب فى قتل كوكسينا وهو خارج من وليمة دعاه إليها ، وشارل الخامس ذبح رنكون ، وفيليب الثانى اعدم أمير أورانج ، وشارل التاسع مسئول عن قتل كولينى ، وهنرى الثالث عن قتل الدوق دى جيز ، وفرديناند الثانى عن والنستين وهكذا وهكذا . وكان أباطرة الرومان والأمراء الايطاليون يلجأون الى السفاكين فى خلافاتهم للحصول على السلطة . وكانت البندقية تعرض المكافآت علنا لمن يقتل خصومها . وفى أثناء الحروب الدينية كان للملوك وزعماء الأحزاب سفاكون يدفعون لهم أجورا شهرية . وفى أثناء الفروند اقترح الكاردينال دى رتز على الملكة أن يقتل كونديه . وذهب دوق أورليان الى البرلمان ليطلب رفع المكافأة المخصصة لمن يقتل مازاران الى ١٥٠٠٠٠ فرنك . وقبل ذلك ببضع سنين أريد قتل ريشيليو . ويقول الكاردينال دى رتز فى مذكراته إنه نفسه دبر قتل الكاردينال أثناء الاحتفال بتعميد ابنة الملكة ولم يخش أن يكتب « لقد قررت تلك الجريمة التى بدا لى أن لها سوابق شهيرة وبررها عندى ورفع قدرها ما يحف الأقدام عليها من أخطار » . ولم ينجح التدبير لأن الاحتفال لم يتم . ويضيف دى رتز

« إن هذه المحاولة كانت تغمرنا بالفخر ، لو كتب لنا النجاح » .

وفى أثناء القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر نرى ملكات وأباطرة يرتكبن الجرائم أو يتركنها ترتكب . فماري استيوارت سمحت بذبح دارنلى ، وكريستينا ملكة السويد كانت الداعية لقتل مونالدسكى ، وكاترين ملكة روسيا قضت على زوجها . وحين أرسل شارل الثانى قتلة ليفتكوا بسدنى وغيره من الوطنيين الانجليز كلف اخته الملكة هنريتا ، نسيبة لويس الرابع عشر ، باصدار الأوامر للقتلة ودفع أجورهم .

وهناك حالات جرائم سياسية كوفئت بألقاب شرفية فقد منح فيليب الثانى لقبا لقاتل أمير أورانج .

والسياسة هي المسئولة عن أن ذبح الاولاد بعد الآباء ظل زمنا طويلا احد مبادىء الحكم ، فكان من الجنون – كما يقول مثل يونانى – أن ندع الابناء أحياء بعد أن تذبح آباؤهم . وكثيراً ما كان فيليب ملك مقدونيا يذكر ذلك المثل ويطبقه . ويذكر ديونيسيوس أن اليونانيين كانوا يقتلون أبناء الطغاة بغير استثناء . وكان الرومان فى بادىء الأمر أقل قسوة . فحين حكم على كاسيوس بالاعدام لمحاولته أن يستبد بالسلطان عرض للبحث ما اذا كان أبناؤه ينالون نفس الجزاء ولكن لم توقع عليهم أية عقوبة . ولكن فى عهد أباطرة الرومان أصبح قتل الأبناء عملا حكوميا متبعاً ، فقد قتل موكويس Mucuis مثلا ابن فيتليوس Vitelluis

بدعوى القضاء على بذور الحرب .

ومن المعروف أن ملوك الافرنج كانوا يثأرون من الأبناء كما يثأرون من الآباء وكانت الرغبة فى التخلص من المطالبين بالعرش هى غالبا الدافع لقتل الأبناء. فابنا كلوفيس ، شلدبرت وكلوزر ، ذبحا اثنين من ابناء أخيهما كلودومير . واتبع الأمراء الايطاليون هذه العادة الوحشية ، فقضى سيزار بورجيا على جميع النبلاء الذين اختلست ثرواتهم . وقد ذكر مكيافلى ذلك الفعل الوحشى وأضاف « أنه ليس فقط لايرى مايلوم عليه دوق فالانتنوا ، بل أنه يرى أنه جدير بأن يتخذ مثالا يحتذى » . ولما قتل لويس الحادى عشر دوق نيمور سنة ١٤٧٧ لم يقتل ابناءه ولكنه أخضعهم لعذاب أشد قسوة فقد أوقفهم تحت المشنقة ليسيل عليهم دم أبيهم ، وسلم الأكبر الى أحد القضاة الذين نالوا أجر الحكم على أبيه جزءا من أملاكه ، فلم يمض وقت طويل حتى كان الابن قد لحق بأبيه .

وفى عهد الارهاب ، حين كانت فظائع القرن السادس عشر المكيافيلية تتكرر ، كانت جموع من الأطفال تلقى فى المياه لتغرق . وفى سنة ١٧٩٣ حكمت اللجنة الثورية فى نانت باغراق ثلاثمائة طفل بدعوى « أن الحية تلد الحية » .

وفى بلجيكا ، من عهد قريب ، أثناء اضراب عمال الزجاج سمع أحد المتظاهرين يصيح : « اقتلوا الرأسماليين ، ولا تتركوا

الأطفال فانهم البذرة التى تنبت الرأسماليين » .

والظمأ الى السلطان يثير فى الروح الانسانية شهوة قوية حتى لقد روى آباء يقتلون أبناءهم ، وأولاد يذبحون آباءهم وأمهاتهم ، وأصدقاء يتناحرون . فكلوذر قتل ابنه كرام ونيرون أمه اجريبنا . وزوجة تاركين الصغيرة ابنة سرفيوس ، أكلت قلبها شهوة الحكم ، فداست على عاطفة البنوة فيها وحرضت زوجها على أن يسلب أباها عرشه وحياته ، لأنها كانت تعلق أهمية كبرى على أن تكون ملكة لا ابنة ملك .

وكم من جريمة حملت وزرها السياسة بدعوى مصلحة الدولة وسلامة المجموع ، وهما اعتباران استند عليهما المتعصبون أحيانا حين اعتقدوا أنهم يخدمون الشعب بما يرتكبون من جرائم سياسية ، ولكنهم انما كانوا مدفوعين فى الواقع بذوى الاطماع وبجواسيس السياسة وسماسرتها . وعندما طلب مارسيلوس ، ارضاء لنيرون ، من مجلس الشيوخ اعدام ترازياس أثبت لهم أن سلامة الدولة فى خطر .

والسياسيون هم الذين أرادوا ودبروا مذابح المساجين التى كثيراً ما وقعت فى التاريخ الفرنسى ، والتى نسبت أحيانا ظلما الى هياج الشعب . فمذابح سبتمبر رتبها ودعى اليها بعض الاحزاب . قد ارادها دانتون وقبلها روبسبيير . وصرح دانتون للويس فيليب ، الذى كان يخدم اذ ذاك فى جيش ديموريز أنه رغب

فى تلك المذابح ، لأنه كان يرى أنه لايستطيع أن يحكم إلا إذا بث الرعب فى القلوب . وأخطر مجمع الكومون العام بالمذبحة فلم يتدخل واستمر ذبح المساجين ثلاثة أيام كامــلة فى سجنى كارم ، والابى L'Abbaye وسجن لافورس La Force ويقول منييه : « إن مما يدعو الى الدهشة أن ترتكب جرائم فظيعة ومنكرة خلال وقت طويل وأن تستمر ، ولكن السياسة والتعصب الحزبى يذهبـان الى أقصى مدى ، والشعوب تخضع للكثير تحت تأثير الخوف» . ورؤى أعضاء من مجلس الكومون فى سجن لافورس يلبسون شاراتهم ليسبغوا على المذبحة مظهرا كاذبا من العدالة . وأشاد مارا Marat بهذه الجرائم المنكرة ونصح بالاحتذاء بها . وقد ثبت بمالا يدع مجالا للشك أن الذين تولوا الذبح كانوا قتلة مأجورين ، فقد تقدم كثير منهم بعد ذلك يطالب بالأجر ، ولا تزال بعض الوثائق التى وقعوها محفوظة حتى اليوم .

وعند ما نقل مسجونو أورليان الى باريس أسرعت عصابة السفكة الى فرسايل لذبحهم ويقول تيير Thiers « إن الاشاعة انتشرت فى أقل من لمح البصر ، بأن مذابح جديدة على وشك أن تتم ، وأسرع رئيس المحكمة الجنائية الى باريس ليحذر دانتون من الخطر الذى يتعرض له المسجونون ، وكان كل الرد الذى سمعه إن هؤلاء الأشخاص مجرمون جدا ـ فقال الرئيس الكان Alquin قد يكون الأمر كذلك ولكن يجب أن يحاكموا تبعا للقوانين

فرد دانتون بصوت كالرعد : ألا تدرك أنى لو كنت أستطيع لأجبتك بغير ما أجبت ؟

وفى ٥ فلوريال سنة ١٧٩٥ عند ما ذبح فى ليون سبعون أو ثمانون سجيناً نسب إليهم أنهم من رجال الارهاب وكان ذبحهم بتحريض من الجمعيات المعروفة بجمعية الشمس وجمعية جيهو .

وعندما تغلب رجال الدوق بور جندى على الارمنياك الذين كانوا يحتلون باريس ذبح المساجين من غير أن يبدى دوق بورجندى أى حركة لوقف المذبحة ، ففى أربع وعشرين ساعة أعدم ١٦٠٠ سجيناً وبعد بضع أيام ، وبتحريض من الجامعة ، بدأت المذابح من جديد ، ولم يتدخل دوق بور جندى هذه المرة أيضا .

ويلاحظ أنه كثيراً ما يأخذ الأحزاب القتلة ، بعد ارتكاب جرائمهم ، فى كنفهم . فعندما قبض على بعض مرتكبى جرائم سبتمبر حاول الجبليون أن يمنعوا محاكمتهم . وتساهل الجيروندبون أنفسهم مع قتلة افينيون .

وفى سنة ١٧٩٢ أصدر المجمع التشريعى قانونا بالعفو الشامل عن الجرائم التى ارتكبت فى سبيل الثورة ، وبالأخص عن جوردان الشهير بقاطع الرؤوس والذى كان رئيسا لسفاكى افينيون . وكم رأينا نواباً فى عام ١٨٧١ يطالبون بالعفو عن الذين سببوا حرائق الكومون وعن قتلة واتران ؟

قتل الطغاة

تفسد السياسة الضمائر لدرجة أنه فى العصر القديم إلى يومنا هذا ينظر الناس إلى قتل الطغاة نظرتهم إلى أى عمل مشروع بل ومشرف ـ فقد كان قتل الطاغية عند اليونان واجبا ، وكانت تعاليم الحكماء فى هذا المعنى . فبلوتارك فى رسالة عن الغدر يصف قتل الطاغية بأنه فضيلة قومية . وعندما اقتنع تيميليون بأن أخاه يسعى لاقامة صرح حكم الطغاة اعتبر من واجبه أن يقضى عليه . وقد أقيم نصب لتكريم ايموديوس Aemodius وارستوجيتون Aristogiton اللذين دبرا قتل هيپياس ومع ذلك فلم يكن حب الحرية هو الذى دفع ارستوجيتون لما فعل ، بل انه عندما لاحظ أن رفيقه ايموديوس الذى يحبه حبا عميقا ، كان محبوبا أيضا من هيپياس شعر بحقد عظيم ضد هذا الأخير وخشى أن يلجأ منافسه إلى القوة ، فقرر أن لا يترك سبيلا إلا طرقه حتى يقضى على الطاغية.

وبرر الرومان أيضا قتل الطغاة وأعجبوا به . ويذكر بلوتارك

أن كاتو ، وهو فى الرابعة عشر ، ود لو قتل سيلا . ولم يعترض شيشرون على قتل قيصر وأعجب بقتل تيبريوس جراكوس . وعد بروتوس وكاسيوس قتل قيصر عملا نبيلا . وكان قتلة الطغاة ، فى العهود القديمة ، من الكثرة بحيث استطاع جوفينال أن يقول بحق إن قليلا من الطغاة يموتون حتف أنفهم .

وكان الاعتقاد بأنه من المباح قتل الطاغية لمصلحة الدولة سائدا حتى القرون الوسطى وبالأخص وقت قتل مرشالى شامبانى ونورماندى ، وبعد ذلك أثناء النزاع بين الأرمانكيين والبورجنديين . وعند ما قتل مرشالا شامبانى ونورماندى ، خطب أتيين مارسيل فى الشعب ، مستنداً إلى مشروعية قتل الطغاة ، وصاح بهم من شرفة دار العمودية ، بأن ما ارتكب كان لمصلحة المملكة وفائدتها . فأجاب الشعب بأنه يقر العمل ويؤيده . وفى الغد جمع اتيين مارسيل المواطنين ونواب المدينة وأخذ منهم موافقة على الجريمة التى ارتكبت . وعندما قتل دوق بورجندى دوق أورليان حمل أستاذ فى السوربون هو الراهب جان بتى Jean Petit فى خطاب طويل عبء إثبات أن دوق أورليان إنما ذبح فى خدمة الله لأن دوق أورليان كان عدوا لله ، وفى مصلحة الملك ، لأن دوق أورليان كان تابعا خائنا ، وفى مصلحة الدولة ، لأن دوق أورليان كان طاغية . وقاتله الذى دبر عمله بدهاء وخدعة وبعد تربص قد جعل حياة الملك فى مأمن فكأنه لم يرتكب جرما . ولم تخسر سمعة جان الذى لا يخاف شيئا لقتله دوق أورليان .

وفى القرن السادس عشر كان من ضمن تعاليم رجال الدين البروتستانت والقسس والفقهاء أن قتل الطغاة مباح . ولقد شرح ألتوزيوس وهو فقيه ألمانى بروتستانتى نظرية قتل الطغاة فى كتاب ألفه عن السياسة ، ووصف جورج بوكنان George Buchanan فى كتابه عن حكم القانون الطاغية بأنه حيوان مفترس يجب أن يعامل على هذا الاعتبار ، وأكد بودان Bodin فى كتابه عن الجمهورية أن من العدل قتل الطاغية ولو أقره الشعب على طغيانه لأن ما يناله الطغاة من تأييد الشعب إنما هو تأييد مصطنع ولا يمكن أن يسمى قبولا . وكذلك أقر لابويسى قتل هياركوس .

وفى أثناء الحروب الدينية أيد الكاثوليك والبروتستانت على السواء مشروعية قتـــل الطغاة ـ فقد أعد جاك كليمان نفسه بصلواته الدينية لقتل هنرى الثالث . وقد تخيل أن ملكا بداله فى الحلم وقال له «أنا رسول الله جئت لأؤكد لك أن واجبك قتل طاغية فرنسا ، ففكر فى حالتك واستعد لأن تاج الشهداء معد لك » وبالرغم من أن مجمع كونستانس استنكر قتل الطغاة ، فان قاتل هنرى الثالث قـــد رفعه كثير من المتعصبين إلى درجة التقديس . ويذكر الكاردينال دى رتز أنه رأى ضابطا يحمل مدالية عليها صورة اليعقوبى الذى قتل هنرى الثالث وكانت من الفضة ومكتوبا عليها القديس جاك كليمان . ولما سئل جان شاستل الذى شرع فى قتل هنرى الرابع عن الباعث له على فعلته أجاب بأنه سمع فى أكثر من مناسبة أن قتل الملك مشروع وأن الذين

كانوا يقولون ذلك كانوا ينعتونه بالطاغية ، ولما سئل ان كان سمع ذلك من الجزويتين أجاب بأنه سمعهم يقولون إن من الممكن قتل الملك ، وان الملك خرج على الكنيسة فيجب أن لا يطاع وأن لا يعتبر ملكا الا اذا اعترف به البابا ، فلما عذب وطلب منه أن يعتذر وان يندم على جريمته ويطلب الغفران من الله ، أجاب بأنه يطلب من الله الصفح عن الجرائم التي ارتكبها في حياته وبالأخص ان يصفح عنه لأنه فشل في محاولة تخليص العالم من أشر أعداء الكنيسة على الأرض .

وكان الهجنوتيون من جانبهم يعدون زعماء الحزب الكاثوليكي طغاة ويعتبرون أن في العهد القديم (التوراة) ما يمجد قتل الطغاة . ولقد نجا دوق جيز من عدة محاولات لقتله قبل أن يقتله بولترو دي ميريه Pultrot de Meré . ولجأ بولترو إلى الصلاة ليعد نفسه لقتل دوق جيز . ويقول تيودوردي بيز Bèze إنه كان يطلب من الله أن يبدل عزمه إن كان ما انتواه لا ينال رضاه تعالى وإلا فليقوه وليسدد خطاه فيما اعتزم من قتل الطاغية .

ولقد اتهم كوليني وتيودوردي بيز بأنهما حرضا بولترو على ارتكاب جريمته . ولا شك أنهما لم يستنكرا القتل وعداه مشروعا . وقرر تيودوردي بيز أن ما عمله بولترو كان قضاء عادلا من الله ، وأكد كوليني أنه علم من بولترو وغيره من الهجنوتيين بمشاريعهم الاجرامية ، وأنه وان لم يشجعهم على عزمهم فانه لم يحاول أن يثنهم

عنه . ولقد اتهم بولترو ، أثناء التحقيق معه ، كولينى عدة مرات بأنه شجعه وأصر على ذلك الاتهام حتى ساعة إعدامه . وهو يقول إنه بالاتفاق مع الاميرال ذهب إلى معسكر الدوق دى جيز بدعوى تقديم خضوعه له ، وأنه عندما شرع فى ذلك قال له إن من السهل قتل الدوق دى جيز ولم ينبس الاميرال بكلمة واحدة يثنيه عن عزمه ، بل بالعكس، بالرغم من علمه بعزمه أعطاه عشرين كورونا دفعة أولى ومائة كورون دفعة ثانية . ولا مرية فى أن القسس البروتستانتيين صوروا الدوق دى جيز بأنه أكبر مضطهد للبروتستانت ، وتمنوا علناً أن يخلص الله العالم منه . وهذه الأقوال هى التى بثت عند بولترو الرغبة فى أن يكون يد القدر لتخليص الاصلاح الدينى وبالاخص فى حصار روان حيث قتل ملك نافار . وعند ما كان قتل هذا الملك موضعا لحديث قال بولترو إن قتل هذا الملك لا يكفى ، فلا بد من ضحية أكبر . فلما سئل عن تلك الضحية أجاب « جيز العظيم » ورفع ذراعه الايمن فى نفس الوقت وقال « انظروا الى هذا الذراع الذى سيضرب الضربة القاضية ويضع حدا لمتاعبنا » ويقول دوبينى D'Aubigné إن كل أعضاء الحزب البروتستانتى كانوا يعلمون ويؤملون أن يرتكب بولترو جريمته ، فلما ارتكبت عم الفرح الجميع حتى أثناء القداس فى الكنائس إلى أن أصبح ملحوظا أن كل فرد ، بدلا من أن

يستنكر القتل وهو شعور لم يخطر لأحد ، كان يعد من دواعى الشرف لو أنه هو الذى ارتكبه .

وفى أثناء الثورة الانجليزية اعتبر كتاب سياسيون عديدون نخص بالذكر منهم ملتون أن قتل الطغاة مشروع .

وفى القرن الثامن عشر تولت امبراطورة روسيا الدفاع بجرأة عن مشروعية قتل الطغاة ، فلما دفعت كاترين زوجها بطرس الثالث لأن يقتل أصدرت للدفاع عن جريمتها منشورا لا ينكره دعاة نظريه قتل الطغاة والفوضى ، وأيدت فى المنشور أن بطرس الثالث كان عدوا للأمة والدين وأن الرجال الشجعان الذين خلصوا روسيا منه يستحقون التهنئة .

وأكد اليعقوبيون فى أبان الثورة حقهم فى قتل كل طاغية . وادعى المهاجرون هذا الحق لأنفسهم واستأجروا قتلة للقضاء على القنصل الأول . وكتب أحد المهاجرين واسمه بلتييه Pelletier فى صحيفة كان يصدرها بلندن أن الغاصب لاحق له فى الحياة وأن قتله مشروع . وطلب القنصل الأول محاكمته فحوكم أمام المحاكم الانجليزية وأدين . وكان اعتداء جورج كادودال Cadoudal على حياة بونابرت محل اعجاب الملكيين . واظهر الثوريون الذين لم تكن لهم يد فى تلك الجريمه أسفهم لأن حزبهم لم يكن هو الذى ارتكبها لشدة مابدالهم من جلالها . ويقول المستشار باسكييه Pasquier فى مذكراته إن تدبير قتل نابليون كان من

عمل موبرويل Maubreuil وكانت تؤيده الدول المتحالفة وتاليران .

وفى عهد عودة الملكية ولويس فيليب ونابليون الثالث حوول أكثر من مرة الاعتداء على الملوك وامراء البيت المالك . فقد حاول المتعصبون ست محاولات للاعتداء على حياة لويس فيليب . ووجهت المحاولة السابعة لقتل دوق دومال ونيمور ، وكانت أفظع تلك المحاولات جريمة فيشى Fieschi الذى أزهق وجرح اثنين وأربعين نفسا فى سبيل الوصول الى الملك .

ولقد كان كره الهيأة الاجتماعية والغرور وقراءة كتب الثوريين وبالاخص سان جوست ، وتحريضات الجرائد التى كانت تهاجم لويس فيليب بغير انقطاع البواعث القوية لهذه الاعتداءات . وتمسك اليبو Alibaud امام محكمة النبلاء بأن قتل الملك من حق الانسان الذى لا يستطيع الوصول الى الحق الا بيده وأنه حين اعتدى على لويس فيليب لم يكن أضعف حقا من بروتوس حين قتل قيصر . واعترف كينيسيه Quenisset أحد المعتدين على دوق دومال ونيمور أنه نشأ على نظرية قتل الملوك فى احضان الجمعيات السرية ، وأنه على حد تعبيره صب فى قالب يجعل منه رجل عمل .

وكانت الجمعية المعروفة باسم « جمعية الرجال العاملين انصار المساواة » هى التى حرضت دارميس Darmès على قتل الملك . وكان كره دارميس للملكية يزامل فى نفسه كرهه للبورجوازيه .

وكانت أقواله عن البرجوازيين من نوع أقوال الفوضويين : « إنهم جميعهم من أولئك الناس الذين حرروا سنة ١٧٩٨ وبعد أن جردوا الاشراف أسيادهم أصبحوا أخصام أفراد الشعب الذين يضطهدونهم بدورهم»

وكان الذى يساعد على ارتكاب جرائم قتل الملوك فى ذلك الوقت هو ما يساعد فى أيامنا على ارتكاب جرائم الفوضويين ، واعنى به الجمع بين التعصب السياسى والغرور . فقد اعترف فيشى Fieschi أن الرغبة فى الشهرة كانت العامل الاهم فى محاولته ، واعترف هنرى ، آخر الذين حاولوا الاعتداء على لويس فيليب ، أنه زهد الحياة ورغب فى أن يكون موته مثاراً لاهتمام عام . وكان التفاخر أحد البواعث الهامة لجريمة لوفيل Louvel الذى كان يقارن نفسه بشارلوت كورديه ، وظن أن ينال مجدا بفعلته ، وأعلن فايان Vaillant بعد ارتكاب جريمته انه بعمله هذا قد وضع نفسه فى صفوف الذين أحسنوا الى الجماعة الحديثة وأن اسمه قد أصبح من الخالدين .

وكانت المحاولات لقتل الامبراطور كثيرة فى عهد الامبراطورية الثانية . ولم تفتر همة مازينى Mazzini يوما عن الدعوة لقتل الامبراطور وعن إيفاد متعصبين لهذا الغرض . ولقد كتب فيليكس بيا Felix Pyat أحد اللاجئين إلى لندن يقول : « ما الحاجة إلى مناقشة مشروعية أو عدم مشروعية قتل الملوك ، إن ذلك لعبث

لا طائل منه فى موطن شارل الأول ؟ فأبناء الرجال الذين طيروا رأس كابيه Capet ليس لديهم ما يلقنونه فى هذا الأمر لأبناء الذين أعدموا مارى استوارت ؟ »

وحاولت اللجنة الثورية الأوربية التى كانت تنعقد فى لندن فى أكثر من مرة ، سنتى ١٨٥٣ و ١٨٥٥ الوصول إلى قتل نابليون الثالث بواسطة المتعصبين الايطاليـــين وأدت محاولة أورسينى وشركاه ، فى ١٤ يناير سنة ١٨٥٨ إلى جرح ١٥٦ مات منهم ثمانية ، ومع ذلك ادعى أورسينى أثناء التحقيق معه ان مبادئه لا تبيح القتل . وقال بيترى إنه ليس من الادعاء بحيث ينصب نفسه قاضيا للملوك .

وترافع محامى أورسينى ، جول فافر فهاجم حق قتـــل الملوك مهاجمة بليغة : « لست ممن يتخذون القتل والخنجر شعارا لعقائدهم ، انى أكره العنف ، واستنكر القوة اذا لم تكن فى خدمة الحق ـ فلو قضى سوء الحظ على أمة أن تقع فريسة لرجل مستبد ، فليس الخنجر هو الذى يفك قيودها . ان ساعات الرجال المستبدين مرصودة عند الله وهو الذى يتولى عدها . ان عنده لهم مصائب لامفر لهم منها وهى أكثر فتكا من الآلات النارية الجهنمية » وقد أصاب جول فافر فليس قتل الطاغية هو الذى يقضى على الطغيان ، فاذا كانت أمة تعودت العبودية فان الطاغية الذى يقتل بسرعان ما يحل محله طاغية آخر . فلم يؤد قتل قيصر الى اعادة

الحرية لروما . وفى عهد الامبراطورية الرومانية قتل الكثير من الاباطرة ومع ذلك فقد جاء بعدهم من لم يكن أفضل منهم .

الى أى مصير تقاد الشعوب لو ابيح لكل مواطن أن يقرر أن الأمير طاغية وأن من حقه أن يقتله ـ مستمدا ذلك الحق من نفسه ، من غير محاكمة ، لصالح الدولة أو الدين أو نجاة الشعب ؟ ماذا يكون المصير ؟ أنها تصبح كما قال بوسويه مذبحة ومهداً للحروب الاهلية واراقة الدماء . وكتب كاتب كاثوليكى يدافع عن جريمة جان شاستل فقال إنه لافرق بين الكاثوليك والبروتستانت الا فى تعيين من هو الطاغية فقد كان دوق دى جيز فى نظر البروتستانت هو الطاغية وعند الكاثوليك كان الطاغية هو كولينى أو هنرى الثالث أو حتى هنرى الرابع . ولقد كان أطيب الملوك قلبا من أمثال لويس السادس عشر ولويس فيليب طغاة فى نظر بعض قادة الافكار . ولماذا لايعد أعضاء البرلمان طغاة ؟ الحقيقة ما قالها بوسويه فى الرد على نظرية جوريين Jurien عن قتل الطغاة وهو أن نظريته صحيحة فى مهاجمة أى سلطة عامة أخرى ، الملوك ومرؤوسوهم ايا كانت أسماؤهم ، وبأى طريقة استعملت تلك السلطة . لأن ما هو مشروع ضد الملوك ، يجب بالتطبيق لذلك أن يكون مشروعا ضد مجلس الشيوخ ، وضد هيئة القضاة ، وضد الموظفين جميعهم والبرلمان ، كلما سنت هذه الجمعيات أو الافراد قانونا مضادا أو يظن أنه مضاد للدين أو سلامة الفرد .

إن قاتل الملك يدعي أن الذى يبرر عمله هو الغرض الذى يرمى اليه : سلامة الوطن . ونستطيع أن نجيبه بأن قتل الرجل أعزل ليست طريقة مضمونة لخلاص الوطن ، فضلا عن أن مشروعية الغرض المطلوب لاتبرر الالتجاء لوسائل عجوجة ، فان واجب خلاص الوطن لايقضى على واجب الانسان نحو احترام الحياة الانسانية . يحق للانسان أن يضحي بحياته هو لنجاة وطنه ولكن لايحق له أن يضحي بحياة الاخرين . أن مصلحة الوطن لاتبيح الاغتيال . واذا كان يكفي أن يقول كاثوليكي إن زعيما بروتستانتيا طاغية ، أو أن يتهم كاتب ملكا بالطغيان ، فيبيح ذلك له أن يغتاله لحق لنا أن نقول ، مع بوسويه ، إن الجمعية الانسانية قد انقلبت الى مذبحة .

ليس قتل الطاغية لنجاة الوطن بمباح كما أن حرق الزنديق لارضاء الله لا يرضيه . ولو ان الغاية كانت تبرر الواسطة لما كان هناك شيء اسمه الواجب ولأبيح كل نوع من أنواع الجرائم ، إن حسن النية لايبيح العمل الاجرامى ، فالاغتيال جريمة ولو كان وسيلة . فان من قتل رجلا بغير محاكمة ، سواء كان ملكا أو فرداً ، لأنه قد قرر من تلقاء نفسه أنه طاغية ، انما يصبح هو نفسه الطاغية .

الفوضوية

أن التخلص من النظام الملكى لم يضع حدا لمحاولات قتل رؤساء الدول ، فان روح التمرد لا تزال تشاهد فى الجمهوريات كما كانت فى الملكيات . ضد رؤساء الجمهوريات والجمعيات التشريعية كما كانت ضد الملوك .

ذلك أن الفوضوية لا تخرج عن كونها تطبيق لمبدأ قتل الطغاة ونتيجة لتلك الحكمة الزائفة التى تقرر أن الغاية تبرر الجريمة السياسية فى سبيل نجاح المبدأ . فكما أن قتلة الملوك يصيحون «ليهلك الطاغية» كذلك يصيح الفوضويون «ليهلك الاغنياء» . ونظرية هؤلاء هى بعينها نظرية المتآمرين ورجال الارهاب الذين كانوا يقولون « الغاية تبرر الواسطة والاغتيال مباح اذا كان فى سبيل انتصار الدين أو سلامة الوطن » .

ولقد أظهر أحد الصحفيين فى حديث له مع أحد الفوضويين دهشته اذ رآه معجباً بجريمة فايان فكان رد الفوضوى « أنى أتصور أن الجمهوريين كانوا يعجبون بقتل الملوك الذى يعود عليهم

بالفائدة كما فى سنة ١٧٩٣ . حسن ، فالعامل فايان انما ارتكب جريمة قتل ملك حين ألقى بقنبلته على « ملوك الجمهورية » .

وتمسك فايان ليبرر جريمته بأن موقفه من الاغنياء انما كان موقف دفاع عن النفس وهو يقول : « ألسنا ندافع عن أنفسنا حينما نهاجم ردا على الضربات التى تنصب علينا من فوق » ؟ أليست هذه هى المغالطة التى كان يلجأ اليها مغتال الملوك ليبرر جريمته ؟ إنه كان يقول إن للمواطن ضد الطاغية ماله من حقوق ضد العدو ، انه يدافع عن نفسه . وقد استند مؤلف رسالة الدفاع عن جان شاستيل على هذا الحق المزعوم ، واضاف أن الطاغية يكون فى حالة حرب ظالمة ضد مجموع الشعب وأفراده ، بينما الشعب على العكس فى حرب عادلة معه . وعلى ذلك فهو يبيح ضده كل ماتبيحه الحروب ضد الاعداء الحقيقيين .

وكان الارهابيون كفوضويى العصر الحديث يباهون بجرائمهم فكانوا يفخرون بما أحرقوا من قسس وما أعدموا من نبلاء . ولم يشعر سان جوست ولا روبسبير ولا كوتون ولا كولودربوا أو بيلوفارن Billaud - Varennes بشىء من تأنيب الضمير بل كانوا يظنون أن الاغراق والاعدام والمذابح التى اشتركوا فيها يبررها الهدف الذى رموا اليه ، وكانوا يرون أن إسالة الدماء تنقى النظام الاجتماعى من مفاسده .

والفوضويون الذين ألقوا القنابل ليرهبوا الهيئة الاجتماعية انما

يدافعون عن أنفسهم بنبل الغرض الذى يرمون الى الوصول اليه بهذه الاعتداءات المنكرة . فهم لايخجلون من أفعالهم ، لانهم انما يسعون لتحقيق سعادة الانسانية بالديناميت كما كان اليعقوبيون يلجأون الى المشانق لتحقيق نفس الغاية .

فبعد أن أعدم روبسبير الجيروونديين قال « الآن وقد تلخصنا من المتآمرين لم يعد هناك مايعوقنا عن تحقيق سعادة الشعب » . لقد ظن أنه عمل لمصلحة الشعب بقطعه رقاب الجمهوريين المعتدلين . فما هو الفارق بين نظريته ونظرية الفوضويين الذين يريدون بدورهم القضاء على الرأسماليين لنزيحوا العوائق التى تقف فى سبيل تحقيقهم لهناء الشعب ؟

يريد الفوضويون أن يرهبوا الرأسماليين كما أراد رجال الارهاب أن يرهبوا النبلاء . قال فوضوى « نريد أن ننشر الرعب لنحكم » — وكان النهيليون الروسيون يسمون أنفسهم : الارهابيون . وقد طالبوا بذلك النعت حين محاكمتهم وقرروا أن غرضهم إرهاب الحكومة . ونجحوا فى ذلك فقد ظلت روسيا سنين طويلة فزعة من أثر مجموعة جريئة من الاعتداءات . وعثر فى أحد مناهج الحزب النهيليستى الذى ضبط فى كونجزبرج : « أما فيما يختص باغتيال بعض الاشخاص فيجب أن يكون رائدنا الوحيد « تقدير ما قد يعود من فائدة نسبية من ذلك الاغتيال . . ويجب أن ينزل عليهم الموت من حيث لا يتوقعون ، فيبلبل الحكومة ، وينشر

الرعب فى الخارج ». وأغراض الفوضويين الفرنسيين مماثلة : وهى إرهاب الحكومة والقضاة والمحلفين . فالقنبلة التى ألقيت على مطعم فيرى لم يقصد بها مجرد قتل المواطنين الشجعان الذين أرشدوا عن رفاشول ، بل كانت ترمى إلى إرهاب المحلفين الذين سيتولون محاكمته

وقد اتخذ الفوضويون كالارهابيين سنة ١٧٩٣ شعار دانتون « الجرأة ، الجرأة ، ودائماً الجرأة » . فدانتون هو المثل الأعلى الذى يتشبهون به ويقول كروبتكين Kropotkine « إن على الرجال الشجعان أن يفهموا أن النجاح يتطلب الجرأة ، لذلك يجب إقصاء كل شفقة وكل تردد وكل عمل ناقص . فلا يزال الخطر حيث اكتشفه دانتون حين صاح بالفرنسيين . « الجرأة ، الجرأة ، والجرأة دائما» . والمطلوب قبل كل شىء هوالجرأة العقلية التى سوف تجلب معها بلا شك القدرة على الارادةالجريئة » .

ونظرية دانتون ، التى هى أيضاً نظرية مكيافلى كانت دائما نظرية الثائرين . فهى النظرية التى أشاد بها برودون Proudhon عام ١٨٤٨ حين قال « تذكروا كلمات دانتون غداة اليوم العاشر من شهر أغسطس عندما طلبت فرنسا الثائرة من أبنائها نصيحة تخلص الوطن . لقد قال دانتون قولا فاصلا « إن من الضرورى إدخال الرعب فى قلوب النبلاء » . وكذلك يقول الفوضويون عند ما يرتكبون جرائمهم المنكرة « يجب إرهاب الرأسماليين » إنهم يعلمون أنهم أقلية ولكنهم يرتكنون على

جبن المجموع ، وعلى جرأة الأنصار وعلى عدوى المثل . ويقول كروبتكين « إن الأقليات تنجح بالعمل على إيقاظ شعور الاستقلال وحمى الجرأة التى بدونها يستحيل إتمام أية ثورة . ولا بد لايقاظ الجرأة من ضرب الأمثلة . فان روح التضحية تعدى . فبتأثير الحوادث التى تلفت إهتمام الجمهور تتسرب الفكرة الجديدة إلى عقول الرجال وتكتسب أنصاراً جداً . وإن الفعل الواحد قد يساعد فى أيام قلائل على انتشار المذهب بأكثر مما تفعله آلاف المنشورات . فهو قبل كل شيء يوقظ روح التمرد وينمى الجرأة . . . فهناك أفعال جريئة كانت كافية بمفردها لتفكيك الآلة الحكومية كلها وتحريك المارد على قدميه . . . فلا تلبث الجموع أن تكتشف أن الوحش ليس من الجبروت بما قيل لهم ... فيزداد اقتناعهم بفائدة الثورة ويزدادون جرأة » . ويضيف صاحب النظرية الفوضوية إنه « عندما ترتفع درجة حرارة الشهوات الشعبية ، يعجز الضغط عن إيقاف حدة الثائرين ويؤدى إلى تأثير عكسى ، ويستدعى أعمالا ثورية جديدة ... وهكذا تمتد هذه الأعمال خطوة خطوة ، من طبقة إلى طبقة ، فتعم وتبلغ تمام نموها . . »

وكانت نظرية فائدة الجرأة هذه قبل أن يعتنقها الفوضويون والعقويون معروفة ومطبقة فى شيعة الاسماعيليين التى انتشرت فى القرن الحادى عشر فى آسيا وأدخلت الرعب إلى تلك القارة طوال أربعة قرون . وكان شعار تلك الشيعة : « الاعتقاد فى لا شيء

والجرأة على كل شيء » وكانت تعاليمها تقضى بان لا قيمة للاعمال وأن الالتجاء للجرائم ضرورى لاصلاح العالم . ولقد أقامت شيعة السفاكين هؤلاء مملكة عاشت أربعة قرون فى عداء مستمر ليس فقط مع الدول المحيطة بها بل مع الانسانية جمعاء ، ولم يكن زعيم هؤلاء القتلة ، مجرد قاطع طريق بل كان عالما دينيا وفيلسوفا وكاتبا (١)

وقال دانتون فى فرصـــة أخرى ليؤثر على المحكمة الثورية «إن سلامةالشعب تتطلب اجراءات حاسمة ووسائلفظيعة» وقال عند ما أمر ارهابيو سنة ١٧٩٣ باعدام الجيروندبين بالمقصلة « إن الجمهورية فى خطر ، ولنجاتها يجب اعدام الجيروندبين » ويكرر الفوضويون نفس المغالطة حين يؤكدون ، «ان الجماعة الانسانية مريضة ولعلاجها يجب أن يختفى الرأسماليون » . وكان اليعقوبيون يرون فى قتل نبيل أو فصل رأس جيروندى أو اغراق قسيس خطوات نحو خلاص الشعب ، ومقدمات حكم يبنى على الاخاء . وكان مارا يطلب فى جريدته ، ليحقق رفاهيةالشعب ، قتل خمسين ألف رجل فى يوم ، ومائتين وسبعين الف شخص فى يوم آخر . كذلك يفعل الفوضويون ، فهم يريدون تحقيق سعادة الانسانية باعدام الرأسماليين ، وهم يقولون ، « إن الرأسماليين هم الذين يقفون فى وجه سعادة الشعب ، لذلك يجب القضاء عليهم» .

(١) فيلاريت شازل سياحات ناقد (الشرق) ص ٣١٠ — ٣١٢

واعتاد رجال الارهاب سنة ١٧٩٣ أن يقولوا « لا يوجد بين النبلاء برىء » واليوم يقول الفوضويون « لا يوجد بين الرأسماليين برىء » وجاء فى البيان الذى ألقاه الفوضوى اميل هنرى امام محكمة الجنايات « ولقد مرت بخاطرى لحظة عند ما قرأت تهمة رفاشول فكرة مصير الابرياء . ولكن الفكرة لم تربكنى طويلا فان بناء مكاتب شركة كارمو لا يسكنه إلا أعضاء أسر رأسمالية ، ولذلك فلا يمكن أن يكون بينهم ضحايا بريئة »

والوسائل السياسية لأصحاب النظرية الفوضوية تشبه نظريات اليعقوبيين سنة ١٧٩٣ وان كان من العدل أن نعترف بان آراء الحزبين فيما يختص بالملكية والحكم متباينان فالفوضويون يريدون القضاء على هذه الانظمة ، بينما كان اليعقوبيون يسعون للمحافظة عليها . ومع ذلك فان الحقد على الاغنياء ، والتعطش الى الملذات قد دفع بعض اليعقوبيين سنة ١٧٩٣ الى إبداء نظريات اقتربت كثيرا من النظرية الفوضوية .

كان شومت Chaumette يقول « لقد تخلصنا من النبلاء ومن أسرة كابيت ، ولكن لا تزال عندنا ارستقراطية يجب استئصالها هى ارستقراطية الغنى » وطالب تالين Tallien بالمساواة المطلقة ولقب أصحاب الاملاك باللصوص العموميين .

وكتب بريسو Brissot من قبل برودون فى (أبحاث فلسفية عن الملكية والسرقة) اللص هو الرجل الغنى ؛ فالملكية المطلقة هى

السرقة وهو ماقاله الكتاب الآثينيون من قبل . ومما هو جدير بالنظر أيضا ما اذا كان رجال من أمثال مارا وسان جوست لم يكونا فوضويين ، مارا الذى حرض الجوع على القتل والنهب وسان جوست الذى طالب بمصادرة أمـــلاك المتآمرين والذى قال : « أعداؤنا الوحيدون هم الاغنياء والفاسقون ، ويجب أن نشعر بالحاجة الى بنـاء مدينة جديدة »

وانك لتجد هذا البغض للاغنياء ، والاستنكاف من خدمة الجيش والرغبة الملحة فى المساواة المطلقة ، والتعطش الى اللذة المادية ، والاعتقاد فى أن الغاية تبرر الواسطة ، ومشروعية الاقدام على اغتيال من بيدهم السلطان فى سبيل مصلحة الهيأة الاجتماعية ، كل هـــذه الشهوات الثورية والمغالطات التى هى أساس تعاليم الفوضوية ، تجدها فى نظريات بابوف Babeuf الذى أعلن فى عهد الديركتوار حربا شعواء على الهيئة الاجتماعية — واتخذ أنصاره المتعصبون لأنفسهم اسم « جماعة المتساويين » وكما يفعل كروبتكين الآن كانوا هم يرمون الى إنشاء جمهورية المتساويين وكان بيان عقيدتهم ، وقد كتبه سلفان مارشال ، مؤلف قاموس الملحدين ، يحوى الفقرات الآتية « اننا نطلب المساواة التامة أو الموت . . . وسننال هذه المساواة التامة مهما كلفتنا من ثمن . . . . والويل لمن يقف بيننا وبينها . . . لقد تخلص الشعب من مشكلة الملوك والقسس وسيتخلص بنفس الطريقة من الطغاة الجدد ، المرائين الجدد الذين حلوا محل الأولين . . لسنا نطلب مجرد أن

يذكر لفظ المساواة بين حقوق الانسان بل نريدها فى أوساطنا وتحت أسقف منازلنا . . . . وكل الغرض من عملنا المقدس هو القضاء على التمييز بين المواطنين وعلى شقاء الشعب . . . . لينظم طلاب العدالة والرفاهية أنفسهم فى حدود المساواة كما هو نداؤهم ... ان فجر الاصلاح قد بزغ . . . لنضع حداً لتلك التفرقة المثيرة بين الأغنياء والفقراء ، وبين العظماء والمتواضعين ، وبين السادة والخدم وبين الحاكمين والمحكومين وليكن أساس كل تفرقة فى المستقبل بين الرجال السن والجنس ، وما دام الكل يشتركون فى نفس الحقوق والواجبات فلتكن تربيتهم واحدة وليكن طعامهم واحداً . »

ولقد أراد بابوف ، كما يفعل الفوضويون الآن ، أن يجرد الجنود من حبهم لأوطانهم ومن شعورهم بالواجب والطاعة وكان يقول لهم « إن دماءكم تراق فى غير جدوى وفى خلافات مضرة بينما أمهاتكم وأزواجكم يتركن فريسة للجوع وأفراد الشعب يهزلهم الحرمان . . . إنهم يعاملونكم كما تعامل الآلات التى يمكنهم توجيهها كما يشاءون وغداً يبيعونكم بيع قطيع الغنم يبعث به صاحبه للمرعى أو للمذبحة . »

وكان بابوف وأنصاره يودون لو ضمنوا نجاح نظريتهم بالقضاء على جميع الطبقة الحاكمة . وكانوا مصممين على قتل جميع الموظفين الملكيين والعسكريين وجميع القضاة . . . وانه يجب القضاء

على كل معارضة بالقوة ، ومن قاوم يقتل . وكان منقوشاً على علم ثورتهم ألفاظ الحرية والمساواة والمصلحة العامة .

وحاول بابوف وشركاؤه أثناء محاكمتهم إرهاب المحلفين . وكان موقفهم مهيناً ، مملوءاً غروراً ، فكانوا يسبون قضاتهم . ولما حكم على بابوف بالاعدام قارن نفسه بالمسيح ، وأكد أنه يموت شهيد قضية نبيلة وعزى نفسه بفكرة أن الرجال المستقيمين والمشفقين سوف يقولون عنه « إنه كان رجلا فاضلا » واتخذ فى الخطابات التى أرسلها للديركتوار نفس لهجة الغرور ، عندما كانت قضيته فى التحضير . وطلب أن يفاوض الحكومة مفاوضة الند للند وقال عن نفسه « إن مشنقتى سوف توضع جنباً لجنب بجوار مشنقتى بارنفلد وسدنى ، وستقام الهياكل تكريما لى غداة اعدامى »

ولقد كانت كتابات مابلى وديدرو وبالأخص خطب جان جاك روسو عن عدم المساواة هى المنابع التى استقى منها بابوف وزملاؤه اراءهم المتعصبة . وقد اعترف بذلك جرمان أحد أفراد العصابة « لقد قويت شجاعتى ضد مضطهدى الانسانية بقراءة مابلى وروسو وديديرو » والواقع أن مابلى فى « رسالته عن التشريع » حاول أن يثبت أن الطبيعة أرادت أن تجعل ثروة المواطنين ومكانتهم متساوية . وأنها علمتهم أن يضعوا ممتلكاتهم سويا . فاذا انعدمت المساواة لم يبق إلا ظالمون ومظلومون . وهذه النظرية هى بعينها نظرية الفوضويين الذين لايطلبون المساواة الادبية والسياسية

فحسب ، بل المساواة الاجتماعية ومساواة الغنى واشباع الشهوات . ويقول اليزيه ركلوس فى مقدمته لكتاب كروبوتكين اكتساب القوت « يجب أن يكون فى مقدورنا أن نضمن لكل فرد اشباع جميع حاجاته ورغباته . »

ولما كانت الهيئة الاجتماعية ، بتكوينها الحالى ، تقبل عدم المساواة وتبيح الثراء الكامل فى ناحية والفاقة التامة فى الناحية الاخرى ، فلابد من القضاء عليها واحلال نظام جديد محلها ، يضمن لكل فرد نصيبه من السعادة . ويريد الفوضويون أن يأكلوا ويشربوا كالرأسماليين سواء بسواء (١) فاذا اعترض عليهم بأن الرأسمالى يدفع ثمن ما يستهلك اجابوا بانه انما يدفع من النقود التى سرقها .

وتمم برودون الذى يسميه كروبتكين « أب الفوضوية الخالد » ما بدأه بابوف ، فهو أيضا يطالب بالمساواة فيما يختص بالوظائف الاجتماعية والثروة . وهو يقول عن نفسه إن حبه للمساواة بلغ حد الجنون . « أيها الملاك الذين أثريتم من عرق

(١) قبل أن يرتكب ليوتيه جريمته ذهب الى مطعم شهير وطلب لنفسه غذاء فخما وشمبانيا معتقة ولم يدفع الثمن . ولما قيل له بأن الناس لايحتسون الشمبانيا لذا كانوا لايستطيعون دفع ثمنها أجاب « أن الاغنياء مع ذلك يشربونها » . وقد حوكم أمام محكمة جنايات ايكس فوضوى آخر طلب غذاء وزجاجة شمبانيا ولما سئل لماذا يشرب الشمبانيا مادام لايملك الثمن أجاب : « لقد شربت الشمبانيا لتقل الكمية الباقية للذين يدمنون شربها »

جيبتنا . . . انكم لاتعرفون الحماس الذى تملكنا ، حماسنا للمواساة . إنه جنون أهم عندنا من الحياة واقوى من الحب ». ويرجع الى برودون الفضل فى امداد الاشتراكية والفوضوية بشعاريهما : « الملكية هى السرقة » و « الكثلكة هى العدو » . واقتنع برودون بأن الأنظمة الاجتماعية والدينية خاطئة فاقترح نظام الفوضوية الذى يقضى على الدين وعلى العدالة . اليس هو القائل « ابدأوا باعادة الله الى جنته . ان وجوده بيننا معلق على خيط واحد هو الميزانية . اقطعوا الخيط وسوف تعلمون مايجب أن تضعه الثورة مكان الله . . . ان الثورة لاتستطيع أن تتفق مع الالوهية . . . فالاله هو العدو »

ولست أدرى إن كان الفوضويون الآن لايزالون يقرأون مايلى ، ولكننى حادثت فى محكمة جنايات البوش دى رون شخصا متهما بالسرقة اتخذ من قراءة خطاب جان جاك روسو عن عدم المساواة غذاءه اليومى ، ولا شك أن هذا الخطاب يحوى جميع العناصر الاولية للفوضوية .

إن الفوضويين فى سبيل إنشاء المساواة الاجتماعية يريدون أن يقضوا على الملكية الفردية وأن يجردوا الرأسماليين من ممتلكاتهم ويحرقوا السندات والأسهم وما شاكلها ويلغوا جميع القوانين التى تضمن حقوق الملكية . وهم يرون أن نظام الملكية مثل كالرق والعبودية وينظرون إلى إلغاء الملكية الفردية وإعادة

جميع الثروة للجماعة كالوسيلة الوحيدة للقضاء على الفوارق . وقد قال كروبتكين فى خطابه للطبقات العاملة . . ضعوا أيديكم على ممتلكات الأغنياء ، وأسكنوا قصورهم ومنازلهم الخاصة ، وأحرقوا أكوام الأحجار والخشب المسوس التى كانت تأويكم فى الماضى ... إن الملكية الفردية سرقة ارتكبت إضرارا بثروة المجموع ... إن كل المحصولات ، ومجموع ما اقتصدته الانسانية وما تملكه إنما هو نتاج العمل المشترك بين الجميع وليس له إلا مالك واحد الانسانية » .

ويضيف الفوضويون أن الغاء الملكية يؤدى فوق ذلك إلى اختفاء الاجرام كلية « أما ما يدعى (جرائم) - أى اعتداءات على النفس - فان من المعروف أن ثلثيها إن لم يكن ثلاثة أرباعها مبعث الرغبة فى الحصول على الثروة المملوكة للغير . فهذه المجموعة الكبيرة مما يسمى جرائم سوف تمحى يوم يقضى على الملكية الفردية » ولقد وصل ديدرو - قبل كروبتكين - إلى هـــذا الاكتشاف فهو القائل « إننى أظن أنه لا اعتراض على أنه لو لم تكن الملكية الفردية لانقضت كل نتائجها الضارة »

ومعنى ذلك أن السبب الوحيد لوجود لصوص هو وجود ملاك . إلغ الملكية وأنت تقضى على اللصوصية . وعلى هذا القياس يمكن القول إن الزنا يرتكب لأن الزواج موجود ، وانه للقضاء على الزنا يجب القضاء على نظام الزواج ! ! وكان ديدرو يريد - كما يريد الفوضويون - أن يجعل الملكية للمجموع ليحقق المساواة

الاجتماعية . لذلك كان بابوف يقول عنه « إنه رائدنا الأول » .

ولما كانت الملكية عند الفوضويين ، هي السرقة ، فانهم يصلون منطقيا الى النتيجة الطبيعية وهى ان السرقة استرداد لحق . لقد حاكمت فوضويا قال لى « أنا لا أسرق ولكنى أسترد حقاً » . ولم يظهر هؤلاء الناس فى هذه الأيام فقط ، فقد حوكم أمام محكمة جنايات السين عام ١٨٤٧ عصابة مكونة من عشرة من المجرمين اعتزموا بطريق السلب والحرق أن يجبروا الطبقة الميسورة على أن ترد لهم بعض ما تملك وكانوا ينتمون الى جمعية معروفة باسم (الاشتراكيون الماديون) ، أفسد تفكيرهم قراءة الصحف الثورية والاشتراكية ففكروا فى هدم الهيئة الاجتماعية بقصد الغاء الملكية ، ووجدت عندهم نشرات وأغانى من نوع ما يوجد فى هذه الأيام عند الفوضويين .

وليس مما يدهش أن تكون الرغبة الجامحة فى المساواة المطلقة فيما يتعلق باشباع الشهوات المادية داعية لكره عميق للملاك والاسياد والرأسماليين . وفى أيام الثورة كانت من المظاهر المألوفة ، الناتجة عن سوء فهم مبدأ المساواة ، ازدياد روح الكراهية : كره للثروة وكره للاستقراطية وكره للتعليم وكره للفضيلة وكره للآداب . وبتأثير المغالاة فى بث مبدأ المساواة دعت الروح الثورية الى أن يكلم الناس بعضهم بعضا بغير تكلف . فألغوا عبارات التخاطب المألوفة . وكان قضاة مارى انتوانت يوجهون

اليها القول بالمفرد المخاطب ويدعونها « المرأة كابيت » وألغى اليعقوبيون تعابير «السيد» و « السيدة » ووضعوا بدلها المواطن والمواطنة . ولم يكتف المجمع التأسيسى بتحريم استعمال ألفاظ النبل بل وضع عقوبة لمن يلبسون خدمهم لباسا خاصا . وقرر المؤتمر مصادرة جميع المتنزهات والحدائق والأسوار والمنازل والمبانى التى تحمل شعائر النبل .

وأصبحت المساواة ، وقد أسيء فهمها ، عدوة الحريةوالنبوغ والفضيلة وولّدت الرغبة فى الحط من كل ما هو مرتفع ، لمساواته بالآخرين . وأصبح كل شىء يثير الغيرة : التفوق العقلى والنبل الخلق والعلم ، حتى الميزات الجسمانية . وفى أثناء الثورة عابوا على فوركروا وكان كيماويا وعضوا فى المؤتمر انه يخصص جزءاً كبيرا من وقته للبحث العلمى . وخشى فوركروا مغبة ذلك فاعتذر بقوله : « لقد شوهدت ثلاث مرات فى الجامعة وكان غرضى كل مرة نشر المبادىء الثورية » . وكان الرجال الأكفاء يضطهدون لمجرد أن الشعب كان يضايقه أن يرى فضائلهم منشورة . وقد طلب العساكر الرومانيون معاقبة سلسوس لأن استقامته وكفايته ضايقتهم كما لو انها جرائم . وحتى العظمة والفضيلة كان ينظر اليهما بحذر لأن مجرد وجودهما يعتبر انتقادا صامتا موجها للمحرومين منها . والفوضويون يرغبون فى ازالة كل تفرقة فى التعليم والتربية ويطلبون أن يكون العمل اليدوى واجبا على الجميع وأن يعطى لكل نفس القدر من التعليم والتربية .

وفى أيام الارهاب كان الأفراد يتظاهرون بسوء الخلق لعلهم بذلك ينجون من الاتهام بالارستقراطية . وكان اليعاقبة يكتشفون النبلاء فى كل ركن وناحية ، وكم أعدموا باعة وكتبة عموميين بدعوى أنهم نبلاء . كانت نعومة البشرة كثيراً ما تكفى لاثبات النبل واستحقاق الاعدام ! وكانت تسمية الشخص «بحضرة ناعم البشرة» تعادل القضاء عليه بالموت .

وعندما عرضت جثة دوقة لمبال عارية فى شارع سانت انطوان كان بياض بشرتها كافيا لاثارة غضب سفاكيها فصاح أحدهم والحقد يقطر من فمه : « أنظر لبشرتها كم هى بيضاء ولحمها كم هو بض ! »

إن تاريخ الثورات ليلقى ضوءاً فظيعا على الجانب القبيح من الطبيعة الانسانية فالحسد والرغبة فى اساءة الاستغلال هما الشهوتان المتسلطتان على الثورى . ولقد وجد فى انجلترا كما وجد فى فرنسا دعاة للمساواة وهم الذين يسمون اليوم بالفوضويين . وغالبيتهم فى صميمهم لا يعدون عن كونهم أشخاصاً يحسدون الآخرين لما بلغوا من مركز اجتماعى ، وهم يخفون جشعهم تحت شعار النظريات والمبادىء حين يطالبون بنزع ملكية أصحاب رؤوس الأموال والغاء امتيازات الرأسماليين وانتصار الطبقة الرابعة .

ولقد أوقد الاشتراكيون ودعاة العصيان نار الحقد ضد ميسورى الحال منذ أكثر من قرن . وهذا الحقد هو الذى يدفع

فى كتابه التعاليم السياسية للعمال الذى طبعه سنة ١٨٢٤ يوجه لأصحاب رؤس الأموال نفس الانتقادات التى يوجهها الفوضويون اليوم . فهو يزعم أن الطبقة المتوسطة قادت الثورة لمصلحتها وحدها وبقصد استغلال الجموع . وفى غداة ثورة ١٨٣٠ وجد خطباء اتهموا الطبقة المتوسطة بأنها ارستقراطية ظالمة وأن واجب الجموع القضاء عليها ، وفى ابان حكم لويس فيليب عمل كتاب غافلون على إيقاظ الحقد على الأغنياء بما كانوا يغالون فى وصف ملذات الثورة وتعاسة حالة الفقراء . وما أكثر الكتب التى تصف أصحاب الأعمال بأنهم وحوش تمتص دماء العمال على حين تصف العمال بأنهم ضحايا الاستبداد وان حالتهم أقل من الأرقاء .

ومن بين هؤلاء الكتاب الذين أيقظوا عواطف الحقد والانتقام فى قلوب الجموع كاتب يستحق ذكرا خاصا لكفايته الخاصة التى شارفت النبوغ ولتأثيره العظيم . ذلك الكاتب هو لامنيه الذى بعد أن دعا إلى السلم والاتفاق والاتحاد ببلاغة نادرة انجرف فى تيار قوى ضد الهيأة الاجتماعية وهيج الجموع ضد الملوك والقسس والفقراء ضد الأغنياء (١) ، والعمال ضد مخدوميهم بل وحتى الجنود ضد قوادهم . وإنك لتجد كل مغالطات الفوضوية فى كتابه « أقوال مؤمن » الذى يستحق أن يسمى (أقوال ثائر) ففيه الرغبة فى المساواة المطلقة ، وكره السلطة والحقد على الأغنياء ،

(١) لامنيه هو القائل أن جنة الاغنياء هى من جحيم الفقراء .

والتحريض على العنف، ودعوة الجنود إلى العصيان. ويصف لامنيه ما أسماه استغلال أصحاب الأعمال للعمال : إنهم يزيدون باستمرار فى ساعات العمل ويخفضون من أجور العامل ويسببون موت العمال بحرمانهم من الحاجيات الضرورية ، فهم تلامذة الشيطان أشد قسوة من السادة الذين كانوا يملكون العبيد ، وليس لهم اسم يصفهم إلا فى الجحيم . ويُقَارِنُ الانسان بالنحلة التى لا يحق لها أن تأخذ من العسل الا ما يقوم بأودها ، فمتى جنى أكثر من حاجته فهو ظالم . أليست هـــذه بعينها هى نظرية الاشتراكية والفوضوية : كل بقدر حاجته ؟ ويؤكد «المؤمن» أن الله لم يخلق انسانا عظيما وآخر حقيرا ، ولم يخلق سادة ولا عبيدا ، ولا غنيا ولا فقيرا ولا ملوكا ولا رعايا . لقد خلق الله الناس متساويين . وهنا أيضا يستحيل أن لا يلاحظ التوافق التام بين أراء لامنيه وأراء بابوف الذى كتب فى مشروع نظامه « يجب فى الجمعية المكونة تكوينا صحيحا أن لا يكون بها أغنياء أو فقراء ـ الأغنياء الذين لا يتنازلون عن الفائض من أملاكهم للمحتاجين هم أعداء الشعب . غرض الثورة القضاء على الفروقات ونشر السعادة العامة (١) » وينفر مؤمن لامنيه من فكرة الحرية المطلقة ويقول

---

(١) وقال بوارو شريك فيكى « إن الله لم يخلق ملوكا أو رعايا ، ولا سادة ولا عبيدا . ولو أن الله كان قد أراد أن يكون الناس عبيدا لجعلهم يولدون وعلى ظهورهم البرادع » ولما كان بوارو يشرح نظريته هذه لقسيس مسيحى رد عليه بكلمات

« إنه لا وجود للحرية الا إذا لم يكن هناك من يراد اخضاعه » ويقول أيضا «ليس لكم الا أب واحد هو الله وسيد واحد هو المسيح وقد ولدتم متساوين . وليس فى العالم من ولد ومعه حق فى السيطرة » ويعبر البزيه ركلوس عن نفس الفكرة ويرتكن كما يفعل لامنيه على نفس السورة من العهد الجديد حين يقول « ليس الخلاص فى اختيار سادة جدد . فلا حاجة لنا نحن الفوضويين ، أعداء المسيحية أن نذكر الهيئة الاجتماعية التى تدعى أنها مسيحية بهذه الكلمات التى قالها رجل اتخذوا منه إلها . « لاتقولوا لرجل أنت سيدى . سيدى ! دعوا كل شخص سيداً لنفسه» . ويأبى الفوضويون أن يكون لهم سادة أو ملوك أو ممثلون منتخبون ، وهم يقولون إن الغرض الوحيد الذى ترمى اليه الطبقة المتوسطة من إسقاط الحكومات هو الاستيلاء على المراكز التى تشغر . أما اليوم فغرضنا القاء كل حكومة وكل سلطة لنهب الحرية لبنى الانسان ، ولتكن كلمة السر لهذه الثورة الجديدة : لاقوانين ، لاتشريعات مجرمة ، لا ثكنات ، لا سجون ، لاقضاة ، لا بوليس .

ولقد زادت كمية الكتب التى تهاجم الجيش زيادة فاحشة . فالثوريون يطلبون إلى الجنود أن يرفضوا اطاعة الأوامر وإلى

فولتير : « أدع الى الخروج على القوانين والسلطة وانت تجد بجانبك كل كسول فاذا ماوجدت هؤلاء طوع ندائك فلن تعدم رجالا ماكرين : يضعون البردعة واللجام عليهم ويمتطونهم ليدفعوا بهم الى اسقاط العروش والامبراطوريات ، ففكر بوارو لحظة ثم قال « من الجائز جدا ان تكون على حق »

المطلوبين للجندية أن يمتنعوا . ولقد كنت ضمن قضاة سباستيان فور لمحاكمته على تحريضه الجيش على العصيان ولاحظت أن ترتيب دفاعه يشبه تمام الشبه الآراء التى شرحها لامنيه فى الفصل الخامس والثلاثين من « أقوال مؤمن » حيث يحرض الجنود ضد قوادهم ويصور الخدمة العسكرية بأنها اختراع شيطانى . ويقول لامنيه « إن مضطهدى الأمم اخترعوا الخدمة العسكرية لغرض واحد هو أن يبثوا فى الناس روح العبودية . لقد أشار عليهم إبليس بحيلة جهنمية حين جعلهم يؤكدون أن الطاعة تشرف وأن الشرف والاخلاص فضيلتان . فان إبليس يقول : سوف أقنعهم بأن ذلك الخضوع يدعو للفخار ، وسوف أقيم لهم صنمين يسميان الشرف والاخلاص وقانونا يدعى الطاعة العمياء » . فاذا كان الشرف والاخلاص والطاعة قد أصبحت أصناماً فالنتيجة واضحة : يجب لخير الانسانية أن تحطم تلك الأصنام .

وقد كتب لامنيه صفحات ضد العنف والجريمة لم يصل أحد إلى بلاغتها بعد فهو يقول : «إن أقدس القضايا تصبح كافرة ممجوجة إذا استعملت الجريمة لتأييدها » ومع ذلك فلا نكاد نتخطى بضع صفحات من كتابه حتى نراه بذلك التناقض الغريب الذى برع فيه ينصح المضطهدين أن يلجأوا عند الضرورة إلى العنف ليقضوا على طغيان مضطهديهم ويقول : « فاذا بدا لكم فى أول الأمر أن النصر يفلت من قبضتكم فان هى الا تجربة وسوف يجىء يومكم لأن

دمكم المهرق سوف يغدو كدم هابيل الذى قتله قابيل وموتكم كموت الشهداء » وهكذا يحرض لامنيه الفقراء ضـــد الأغنياء ويدعوهم أن يأخذوا حقهم بأيديهم وأن ينالوا نصيبهم من السعادة بالقوة ويود لو حددت الملكية بالقدر اللازم ولو سوى بين أشباع المطالب المادية ، ويعلم المواطنين احتقار السلطة ، والجنود بغض قوادهم ويقول لهم إن الشرف والاخلاص هما صنمان . أليست هذه هى نظريات الفوضوية بعينها ؟

والى هذا الحد من التعبير العنيف يسمح كاتب نابغ لنفسه أن يكتب اذا عجز عن كبح جماح عواطفه وقوة خياله . فعقله يتيه وحكمه يتبلبل لدرجة أنه لايعود يرى الأشياء على حقيقتها . فحينما نظر لامنيه ظن أنه يرى الضعفاء يشكون الاضطهاد ، والرجال الأفاضل يشحذون قُوتَهم ، والطغام يكسوهم الشرف ويغرقهم الثراء ، والأدباء يدينهم قضاة ظالمون . وحضر ذات مرة محاكمة متشرد . والقانون يحتم لأدانة الشخص بهذه التهمة توفر ثلاثة شروط : أولا أن لا يكون للمتشرد سكن معروف ، ووسيلة للتعيش ، وأن يكون ممن لايتخذون عادة صناعة أو تجارة ، فلا يكفى عـــدم وجود السكن أو وسيلة التعيش مالم يصحبها عدم اتخاذ صناعة أو مهنة عادة . فالقانون يطالب كل رجل لا وسيلة له للتعيش بأن يعمل ، لأن الشخص الذى يتشرد بغير وسيلة أو عمل ـ يكون خطراً على الهيئة الاجتماعية . ولقد أعمى سوء الظن

بالهيئة الاجتماعية لامنيه تخيل له ان هذا الرجل أدين لأنه فقير وغادر المحكمةوهو يسب القضاء ويلعن الهيئة الاجتماعية (١) فهو لم يتنبه لأقوال رئيس الجلسة ولا فهم أسباب اتجاه الحكم نحو الادانة . فلو أنه حين عاد الى مكتبه راجع القانون الجنائى لعلم أن القاضى لم يعاقب الرجل لفقره ، بل لاعتياده الكسل .

ويكاد يكون كل الكتاب الذين هاجموا الهيئة الاجتماعية بكتاباتهم ورواياتهم وقصصهم التمثيلية والذين قدموا للفوضوية أسلحتها عن شوش تفكيرهم إحساس مريض وخيال غير منظم . إنهم يألمون لمنظر البؤس الانسانى لدرجة أنهم يسخطون على الخالق وعلى الهيئة الاجتماعية وإحساسهم يجعل منهم اشتراكيين أو كفرة بل ومجانين . ولقد ملأت آلام إرلندا سويفت غضباً فهو يقول لأحد أصدقائه : ألا يأكل فساد الرجال وميولهم الشريرة نفسك ؟ ألا يغلى لها دمك ؟ فلما أجابه صديقه بالسلب لاحظ سويفت بغضب : كيف تستطيع أن تحكم شعورك ؟ (٢)

ولقد قال لى فوضوى حاكمته إنه لا يستطيع احتمال منظر الآلام والمظالم التى رآها فى العالم وود لو ينتحر لينجو من ذلك المنظر.

فالاحساس المرهف والخيال المريض هما اللذان قادا الكثير

---

(١) ويقول لامنيه زيادة على ذلك فى أقوال مؤمن فصل ٢٨ : ليس فى العالم إلا قوانين ضارة . يأبناء آدم ، ان القوانين التى يحكمونكم بها هى أحجار الرحا وأنتم الذين تطحنون بين شقيها .

(٢) ذكريات جوناثان سويفت تأليف والترسكوت جزء ٢ ص ٥٠

من الكتاب لمهاجمة الهيأة الاجتماعية مهاجمة عنيفة . فاشفاقهم على العمال يجعلهم لايعدلون بل ويتجردون من كل شفقة نحو أصحاب الأعمال ، ويدفع إلى أفواههم كلمات غاضبة فيها تحريض للجموع على الحروب الأهلية . فلويس بلان بدعوته الشعب للانتقام من طغيان الطبقة الوسطى مسئول بقدر غيرهين عن حوادث يونيو سنة ١٨٤٨ . وهو مسئول أيضاً لتفوهه بجمل كالآتية « إن الرجل الذى يطلب أن يعيش فى خدمة الهيئة الاجتماعية والرجل المقدر عليه أن يهاجمها أو يموت ، إنما يلجأ إلى المهاجمة دفاعا عن نفسه والهيئة الاجتماعية التى تحاكمه ليست تقاضيه بل تقتله » وإنك لتجد نفس المزيج من الاحساس المريض والقسوة فى كتابات كروبتكين فقلبه مفعم بالشفقة نحو العمال والزارعين ، وإن كانوا لصوصاً وقتـــلة ، وهو يفيض سروراً لفكرة الهدم ونزع الملكية والافناء التى يطلبها لأصحاب رؤس الأموال وممتلكاتهم. وهو يقول « لنعامل الأخ الذى أحدث جرحاً بزميله فى ساعة الغضب كأخ لنا ، أما المجرمون الحقيقيون فهم أبناء الأوساط الميسورة الذين أنبتهم الكسل» . وهو لا يعرف الرحمة حين يكون المقصود نزع ملكية الرأسماليين لاشباع حاجات الشعب ويقول : « لابد من تنفيذ نزع الملكية بمقياس واسع ، لأنها اذا عملت بمقياس ضيق كانت أقرب إلى النهب ، أما إذا شملت الجميع ، فهى بداية التنظيم الجديد للهيئة الاجتماعية » .

وكان مارا وروبسيير من رجال الارهاب فى سنة ١٧٩٣ الذين كانوا رجالا حساسين رغبوا فى تحقيق سعادة الانسانية بالقضاء على النبلاء . وروبسيير يقول « إن كل مخلص فى حب وطنه ليقبل جذلا على كل فرصة تسنح لتوجيه الضربات إلى اعداء الوطن » . وكان فوشيه فى الوقت الذى يسيل الدماء مدراراً فى ليون يبكى فرحاً للسعادة التى كان يحققها للانسانية ، وكتب للمؤتمر يقول « لقد ذبحت مائتى رأس وأقترح ذبح مثلها يومياً . وإن عينى تسيل منها دموع الفرح وإحساس الفضيلة . يجب أن نحتذى الطبيعة فى توزيع العدالة : « لنضرب بسرعة البرق الخاطف ولنخلص أرض الحرية حتى من رماد أعدائنا » .

وفى العهد الذى نشير إليه كان كل يعقوبى يفكر فى عمل من أعمال القسوة يختم دعوته إلى الاضطهاد باظهار حبه للانسانية . وكان الجلادون أنفسهم يتظاهرون بالاحساس . وكثيرا ما كانت أحكام الاعدام التى تصدرها محكمة الثورة تتلوها خطابات رقيقة .

وقال الفوضوى ليوتييه فى ختام دفاعه أمام محكمة جنايات السين « دعونى أقول لكم إننى قد ارتعد أمام برص ؟ ولكن الرجال لايخيفوننى ، وقد أبكى أمام طفل ولكنى أبسم للمقصلة » . والرجل الذى يرتعد أمام البرص لم يرتعد حين أغمد سكينه

فى صدر الوزير الصربى (١) فوت فراشة يجعله يبكى وموت رأسمالى جعله يبتسم ! !

ويجب أن نذكر من بين المبادىء العديدة التى تدفع الفوضوى للعمل الفكرة الخاطئة التى تقضى بأنه يحق للمواطن أن يحل نفسه محل الدولة اذا كان الغرض الثأر لاهانة لحقت أو منع ظلم يقع . فالفوضوى يعد نفسه الموزع للعدل والمنتقم للمضطهد . فهو ، لينتقم من القضاة الذين يدينون زملائه ، ينسف ديارهم ، ويقذف قنبلة على المطعم الذى يجلس فيه المواطنون الشجعان الذين أبلغوا عن أحد شركائه ، وقد يقتل مدير الشركة التى يعتقد أنها تظلم عمالها . وأخيرا ، اذا حكم على فوضوى بالاعدام ، فان أصدقاءه يثأرون له بتدبير اعتداءات جديدة .

وقد اقترح الروائيون والمؤلفون المسرحيون أن يستكملوا حقوق الرجل والمرأة باعلان أن حرية الحب والزنا من ضمن تلك الحقوق ، وأعلن الشعراء حق المرء فى أن يأخذ قوته اليومى ولو بالقوة . وتمسك الفلاسفة الماديون بحق السعادة واشباع الحاجيات ، كما أعلن الاشتراكيون حق العمل والثوريون حق التمرد . كل هذه الحقوق ، حق الحب الحر والزنا ، وحق نيل القوت اليومى ، وحق السعادة واشباع المطالب ، وحق العمل ، وحق التمرد يطالب بها

---

(١) هذا الاحساس المريض الذى يسير جنباً لجنب مع القسوة هو أيضاً من مخلفات القرن الثامن عشر ويرجع الفضل فيه الى روسو والمدرسة العاطفية .

الفوضوى ويضيف اليها حق السرقة والقتل . وقد سبق مرتكبو الجرائم التى مبعثها الشهوة فقبضوا على العدالة بأيديهم واستكملوا حقوقهم بالالتجاء الى ماء النار والمسدس أما الفوضويون فيطلبون اليوم حق استعمال الديناميت . فاذا ارتكبوا جريمة القتل أكدوا أنهم يؤدون عملا عادلا ، كما أنهم حين يسرقون يستردون حقاً . فاللصوص فى عرفهم هم ملاك الثروة المسروقة ، وقتلة الشعب هم أصحاب رؤس الأموال الذين يقلونهم .

ولقد أظهر البعض دهشتهم لما يديه الفوضويون من الجرأة والهدوء أثناء محاكاتهم ومن ثباتهم أثناء تنفيذ عقوبة الاعدام فيهم ، حتى لقد قارن بعض الكتاب بينهم وبين المسيحيين الأول . ولقد سبقهم بانيل إلى مقارنة قتلة الملوك بالشهداء ، فهو يقول فى قاموسه تحت لفظة شاستل ، إن من المؤسف أن هذا النوع من القتلة يبدى من الثبات ما يشبه ما كان يبديه شهداء الكنيسة الأول .

واذا كان الفوضويون يبدون ثباتا أثناء تنفيذ حكم الاعدام فيهم فيرجع ذلك الى التعصب الذى يحركهم والغرور الذى يتملكهم ، وكل تعصب ، مهما كان الباعث عليه بغيضا ، يؤدى الى نوع من التطور والشجاعة . والغرور يسندهم أيضا . فكل الفوضويين مغرورون . أنهم يعرفون أن الجمهور يتطلع اليهم وان الصحف تنشر كل ما يتعلق بهم ، وهذا النوع من الشهرة ، الذى هم به جشعون ،

يمـــدهم بنوع من السرور يسكرهم (١)

والواقع أنهم أبعد ما يكونون عن النظر الى الموت بدون اكتراث ، وأنهم يبذلون كل جهد لتجنبه . فلا يكاد الواحد منهم يرتكب جريمته حتى يفر ، ويتهم الابرياء ليضلل العدالة . وهو يصوب مسدسه نحو رجال البوليس الذين يحاولون القبض عليه ويتخفى ، ويجيب باجابات ملفقة بغية التخفيف من مسئوليته . فقد أكد فايان انه حين القى قنبلة فى مجلس النواب لم يكن يقصد قتل أحد . وليوتييه الذى أنفذ سكينة الحذاء فى صدر الوزير الصربى ادعى أنه كان يقصد مجرد جرحه .

وبينما كان الشهداء المسيحيون يستسلمون الى الذبح كالاغنام ويغفرون لذابحيهم ، فان الفوضويين يكدسون الجرائم فوق الجرائم ويقفون كالوحوش الضارية يتلذذون باراقة الدماء والتدمير . فأى وجه للمقارنة بين النمور التى تقتل وتسرق والاغنام التى تستسلم للذبح والسلخ ؟

ويجب أن أذكر بين الأسباب التى أفسدت الضمير الانسانى

---

(١) عندما كتب ليوتييه الى سباستيان فوريبه عزمه على قتل أحد الرأسماليين قال « انى أكل اليك امر الدفاع عنى دون المحامين ، وسيكون من حظ كلينا ان يمضى ساعة لذيذة أثناء المحاكمة فى شرح الاسباب التى دعتنا لارتكاب الحادث . وقضاة فيينا ، ليحرموا الفوضويين من هذه اللذة ، يحاكمونهم فى جلسات سرية . وواجب الصحف أن تمتنع عن نشر مايعمله المتهمون او يقولونه ومن أخذ صورهم والترحم على مصيرهم .

وساعدت على خلق حالة الفوضويين العقلية تمجيد مؤرخين كثيرين للجرائم التي ارتكبت أثناء الثورة وأنكار المبادىء المادية الحديثة للافكار الاخلاقية .

وأشهر الكتب التي أرخت الثورة كانت مدرسة للاجرام السياسي والتعصب الثوري ، فهي التي علمت الشعب أن الغاية تتغلب على كل شيء وان التمرد مشروع وأن الاغتيال في سبيل مصلحة الهيئة الاجتماعية مباح . وهذه الكتب هي التي جعلت الناس تعتقد أن الثوران الاجتماعي عامل من عوامل المدنية ، وأن الأرهاب اداة صالحة للحكم ، وان التقدم لا يتم الا بالعنف . ولقد حاول بوشيز وروتبرير جرائم الثورة فكتبا أن الأرهاب يصلح اداة للحكم وأنه احيانا واجب ، وأنه طريقة يجب الحكم عليها بالغاية التي ترمى اليها (١) فمذابح سبتمبر في عرفهما لا تخرج عن كونها عمل في سبيل الامن العام ، يؤدى الى نتيجة مفيدة . ومارست وديبون دي بوساك يصفان هذه المذابح بأنها عمل عظيم من أعمال العدالة الشعبية — وتيير ، الذى كان فى مؤلفه القيم عن تاريخ القنصلية والامبراطورية قاسيا فى تعداده لاخطار وجنون الدكتاتورية العسكريه ، تسامح إلى أقصى حدود التسامح فى تاريخ الثورة الفرنسية عن انتهاك

---

(١) وهذه بالضبط هى نظرية مكيافلي الذى يلاحظ فى قتل ريموس بيد أخيه ان العاقل لا يدين رجلا ممتازا لانه فى سبيل تحقيق أمرهام كأنشاء ملكية أوجمهورية قد لجأ الى وسيلة غير معتاده ، فالفعل يتهمه ولكن الهدف الذى يرمى اليه يعذره . فحسن النتيجة يبرر العمل دائما . (خطاب ليفى)

العدالة والفظائع التى صاحبت دكتاتورية الشعب . فهو يسمى ١٨ فروكتيدور ضرورة محزنة لم يكن منها مفر ، ويكتب أن العدالة وهم من أوهام ثورة كثورتنا . و يبرر أيضا إنشاء محكمة الثورة و يقول إنه كان من الضرورى إنشاء مثل هذه الآلة المخيفة لمقاومة الأعداء من كل نوع ، وأن الأحوال القاسية هى التى دفعت إلى قيام حكومة قاتلة لا تستطيع أن تغلب أو تقاوم إلا بمساعدة القتل . ويمتدح لويس بلان كلا من روبسبير وسان جوست لأنهما استغلا الارهاب وتخطيا كل تأنيب للضمير .

وكذلك ارتكب لامارتين فى كتابه « تاريخ الجيروندين » نفس الخطأ بتملقه الارهابيين ونسبته نتائج مفيدة الى جرائم الثورة . ولكنه لم يلبث بعد ذلك فى محادثاته الأدبية أن اعترف بخطأه : « إن المؤرخ الذى يبرر الجريمة ويضع للقسوة اعذاراً واهية إنما يمهد الطريق بدون أن يشعر للتساهل فى المستقبل مع من يقلدون تلك الجرائم . . . . إن هذا خطأ لا يغتفر وقعت فيه أنا نفسى ـ وكم أنا خجول لهذا التساهل من جانبى ، لقد أردت أن أبرىء الذين برروا الثورة فأدنت نفسى » . إن لامارتين بمدحه الارهابيين أوجد لهم خلفاء . . ويقول ج . فاليس فى مقال له عن ضحايا الكتب إن قراءة تاريخ الجيروندين أدارت رأسه .

ولا شك أن كروبتكين على حق حين يهزأ بأنصار الثورة لدهشتهم من أن كتبهم تبث روح التمرد فيمن يقرأونها . إن

تبرير العنف يدعو للعودة اليه . فالمؤرخون الذين أعجبوا بالثورة بغير تحفظ قد ساعدوا كثيراً على تقدم الروح الثورية والفوضوية بما أبدوا من تساهل نحو الجريمة وتكريم للارهاب . ليس كل حادث من حوادث الثورة الفرنسية يستحق الاعجاب . لقد كان عهداً مليئاً بالفضائل والجرائم ، بالوطنيين والمتعصبين ، بالابطال والسفلة ، وواجب المؤرخ أن يحكم على كل حزب وكل رجل بأعماله وأن يكرم الضحايا ويصم الجلادين ، وأن يعجب بالأبطال وأن يفضح دعاة الوطنية المخادعين . ومن الميسور تمجيد مبادىء سنة ١٧٨٩ والحض على ازدراء الجرائم التى ارتكبت باسمها فى الوقت نفسه . وهو ما لم يفعله المؤرخون الذين دفعهم الغرض أو الرغبة فى الشهرة إلى تمجيد كل أعمال الثورة بغير تحفظ ناسين أن الاعجاب بالجملة بعمل يجمع بين الصالح والطالح انما هو تبرير للفساد ودرس فى سوء الخلق (١) . فلقد صدقوا أن الثورة هى الوسيلة الوحيدة لتجديد نظام الهيئة الاجتماعية الأقتصادى وان التقدم لاينشأ الا عن العنف وان حالة العمال لايمكن تحسينها الا بثورة جديدة . ويقول فايان فى دفاعه « لو أن الطبقة الوسطى

(١) يذهب المعجبون بغير حق بكل عمل من أعمال الثورة فى اعجابهم بها الى أكثر مما ذهبت اليه لجنة الخلاص العام . فاليك مثلا مايقوله أحد أعضاء اللجنة كارنو عن الثورة : « لقد كانت الثورة الفرنسية مجموعة من البطولة والقسوة ، من الاعمال العظيمة والاضطرابات الفظيعة . . . . . هناك أشخاص يفزعون لمجرد لفظ الحرية لأنهم يحكمون عليها بمقياس الثورة ، وينسون أن تلك الثورة كانت على العكس مجموعة مستمرة من الاستبداد »

لم تذبح ، ولم تدع الى الذبح أثناء الثورة ، لكان من المحتمل ان تظل الى اليوم تحت نير النبلاء . »

ولقد اجتازت فرنسا فى مدى القرن التاسع عشر عددا كبيرا من الثورات حتى ان الشاكين لا يزالون ينتظرون قيام ثورة جديدة ولا يحجمون عن أى وسيلة ، خصوصا بعد أن رأوا القتلة والذين ارتكبوا جرائم الحريق يعفو عنهم البرلمان وتعينهم الحكومة فى الوظائف . ولقد افسد هـذا التساهل نحو جرائم الحريق والسرقة ، والقتل لاغراض سياسية ، ضمائر أفراد الشعب .

ولقد أثبتت محاكمة رفاشول وفايان أن فساد تفكيرهم متمش مع فساد عواطفهم ، وانه يرجع بنسبة كبيرة الى مغالطات الفلاسفة الماديين . ليس جميع الملحدين والماديين فوضويين ولكن كل فوضوى ملحد أو مادى . وقد قال باكونين « اننا ماديون وملحدون ونحن بهذا فخورون » .

كذلك الشيوعيون جميعا ماديون . وقد قال فايان للمحلفين إنهم مجرد ذرات مفقودة وسط المادة وان تاريخ الانسانية هو فى الحقيقة تفاعل مستمر للقوى الكونية التى تجـدد نفسها دائما وتدخل فى مالا نهاية له من تحويل . كذلك أعلن أميل هنرى مبادئه المادية . والواقع أن تقـدم الفوضوية يرجع الى انتشار التعليم المادى . فبغير العقيدة الدينية أو الفلسفية تصبح الانسانية قاسية ضارة ومؤذية . ومن الفوضويين أفراد تربوا فى الصغر

تربية دينية ولكنهم وقد خسروا عقيدتهم ، لم يعودوا يقدرون الاحزان والآلام التى لامعنى لها بغير الاعتقاد فى حياة أخرى ، فتمردوا ضد مصيرهم واخذوا يسبون الهيئة الاجتماعية لأنه أصبح من المستحيل عليهم أن يوجهوا غضبهم إلى الطبيعة .

ولقد أظهر التحقيق مع رافاشول السرعة التى انتشرت بها ، بين الطبقة العاملة، نظريات الفلاسفة الطبيعيين الذين يطبقون على الجماعات الانسانية المبادىء الحيوانية الخاصة باختيار الأصلح وغريزة البقاء ، لأن الانسان فى نظرهم حيوان . وذكّر رئيس محكمة الجنايات رفاشول بأنه قال للقاضى المحقق : « لقد أردت ان أصل الى هدفى وتخطيت كل العقبات، وكان الناسك عقبة فى سبيلى فازلته » فكان جوابه . نعم ياسيدى هذا صحيح .

وبعد يوم ٢٦ يونيو (يوم ارتكاب الجريمة) ببضع أيام قابلت نفس السائق واستأجرت عربته ، فماذا كنت قد بيت ؟ ـــ أردت أن أعلم اذا كان قد أبلغ البوليس فلو كان قد فعل فقد كنت أحمل خنجراً ومسدساً ، وكنت معتزماً القضاء عليه .

ـــ اذاً أنت تقضى بهذه الطريقة السهلة على كل من يقف فى سبيلك ؟

ـــ نعم فانها عندنا ضرورة ، ضرورة حياة أو موت ، وهى كذلك عند كل انسان .

لكم نطق السياسيون بهذه الكلمات القطيعة : « كل من يقف فى سبيلنا يجب التخلص منه » . كذلك حاول رفاشول أن يبرر جريمته بقوله « إذا أنا قتلت فقـــد فعلت ذلك لاشباع مطالبى الشخصية » . ولكنه كان كثير المطالب الشخصية : كان يطلب الطعام الفاخر والعمل القليل وتعدد الغوانى وكان هذا الفوضوى يطبق النظرية الاشتراكية المعروفة « لكل بقدر حاجته » . والكتاب الاشتراكيون الذين يقولون بأن لكل بقدر حاجته هم خلفاء فلاسفة القرن الثامن عشر الشهوانيين . إذ من المعروف أن هلفيسيوس يتخذ من الرغبة فى السعادة قاعدة القانون ، وأن دستوت دى تراس يرى تلك القاعدة فى الحاجة ويراها فولنى فى غريزة البقاء وهولباك فى المصلحة . ويجىء الماديون بهذا التعريف للحقوق على زعم أنه جـــديد وما هو إلا إنكار لكل حق . وسرعان ماتقتل نظرياتهم هذه الضمير فى الطبقة العاملة وتعدها للاجرام . وتصل هذه النظريات الفلسفية الكاذبة الآن الى الجموع بسرعة مدهشة عن طريق المنشورات والأندية التى يندون فيها ، والصحف الرخيصة . وهناك فريق من الصحفيين والسياسيين يتملقون الشعب ليعيشوا على حسابه ويسمموه بنشر هذه المبادىء الضارة .

وقد أصبح من المألوف اليوم تحميل الهيئة الاجتماعية مسئولية جميع الشرور والرذائل والآلام بل والجرائم . وأما أكثر الكتاب

الذين يرددون اتهامات جان جاك روسو وهلباك (١) وديدرو الظالمة .

وكتب الدكتور بوخنر من المؤلفات التي يحبها فايان وهو القائل B «إن الرجل الفقير لا يجد مخلصا من حاله إلا الجريمة فهو ضحية حاله» . وإنك تجد كل هذه المغالطات في محاكمة الفوضويين . فقد لاحظ رئيس محكمة الجنايات لرفاشول : إنك تقتل لتشبع شهواتك فماذا تنتظر الهيئة الاجتماعية من شخص هذه آراؤه ؟ . فكان رد رفاشول « أنا الذى أنتظر شيئا من الهيئة الاجتماعية . إن واجبها أن تتكفل بي ولا غرابة في أن يلجأ المرء إلى وسيلة تحقق سعادته مادامت الهيئة الاجتماعية تهمل أعضاءها . إن كل ماحدث إنما هو نتيجة الحالة التي وصل اليها العمال الذين يموتون جوعا وسط الثروة التي أنتجوها . »

والحادث الذى يشير اليه المتهم هو قتل عجوز ضعيف يروى رفاشول نفسه كيفية قتله بالصيغة الآتية : « لقد وضعت يدى على فمه ولكنه لم يمت بالسرعة المطلوبة ، فدسست منديلي بين فكيه ولكنه استمر يقاوم ، فوضعت ركبتي على صدره فقضى نحبه » . وذلك الحادث إنما وقع للسرقة . ومع ذلك يتبجح بأنه ليس هو المجرم ، ولكن الهيئة الاجتماعية هى المجرمة لأنها لم تجعله غنيا

---

(١) يقول جان جاك روسو إن الانسان يولد طيبا والهيئة الاجتماعية تفسده . ويقول هولباك إن الهيئة الاجتماعية زوج أب قاسية لأبناء الشعب فهم ينتقمون منها بالسرقة والقتل .

وسعيدا . ولما حكم على هذا الفوضوى بالاعدام احتج زملاؤه على هذا الحكم ، وأصروا على أن المحلفين هم المجرمون وأن تنفيذ العقوبة جريمة ترتكبها طبقة الرأسماليين .

كذلك لم يغفل فايان عن أن يذكر أن مسئولية الجرائم التى ارتكبها تقع على عاتق الهيئة الاجتماعية . قال له رئيس الجلسة : « لقد حكم عليك عدة مرات » فكان رده « نعم ياسيدى والفضل فى ذلك للهيئة الاجتماعية » ـ س ـ إنك تقول إنه لا شىء هناك يدعى جريمة ومجرمون ، وإن كل شىء نتيجة تأثير البيئة ووليد النظام الأجتماعى ، وقد فررت إلى آمريكا عقب محاكمة الفوضويين الروسيين لكى تتخلص من زوجك ـ ج ـ نعم ياسيدى .

يدعى الفوضويون أنهم ضحايا الهيئة الاجتماعية ويجعلونها مسئولة عن كل شىء . فاذا أغضب عامل فوضوى صاحب العمل بكسله أو طرد لسوء سلوكه فهو يلوم النظام الاجتماعى ويعتبر صاحب العمل سيداً مستبداً يجب القضاء عليه . وعامل آخر لعجزه عن إشباع مطالبه يلوم الهيئة الاجتماعية « إن على الهيئة الاجتماعية أن تقوم بأودى وما دامت لا تفعل ذلك فهى تعاملنى معاملة سيئة . لذلك صممت على أن أثأر لنفسى من أول رأسمالى أقابله » . فحامل الاجازة الجامعية الذى يفشل فى الحصول على المركز الممتاز والثراء المادى الذى وطن النفس عليه يسخط على الهيئة الاجتماعية .

والأشخاص الذين يشغلون مراكز اجتماعية لم يعدوا لها

والذين فشلوا فى الحياة ، والعجزة والذين لم تتحقق مطامعهم ، كل هؤلاء يحقدون على الهيئة الاجتماعية لأنها لم تمدهم بمراكز تتناسب مع مطالبهم . ويمكن نسبة الجانب الأكبر من هياج مارا أثناء الثورة إلى ماصادفه من فشل قبل سنة ١٧٨٩ . فمن اليوم الذى رفضت فيه أكاديمية العلوم فحص اكتشافاته الموهومة ، فيما يختص بطبيعة الضوء ، أظهر مارا حقده بعبارات قاسية . فلما حُوول استرضاؤه بأن أكد له أنه ، عاجلا أو آجلا ، بفضل نبوغه واستعداده سوف يحقق غرضه ، أجاب وهو يجز على أسنانه « غرضى ؟ ؟ أنى أود لو أن الانسانية كلها وضعت داخل قنبلة أتولى بنفسى إشعال النار فيها » ولكى يثأر لنفسه من رفض الأكاديمية لعمله وصفها بأنها فراش وثير للارستقراطية .

وهناك فوضويون آخرون يحملون الهيئة الاجتماعية مسئولية عدم التكافؤ فى الثروات بين الأفراد ويغضون النظر عن أن مرجع ذلك الخلاف إلى الفروق الجسمانية والأخلاقية والعقلية وأن الطبيعة ، لا الهيئة الاجتماعية ، هى التى ميزت بين الأفراد بالنسبة لصحتهم وإدراكهم وقوة إرادتهم ، فهم لذلك لا يتساوون ثراء .

ويجب ألا يرجع حقد الفوضويين على الهيئة الاجتماعية إلى الفقر بل إلى الاعتقاد بأن السعادة هى غرض الحياة الأسمى ، وأنها تنحصر فى الملذات ، وأن على الهيئة الاجتماعية أن تجعلهم جميعا سعداء . وكان السياسيون عموماً قبل سنة ١٧٨٩ لا يعترفون للجموع

بحقوق بل بواجبات ، ولا يحدثونهم إلا بما هم مطالبون به ، ويعزونهم عن آلامهم بما يعدونهم من أمل فى السعادة فى عالم آخر ، على حين أن الطبقات الممتازة تعنى بأن لا تفقد شيئاً من ملذات هذه الدنيا . وقد ذهب الديمقراطيون إلى النقيض تماما . فهم يغفلون تذكير الجموع بواجباتهم ويلفتون أنظارهم إلى حقوقهم وحدها . ولا شك أنهم محقون فى رغبتهم تحسين حالة الجموع المادية وعدم تأجيل أملهم فى السعادة الى عالم آخر . إن الأديان لا تكتفى بوعد بالسعادة فى الحياة الأخرى . فالأغنياء الذين لا يهملون مصالحهم ولا ملذاتهم لا يقبل منهم أن يتهموا العمال والزراع الذين يطلبون لأنفسهم نصيبا من ملذات الحياة بالأثرة ، وليس لهم أن يطلبوا منهم تضحية لا يؤدونها .

وكما أنه من العبث دعوة الجموع لأن تفكر فى الجنة وحدها وأن تحتقر أشياء هذا العالم ، فان من الخطر أن تسد فى وجوهها فكرة الجنة وأن توجه كل أنظارها إلى الأرض بأن تقول لها إن السعادة هى الهدف الوحيد فى الحياة وأن الغنى يحققها . ولا شك فى أن الرغبة فى السعادة والغنى مشروعة إذا طلبناهما عن طريق العمل والاقتصاد . ومع ذلك فمن الاجرام أن نقصر حديثنا للطبقة العاملة على طلب الملذات واقتسام الثروات . فان الجشع وبغض الأغنياء هما مثار هذه الأقوال . فاما أن يقال لهم كما قال داروين إن الفقر مذلة فان ذلك يوجد عندهم الرغبة فى أن يصبحوا أغنياء بسرعة وبأى وسيلة

لينجوا بأنفسهم من آلام الفقر ومذلته . أما الدين فقد علم الفقراء الهدوء والصبر وحدثهم عن كرامتهم ورفعهم إلى مرتبة عبيد الله المقربين .

وفضلا عن ذلك فان هذا الاهتمام الدائم بالغنى يقتل شعور الوطنية . لماذا يجهل الفوضويون حب الوطن ؟ لأنهم يقولون : « وطن الانسان هو حيث ينال الثراء ويعيش منعما » . فالرجل الذى لم يعد يعتقد أن الآلام فضيلة والذى لا ينتظر عدالة الاهية تكافؤه فى عالم آخر عما يتحمله فى هذا العالم والذى يركز كل أفكاره فى السعى وراء سعادة تفلت منه ـ لأنه لا يوجد فى العالم سعيد ولا الغنى ـ لايلبث أن يشعر بمرارة الفشل ويوجه حقده على الهيئة الاجتماعية بالجاز أو الديناميت . ومطالب الفوضويين والدوليين والشيوعيين فى كل أنحاء العالم ، فى ايطاليا وفى فرنسا وفى أسبانيا واحدة : توزيع الثروة واعتبار السعادة والملذات حق من الحقوق . هذه الرغبة الجامحة فى تذوق ملذات الحياة تزيدها جموحا النظريات المادية التى تتبع الاشتراكية والفوضوية الثورية دائما والتى تعلم تعظيم الشهوات والرغبة الجنسية .

ويقول أتباع سان سيمون « إننا نريد أن ينتهى صلب الانسانية وتعذيبها . إن الشهوات من صنع الله فلماذا يراد تغيير ماعمله الله ؟ يجب أن تحرر الشهوات وأن تترك الطبيعة تعمل عملها . أما الأخلاق فعلم كاذب دعى ، ظل خلال ثلاثة آلاف سنة يدعى أنه يقود

الرجال نحو الفضيلة والسلوك الحسن ، بمبادئه العقيمة البعيدة عن الاعتدال وضبط الشهوات . »

ويقول فوريه « إنه إذا كان لايزال يوجد كُتّاب يقولون إن الشهوات ليست مشروعة ومحتومة ، فذلك لأن غالبيتهم قد بلغوا السن التي يفقد الانسان فيها لذة الاتصال بالنساء» . ويوجد اليوم من الفلاسفة الطبيعيين والمتشككين من يتخذون من انكار الأخلاق مبدأ يحبذ الاثرة ويؤيد حق إشباع الملذات . ويقول الفيلسوفان الألمانيان ماكس سترنر وفردريك نيتشة اللذان ينعتان أنفسهما بجرأة بالفلاسفة اللاخلقيين « يجب أن يكون الانسان بسيطاً ليعتقد في أن الواجبات الخلقية تفيده لاشيء . أسخف من فكرة الأخلاق . . . فالأمة التي تتمسك بالأخلاق تكاد تكون دائماً أمة غبية . فهي لاتخلق شيئا ولاتتقدم . فالرغبات وطلب التلذذ والشعور به ، بغير التفات لحرج الأخلاق ، هي الأرض الصالحة لانبات أرق زهور العقل ونمائها » ، فاذا نحن ألغينا الواجب ووضعنا بدله طلب اللذة كالباعث الوحيد للانسان أدركنا كيف أن الفلاسفة الشهوانيين ، كما فعل سالفوهم في القرن الثامن عشر ، يعلمون فن التلذذ وكيف يحاول الفوضويون تطبيقه .

ولما كانت الأديان ترى في الآلام وضبط الشهوات عملا ربانياً ، فان هذا هو السبب في تعرضها لحقد الفلاسفة الذين يؤلهون الملذات ، ففوريه يهاجمها لأن مبادئها — كما يقول —

تعارض الملذات . وسان سيمون يعيب على الأخلاق الدينية أنها تدعو إلى احتكار الحب وإلى الزواج غير المنفصم . ويقول الفوضويون إن الدين بحضه على التقشف يخدع المضطهدين ليطمئن من يضطهدونهم .

ويشجع هذا الحقد على الدين والازدراء بالأخلاق الاعتقاد بأن العلم وحـــده يستطيع أن يحسن حالة الانسانية السيئة . لذلك تجد رينان والكتاب الذين تبعوه فى السعى لتخليص الانسانية مما أسموه بالخرافات يعترفون بأن هبوط مستوى الأخلاق هو النتيجة الطبيعية لفقدان العقائد الدينية ، ولكنهم يعزون أنفسهم بفكرة أن فساد الخلق أفضل من التعصب . ويقول رينان « خير للشعب أن يكون سيء الخلق من أن يكون متعصباً ، لأن الجموع السيئة الخلق لاتتعب بينما جموع المتعصبين تزيد العالم غباء ، والعالم المحكوم عليه بالغباء يفقد كل حق فى أن أعنى به ، بل إننى أفضل راضياً أن أراه يفنى . »

وقد أوجد هذا الازدراء للأخلاق فى الطبقات العليا من الهيئة الاجتماعية أشخاصاً مثقفين لايهتمون بشيء سوى النجاح والمهارة والملذات ، كما أوجد فى طبقاتها الدنيا ، أشخاصاً آخرين قلقين يطلبون نصيبهم من السعادة ويسعون لنيله بكل الطرق .

وينتمى أكثر الفوضويين حقداً إلى هذا الجيل الذى ربى على

انكار كل اعتقاد روحي — لأن الحيوان النائم فى قلب كل انسان، عندما يتحرر من كل حرج أو عقيدة تحفظه وتقيده ، يندفع بافراط لاشباع شهواته . فالنظريات الحديثة الخاصة بتنازع البقاء وضرورات النشوء والارتقاء قد أدخلت بذور حديثة من الأثرة والبغضاء فى قلوب الشبان الفوضويين . فقد علمتهم أن يعدوا أنفسهم مجرد حيوانات ، وأن يقلدوا الحيوانات التى تتنازع فى سبيل البقاء غير عابئة بحق أو عدل . فهل من الغريب بعد ذلك أن يصل الناس إلى التشبه بالحيوانات المفترسة وأن لا يحلموا بشيء إلا الهدم والافناء ؟ (١) فالفوضويون وقد تجردوا من كل عقيدة ، فلا هم يعتقدون فى الله ولا فى خلود النفس ولا فى الواجبات الخلقية ولا فى الحياة الأزلية ، لايصبرون على اشباع شهواتهم ولا ينتظرون جزاء فى حياة أخرى بل يطلبون إطفاء عطشهم للملذات فوراً . فاذا لم توفر الهيئة الاجتماعية لهم السعادة فانهم لايترددون فى اعطاء أنفسهم حق القضاء عليها . ويقول فايان « ينتهى الانسان متى وصل الى القبر . . . فعليه أن يشبع رغباته لأقصى حد ولامعنى لوجود الهيئة الاجتماعية إذا لم توفر له هناءه وراحته »

والتعليم ، إذا تجرد من التربية الأخلاقية ، لا يمكن أن يبث الحكمة وروح العدل ، بل هو ينمي العجب والرغبة فى الملذات .

---

(١) يدعو الفوضوى فايان إلى اعتبار الشهية الحيوانية القانون الوحيد للجماعة الانسانية التى يتخيلها .

ولقد أجاب الفوضوى هنرى على أحد أعضاء مجلس محلى باريس الذى خطب يقول إن العمال يطلبون عملا ، « إنه هو ومن يفكرون مثله إنما يطلبون ملذات » وهو يقول « إن التعلم الذى تتلقاه قد فتح عقول عدد من الناس فسألوا أنفسهم أليس لهم مثل ما لغيرهم من الحق فى الملذات التى تبيحها المدنية لمن يستطيعون دفع الثمن ؟ وبسبب نظام الهيئة الاجتماعية يجد الشبان أن ما نالوه من تعلم يكسبهم القليل أو لا يكاد يكسبهم شيئا ... فلا أمل لهؤلاء الشبان ـ كما لجميع من يتألمون ـ إلا فى انقلاب تام يسمح لهم (أو على الاقل هذا ما يعتقدون) باقامة هيئة اجتماعية تقدم لكل شخص على قدر حاجته ـ وليست هذه المطالب قاصرة على مطالب المعدة ... ومن أجل ذلك تجدون أن بعض الشبان المبتدئين فى الحياة ، بغير مراكز اجتماعية معروفة ، غير قانعين بنصيبهم ، يدفعون بأنفسهم أينما استطاعوا ليستلفتوا الأنظار . وهذا الاستعداد من جانبهم سوف يستمر بطبيعة الحال فى النماء حتى يأتى يوم الانفجار النهائى » فلعل الفلاسفة الذين كانوا يعتقدون ان لا خطر من الجموع الفاسدة طالما أنها ليست متعصبة ، قد بدأوا يدركون أن الفساد لا يمنع التعصب ، وأن الرجال الذين يلقون القنابل على المعابد أكثر خطراً ممن يدخلونها للصلاة .

فنى اليوم الذى ألقى فيه أحد تلاميذ رينان ، الذى يفخر بأنه عدو المسيحية ، قنبلته على مجلس النواب ، فان السياسيين الذين

اعتادوا أن يقولوا : « المسيحية هى العدو » لابد أنهم فكروا أن للهيئة الاجتماعية عدوا أشد خطرا من الدين الذى يدعو الى احترام الحياة الانسانية واحترام الملكية والذى يقول : « لاتقتل — لا تسرق » .

وأخيرا يستحيل على رجال العلم الذين أسكرتهم اكتشافاتهم الكيماوية ، أن لايعترفوا اليوم بعجز العلم عن تحقيق سعادة الانسانية حين يرون أخطر المجرمين يلجأون الى وسائل العلم للقضاء على الهيئة الاجتماعية . ومن عهد قريب حكمت محكمة فاندوم على مدرس سابق بالحبس ثلاث سنوات لأنه علم الفوضويين كيف يصنعون القنابل وكتب لهم يقول « إن الوسائل العنيفة هى وحدها المنتجة » . وهذا المدرس نفسههو الذى قال عن رفاشول (اللص القاتل) إنه المسيح الذى يعبده . ومع ذلك فبعض رجال العلم من أمثال بول وايليزيه ركلوس يؤيدون جرائم الفوضويين وبعض الأدباء يشجعونهم . وقد كان اميل هنرى بكالريوساً فى العلوم وقبل فى مدرسة الهندسة واجتاز سباستيان فور دراسة الآداب الكلاسيكية كلها وهكذا وهكذا . ويدعو ديفيل — فى « بحثه عن الاشتراكية العلمية » الثوريين للالتجاء الى الوسائل التى يضعها العلم فى متناول من يريد الهدم . وقد سبقه مونتسكيو فى كتابه رسائل فارسى بابداء مخاوفه من تقدم الكيمياء .

ولقدحاولت ، فى هذه الدراسة لأسباب الفوضوية ، أنأوضح

نصيب الكتاب من المسئولية وانه لنصيب كبير . لايحب الكتاب عادة أن يذكرهم أحد بمسئوليتهم وهم يدعون انه لا تأثير للنظريات على الأعمال ولكنني أعتقد على العكس أن اضطراب الأفكار يؤدى حتما إلى اضطراب الخلق وأن النظريات الضارة تبعث الى الأعمال الضارة ، وأن السفسطة كثيرا ما تؤذى الهيئة الاجتماعية أكثر مما تؤذيها الجريمة . ويقول جان جاك روسو ، الذى سبب اضرارا جمة بسفسطته السياسية ، « إن المبادىء الضارة كثيرا ما تكون أبغض من الأعمال الضارة » .

إن الأفكار السفسطائية التى نشرها الكتاب عن الملكية والدين والحكم ورأس المال هى التى أنتجت نظرية الفوضوية ووضعت الأسلحة بين أيدى الفوضويين . فالكاتب الذى ينشر نظريات ضارة بين أفراد الهيئة الاجتماعية إنما يشعل القنابل وسطها . فدعاية الأفكار تسبق دائما دعاية الأعمال . والرجال ، وبالأخص الشبان ، ينتقلون سريعا من الأقوال إلى الأعمال . والاضطراب الفكرى يتبعه دائما اضطراب خلق . إن الأفكار تقود العالم فان كانت سليمة أدت إلى الحكمة والهدوء ، وإن كانت سقيمة أدت الى الفتنة والجريمة .

ولقد حاكمنا أمام محكمة جنايات اكس فوضويا بتهمة صنع مفرقعات . كان فى الثالثة والثلاثين من عمره ، معروفا مذ كان فى السابعة عشر بالمواظبة على العمل وحسن السلوك ودماثة الخلق .

وكان العيب الوحيد الذى وجهه اليه رئيسه هو أنه فى ساعات فراغه كان يدأب لحسابه الخاص على اختراع ميكانيكى . واستطاع هذا العامل المجد الصبور القنوع المخلص أن يعول زوجه وولديه ووالده العجوز الذى آواه بمنزله ، كل ذلك بأجر محدود لا يكاد يتجاوز ثلاثة شلنات يوميا فما الذى خلق من هذا الرجل المنكود الحظ فوضويا ؟ لم يكن الكسل ولا الافراط ولا الجشع إنما كان السبب السفسطة . لقد وجدت غرفته مملوءة بالجرائد الفوضوية والمنشورات ، هذا ما أفقده اتزان عقله .

فللعقل كما للجسم سموم . ومن المبادىء ماهى سموم قاتلة للنفس كما أن من النظريات الخاطئة ما تسوق الى الموت كما تسوق اليه المواد السامة . ولا تقل أنواع السموم العقلية عن أنواع السموم الجسمانية . ومن النظريات ما تعمل كالحشيش تضعف كل تأنيب وتشيع الغباء فى الضمائر ، ومنها مايشبه المواد المفرقعة تملأ قلوب الناس بشهوات فتاكة غذاؤها التدمير والنهب . وأخيراً أليست هناك صحف كأنها الاحماض الكاوية تلهب ما يلمسها ؟ وخطب كأنها الكحول تحرق الدم وتهيج الأعصاب وتجفف العقل والقلب ؟ هذه السموم العقلية تعرض اليوم فى كل مكان ، فى المكاتب وفى أكشاك الصحف وفى القهاوى وفى الشوارع بل وفى محلات الخمور تباع هذه السموم على أنها مؤلفات أدبية وإن كانت نسبة ما فيها من أدب لا يختلف عن نسبة ما فى المشروبات

المباعة من خمر ، وهكذا يسمم الشعب المنكود الحظ من كل الوجوه ، فى عقله وفى جسمه . وما تشكو الهيئة الاجتماعية المرض الا لأنها مسممة أدبيا من هؤلاء السفسطائيين .

وعندما ألاحظ تأثير السفسطة الواضح على جرائم الفوضويين لاتقف دهشتى عند حد ، حين أسمعهم يقولون إن الآراء لاتحمل جرماً ، والألفاظ لاتؤدى إلى خطر ، والفكرة الخالصة لاتضر (١) أن الكاتب وإن حسنت نيتـــه قد يضر . ولا يكفى لتجنب الخطر الذى تهدد به الشهوات الفوضوية الهيئة الاجتماعية الارتكان على الأنظمة الاجتماعية القائمة ، بل لامفر قبل كل شىء من إصلاح العقليات التى أضلتها السفسطة ومن اعادة العقائد التى تملأ النفوس هدوءاً إلى ضمائر الشعب ، ومن تذكير العامل بأنه ليس مجرد حيوان خاضع لغريزته .

وبالاختصار يجب أن نعلم الشعب أن عليه واجباته ومسئولياته . وعندى أن المبادىء الضارة التى تمد الفوضويين بقوتهم تحارب محاربة أجدى بنشر المبادىء السليمة أكثر من نصب المشنقة وأن كنت لاأنكر ضرورة المشنقة .

ان الفوضى السياسية نتيجة لفوضى الأخلاق وهذه بدورها وليدة الفوضى العقلية . يقول اوجست كونت : إن الأزمة السياسية والأخلاقية الكبرى التى تجتازها الهيآت الاجتماعية هى ، اذا ماتتبعنا منبعها ، وليدة الفوضى العقلية .

---

(١) رينان

وكان كونت يأمل أن انتصار الفلسفة الوضعية يضع حداً لهذه الفوضى ، وكان يرى أن نظام الاعتقادات الروحية القديمة لايناسب الديموقراطية الحديثة ولايصلح الا للقرون الوسطى . والواقع أن الديموقراطية فى حاجة أكثر من أى هيئة أخرى للاعتقادات الروحية ، وأن الأفكار الحرة البعيدة عن الدين اذا بثت فى أوساط العمال والطلبة تخلق منهم فوضويين وأنصاراً للتمرد . إن الهيئة الاجتماعية مريضة ولابد لشفائها من بث العقائد الأخلاقية فيها من جديد .

ان العلاج الوحيد لهذه الأزمة التى نجتازها هى العودة الى الدين . ومادامت الأنظمة الفلسفية والسياسية والاقتصادية الفاسدة تهاجم مجتمعة أسس الهيئة الاجتماعية فان واجب كل مواطن نافع أن يساعد على الدفاع عنها بقدر ما يستطيع . وكل من لايدافع عن الهيئة الاجتماعية يخونها . فالدعوة الى الشر يجب أن تدفعها دعوة الى الخير . هذا هو الواجب المحتم على كل من ساعدهم الحظ بعقائد سليمة اكتسبوها بفضل التربية والأسرة والدراسة . واجبهم أن ينشروا تلك العقائد وأن لايدعوا السفسطة تمر دون مقاومة . إن من الجبن أن نبقى جامدين امام السفسطة المجرمة التى تخلق اللصوص والسفاكين . واذا كان البيت يحترق فان المواطن الذى لا يساعد على أطفاء النيران يحمل وزر الفاجعة . فاذا كانت الهيئة الاجتماعية هدفا لضربات هذا العدد الغفير من

الكسالى والفاسدين والجشعين والمتعصبين ، وموضعا لاعتداء السفسطائيين والثوريين ، فكيف يمكننا أن تمر سليمة ، وسط هذه الزوابع الغادرة ، اذا اقتصر دفاع الرجال الاشراف عنها على سكون لاحماس فيه ؟

وفضلا عن ذلك فان ذوى السلطة والثراء يستطيعون الكثير فى سبيل اعادة النظام للحياة العامة والى عقول الناس اذا هم قرروا ان يقدموا المثل الطيب . ان الفضائح البرلمانية التى ظهرت فى فرنسا وفى ايطاليا قد ساعدت على تقدم الاشتراكية الثورية والفوضوية اكثر من دعاية عشرين عاما . ان الثروة التى تكتسب بغير حق وتنفق فى سبيل الشيطان تنفر الفقير وتهيجه . فالساسة المرتشون ، والأغنياء الذين لا يستأهلون الاحترام ، مسئولون بقدر كبير عن تقدم الفوضوية !!!

الأحقاد السياسية

يقول بوسويه : « عندما خلق الله الانسان ، ومشاعره الداخلية ، وضع فيه الحنان أولا ليصبح على شاكلته وليكون الدليل على اليد المحسنة التى سوته » . فهل للحنان وجود حقا فى صميم قلب الانسان ؟ إن الانسان ليتسرب إليه الشك كلما رأى الأحقاد التى تفرق بين بنى الانسان : أحقادا دينية وأحقادا اجتماعية ، وتلك الأحقاد المتبادلة : النبلاء ضد الشعب والشعب ضد النبلاء ، والأغنياء ضد الفقراء والفقراء ضد الأغنياء ، والأحقاد الجنسية التى ترجع الى اختلاف الأفكار والعواطف والألوان .

إن الذئاب لا تفتك بالذئاب ، ولكن ذلك لا يمكن أن يقال عن بنى الانسان فهم يقتلون بعضهم البعض ، باسم الدين ، وباسم الحرية وباسم الإخاء ، وباسم المساواة . وأنبل الأفكار الدينية والفلسفية أسىء فهمها فأنبتت الضغينة والحقد . فباسم الدين الذى يدعو إلى الحب حرق القسس أناسا ، وباسم المبادىء التى شعارها الحرية اضطهد فلاسفة ، وباسم الإخاء فصلت المقصلة رؤوسا عن

أجسادها . ولقد حُرق الزنادقة باسم المبادىء الدينية ، وذبح النساء والأطفال بدعوى الوطنية ، وأعملت المقصلة فى النبلاء والقسس والعمال بأيدى مواطنين من زملائهم . فلكل حيوان عدو فى شكل حيوان آخر ومن نوع آخر ، أما شر أعداء الانسان فهو أخوه الانسان .

فتاريخ الانسانية هو مجرد حروب متتابعة : حروب أجنبية ، وحروب أهلية ، وحروب جنسية ، وحروب طبقات . وهناك حروب دامت سبع سنين ، وثلاثين سنة ، بل ومائةسنة . فحروب الثورة والامبراطورية الأولى دامت زهاء خمس وعشرين سنة . وهناك شعوب تجارية كالقرطاجنيين والبندقيين والانجليز أعلنوا حروباً لا غرض لها إلا جلب المصالح المادية ، وشعوب طموحة أعلنت حروبا للغزو ونشر السلطان . فالأمة التى ترى بجوارها أمة أخرى تنمو تأكلها الغيرة وتحاول الحد من قوة جارتها . فلما أصبحت قرطاجنه منافسة لروما أعلن الرومانيون أنه لا بد من هدمها . وعندما أصبحت هولاندا فى القرن السابع عشر منافسة لانجلترا قررت انجلترا إضعافها .

وهناك ملوك يشعلون نيران الحروب بين جيرانهم لاضعافهم ، وآخرون يجدون فى الحروب منفساً للمصاعب الداخلية : قال شارل الخامس لفرنسوا الأول : « إننا - أنت وأنا - نحكم شعوباً سريعة

الغضب والهياج ، لخورة بحيث أننا لولم نسلبها ونأخذ الفائض من هيجانها باعلان الحرب من وقت إلى آخر لأعلنت شعوبنا الحرب علينا » وكثيراً ماتدفع الأحزاب السياسية أممها للحروب ، لمجرد إسقاط الحزب الحاكم والحلول محله .

وتسود القوة العلاقات الدولية ، وتلجأ الدول فى هذه الأيام إلى أعذار واهية لتخفى أحقادها وجشعها . أما لدى القدماء فكانت أفضلية القوة على الحق مسلماً بها صراحة . فعند ما رفض سكان ميلو تقديم الطاعة للأثنيين أجابوهم بأنهم الأقوى ومن حقهم لذلك أن يحكموهم ، وقالوا لهم « إننا نطلب أن يقدر كل إطماعه بحسب قوته . فكلنا يسلم ، أنتم ونحن ، بأنه لاسلطان للعدالة إلا إذا تعادلت القوتان ، وأن من كانت القوة فى جانبه فمن حقه أن يطالب بما يشاء وما على الضعيف إلا أن يسلم بكل ما يطلب منه . . . قد حتمت الطبيعة على بنى الانسان أن يحكموا طالما كانوا الأقوياء »

لقد كانت شعوب اليونان المختلفة فى حروب مستمرة وكان الآثينيون وسكان باقى المدن والجزر فى منازعات دائمة ، يوقعون معاهدات مؤقتة ، وينقضونها كلما سنحت الفرصة ، ويبدأون من جديد حرباً تفتك بالأقطار وتنهب البلدان .

والشعوب الصغيرة التى يحول ضعفها دون المقاومة تضع نفسها فى حماية دولة أقوى لاتتحرج من أن تجزها جزا . وكان أهالى أثينا واسبرطة يتقاضون لحماية تلك الشعوب الصغيرة ثمناً باهظا .

ويكره الانسان كل من ليس على شاكلته ويرضى عمن يشبهه . فالأبيض يكره الأسود ، والأسود يكره الأبيض ، والأمريكى الشمالى يضطهد الهندى الأحمر ويزدرى الأسود . ولقد أرشد العقل ، وبالأخص الدين ، بعض الناس إلى شعور الاخوة ولكنه شعور لم يعم . فالبشر ، وقـــد فرقت بينهم الأجناس والأجواء والمعتقدات والأنظمة والألوان ، يصعب عليهم أن يعتبروا أنفسهم أفراد أسرة واحدة . فحقد اليونانيين على الأجانب وازدراؤهم لهم معروف ، فقد كانوا يعدونهم متوحشين . وقد أشار ارسطاطليس على الاسكندر أن يعاملهم كما يعامل النبات والحيوان ، وهى نصيحة مدهشة فى فم فيلسوف ، ومن حسن الحظ أن الاسكندر لم يجد من الحكمة أن يعمل بها . ولم يكن للقانون الدولى وجود عند القدماء ، فلم تكن للأجانب حقوق . وكان الشرقيون ، على حد قول هيرودوتس ، يعتبرونهم مخلوقات قذرة .

ولا تزال الأجناس المختلفة فى أيامنا تتبادل الحقد والازدراء . وقد دلت حرب السبعين على مدى الحقد الذى كان يملأ قلوب الألمان ضد الفرنسيين ومقدار جشعهم للانتقام وتلذذهم بالاتلاف بالنار والسيف . وقد قال قاض بروسى مات سنة ١٨٨٧ وهو وكيل لوزارة الحقانية إن مقدار حقده الجنسى على الفرنسيين كان يدفعه إلى أن يشعر بالغبطة لكل حوادث التدمير والمذابح التى كان يرتكبها الجيش الألمانى فى فرنسا . فما أبعدنا عن الاخاء الدولى

والتضامن الجنسي !! وهكذا أوجد السياسيون بهذه السياسة الخاطئة حقداً دفيناً بين فرنسا وألمانيا .

وبدلا من أن يهدىء السياسيون الاحقاد التي تنبت بين الأمم فانهم ، بدافع شهواتهم الخاصة ، يقوون روح الغيرة والمنافسة الدولية ويسببون إعلان حروب كان من الميسور تلافيها . فكم من أمم ، تحت تأثير ملوك أو وزراء طموحين ، دخلت في حروب لغير سبب جدي ؟ كم من الحروب يمكن أن يقال عنها ما قاله فردريك الثاني نفسه عن الحرب بين بروسيا والنمسا وسكسونيا ؟ : « لقد سببت هذه الحروب من بعض الوجوه إهدار دماء بغير جدوى . . . فما هي الفائدة التي جنتها بروسيا والنمسا وسكسونيا من هذه الحرب التي استمرت بنشاط وحقد ؟ لاشيء إلا دمار مقاطعات واسعة وذبح آلاف من الرجال الذين لو استخدموا في سبيل آخر لأدوا لأوطانهم أكبر الخدمات . وفضلا عن ذلك فان هذه الحرب ، برغم الضحايا العديدة ، لم تفد الذين سببوها شيئاً » وأضاف فردريك الثاني إلى ذلك : « إن أوربا أصبحت اليوم أشبه بميدان معارك الديوك ، تزداد المعارك الدامية في كل مكان كأنما اعتزم الملوك أن يخلوا الأرض من سكانها . . هل يمكن أن يعد مكسباً وضع اليد على مواقع دفاعية على الحدود أو على ممر ضيق من الأرض أو على حد طال أو قصر ؟ هل يمكن أن يعد مكسباً إذا قدرنا تكاليف الحروب الباهظة وما تؤدي إليه من ضرائب مرهقة لسداد تلك

التكاليف وما تريق من دماء الآلاف فى سبيل هذا الانتصار ؟»

والملوك الذين سيبوا أكثر من غيرهم اهراق الدماء ، كلويس الرابع عشر ونابوليون الأول ، أسفوا كما اسف فردريك الثانى للحروب التى خاضوها . فقد قال لويس الرابع عشر على فراش موته : «لقد كنت أحب الحرب أكثر مما يجب » (١)

لا تطول الحروب اليوم كما كانت فى الزمن الغابر فانها تنتهى فى بضعة أشهر ، أو سنين ، ولكن عدد الضحايا فى بضع أيام أكبر مما كان فى سنين عدة لأن شعوباً بأكملها تشترك فى المعركة .

والمشاهـــد أن الجمهوريات أقل ميلا إلى الحروب من الممالك ، ومع ذلك فحروب الشعوب قد حلت محل حروب الملوك . كانت الجمهوريات القديمة والجمهوريات الايطالية تميل إلى الحروب . وجمهوريات أمريكا الجنوبية تهاجم بعضها البعض بنفس الوحشية التى كانت تهاجم بها الامبراطوريات فى الأيام السالفة ، والأمم، كالأفراد ،عرضة للنزوات التى تؤدى إلى الحروب.وفى بعض الأحيان يتعب السلم الشعوب كما يتعب الهدوء والسكينة النساء . تلك كانت حال فرنسا فى عهد لويس فيليب ، فقد كانت تحن

---

(١) وكرر نابليون بعد حملة روسيا الفاشلة كلمات لويس الرابع عشر : «لا أخشى الاعتراف بأنى كنت أحب الحرب أكثر مما يجب ، لقد تصورت مشروعات عظيمة لا تتناسب مع مقدرة الأمة » ويقول كارنو إنه ، عند ما كان يخلو بنابليون الاول ، كثيرا ما سمعه يلوم ذلك الجنون بالفتح الذى قاده لارتكاب تلك الاخطاء . وبالعكس زاد لويس فيليب من قوة فرنسا بمحافظته على السلم .

إلى حروب نابليون ، ولذلك لجأت إلى ثورة جديدة جاءتها بالحروب الأهلية وعبّدت الطريق لحروب الامبراطورية الثانية .

والطبيعة الانسانية خصبة بالاحقاد حتى أن الأمم يجب أن تخشى العداء من جيرانها الذين قدمت لهم المعونة ، لمجرد أنها قدمت لهم تلك المعونة . فتأدية خدمة لشعب هى إحدى وسائل اكتساب خصومته . فقد كان لذكرى ماجنتا وسلفرينو تأثير كبير فى كره إيطاليا لفرنسا .

وكره الأجنبي ، وإن أدى إلى حروب ، أقل أثراً من منازعات الطبقات والأحزاب . ففي الجماعات القديمة ، حين كان الرق سائدا ، كانت الطبقة التى تتولى السلطة تعامل الطبقات الدنيا بأفظع قسوة . ويروى توسيديد إنه كان من عادة الاسبرطيين أن يضحوا بجزء من سكان الهلويز كلما وجدوا عددهم يتكاثر . وفى إحدى المرات : ليتخلصوا من أكثرهم شجاعة لجأوا إلى الحيلة الآتية : وعدوا أن يمنحوا الحرية لكل من يقول زملاؤهم إنهم شجعان ، فانتخبوا الفين أشار عليهم زملاؤهم بأنهم أشجع الشجعان ، ولكن سرعان ما اختفوا ولم يظهر أثر للطريقة التى اتبعت فى القضاء عليهم .

وكانت حروب الطبقات حتى الثورة الفرنسية هى المواد الأولية التى بنى منها التاريخ الداخلى لمختلف الشعوب . فتاريخ الجمهورية الرومانية عبارة عن تاريخ النزاع بين الأشراف وأفراد الشعب . كان الأشراف يعاملون أفراد الشعب باعتبارهم جنساً مغلوباً ،

ويختصبون لأنفسهم الميزات والمناصب الكبيرة . فهم يضنون قدر استطاعتهم على أفراد الشعب بأى نصيب فى ادارة الحكم ، ليحتفظوا بفوائد استغلال النفوذ . وكانت توجد فى فرنسا القديمة ثلاث طبقات تتبادل البغضاء . وكان الملوك ، بدلا من أن يسعوا فى جمع شمل تلك الطبقات ، يسعون فى التفريق بينها . وما تاريخ فرنسا الا تاريخ النزاع بين ذوى الامتيازات والمحرومين منها . أقر العرش حقوق الشعب وأضاف اليها ، وكانت الثورة ترمى الى الغاء الامتيازات واكتساب المساواة ولكن تمسك الاشراف والقسس بامتيازاتهم هو الذى جعل أمر الثورة محتوما .

وقد يبدو أن احقاد الطبقات يجب أن تزول من حين الثورة التى ألغت الامتيازات والطبقات التى كانت تقسم الأمة ، ومع ذلك فقد ظل الاشراف والطبقة المتوسطة يتبادلان البغض أيام الاصلاح وملكية يوليو الى يومنا هذا ، بالرغم من أن جميع الفرنسيين سواء فى الحقوق المدنية والسياسية . فها هى الاشتراكية تتولى اثارة احقاد الطبقات بدعوى أن الطبقة الحاكمة تضطهد العمال .

وتقضى هذه الأحقاد الاجتماعية على كل شعور وطنى . ففى الحروب الأهلية القديمة كانت الأحزاب المتعارضة تدعو الأجانب لمعاونتها (١) ، فقد تحالف دوق دى جيز مع فيليب الثانى بينما

---

(١) ومثل هذا مشاهد اليوم فى الحرب الاهلية الاسبانية حيث يلجأ فريق الاشتراكيين الى روسيا وفريق الوطنيين الى ايطاليا والمانيا

كان الرؤساء البروتستانتيون متحالفين مع الامراء الالمان . وفى أيام ريشيليو التمس البروتستانت معونة المانيا . وعاد المهاجرون الهجنوتيون على بواخر انجليزية الى مدينة لاروشيل للدفاع عنها ضد ريشيليو . وفى أيام الفروند وضع كونديه نفسه بين يدى اسبانيا وطلب معونة كرومويل ودعا جنود دوق لورين الى دخول حدود فرنسا . وهاجم تورين شامبانيا على رأس جيش اسبانى . وفى إبان الثورة الفرنسية عقد المهاجرون محالفات مع دول أجنبية، وسلمت طولون الى الانجليز . وبعد معركة واترلو استقبل الملكيون جنود الحلفاء بحماس وقلوبهم تكاد تنفجر من السرور .

وفى سنة ١٨١٤ رغب الملكيون فى نزع تمثال نابليون الأول من عَمُود فاندوم ، وقدم عدد من الشبان الى امبراطور روسيا نداء لقبوا فيه نابليون بالوحش ، وهناك فرنسيون دبروا مؤامرة لقتله بينما هو مشغول بمحاربة الحلفاء . ومن ذلك الوقت حتى سنة ١٨٧١، لم تكن الاحزاب السياسية تجرأ على التحالف مع الاجنبى . ولكن بعد الكومون ، بلغت الشهوات المضادة للهيئة الاجتماعية حداً من العنف جعلها تقتل كل عاطفة وطنية . فى غداة معركة سيدان هاجم الدعاة ومن تبعهم عمود فاندوم فأوقعوه وتآخوا مع البروسيين . وأثناء حصار باريس استغل نفس الأشخاص تلك المصيبة ليثيروا المشاجرات ويزيدوا الحالة سوءاً . ويشعر

الاشتراكيون الثوريون والفوضويون يغضكين ضد الجيش لا لشيء إلا لأنه حامى النظام والوطن . فالكولونيل بيليه الذى قاد فصيلة من السوارى فى ريشوفن والذى كسب لنفسه الفخر بمهاجمة البروسيين على رأس فصيلته وبجانبه ولداه ، قتل فى رابعة النهار ووقت السلم ، فى شوارع ليموج ، قتله رجل فرنسى دفعه الى قتله حقده للجيش . والاشتراكيون الثوريون والفوضويون لا يعرفون وطنا ويفترون على الجيش الذى يدافع عنهم . وهم يجرأون على تمثيله بأنه مدرسة للأثرة وسوء الخلق والقسوة ، على حين هو مدرسة للايثار والتضحية .

وفى أيام الثورة بلغ النزاع بين الطبقات حداً وصل به الى هدم بيوت الأغنياء والآثار العامة وبعض المدن . ففى ليون ، فى عام ١٧٩٣ ، تسبب اليعاقبة فى هدم عشرين الف بيت ، وأصدر المؤتمر ديكريتو هذا نصه « ستهدم مدينة ليون وجميع مساكن الأغنياء بها » وفى سنة ١٨٧١ أحرق الكومون عدداً من أجمل الآثار فى باريس .

وبجانب احقاد الطبقات التى تحمل متاعب جمة للهيئة الاجتماعية الحاضرة يجب أن لا ننسى الاحقاد الحزبية . فالعقل والدين يقولان للانسان : « إن كل مواطن هو أخ لك يجب أن تحبه » أما الاحزاب فتصيح به : « هذا المواطن خصمك فيجب أن تكرهه وأن تضطهده » ونتيجة هذه الصيحات المنكرة اننا نسمع ، حسب أنظمة الحكم ، صيحات كالآتية : الارستقراطيون هم الاعداء أو

الاحرار هم الاعداء : أو القسس هم الأعداء . وهؤلاء ، (الأعداء) يحاربون بشعب الشارع ، وبقوانين وأوامر ظالمة كما يحاربون بالبنادق .

ولقد خلق الانسان بحيث يكره كل من لا يشبهه ، وكل من يرفض أن يشاطره شهواته السياسية . فالمتطرفون يكرهون المعتدلين ويعدون الاعتدال خيانة (١) وكان اليعاقبة يكرهون الجمهوريين المعتدلين أكثر مما كانوا يكرهون الملكيين ، ويضطهدون الجيروندين باعتبارهم معتدلين والدانتونيين لأنهم محمولون على

---

(١) اقترح ثيرامينيس احد الطغاة الثلاثين أن يحكم بعقوبة معتدلة على احد الاسبرطيين الذى كان زملاؤه يطلبون الحكم عليه بالاعدام ، فحكم عليه نفسه بأن يشرب السم . ولما اظهرت مدام دى ستايل شيئا من الشفقة على ضحايا انقلاب ١٨ فرو كتيدور اتهمت بالخيانة وأجبرت على أن تفر من باريس بسرعة . ولقد كانت جهود لوبيتال للتوفيق بين الكاثوليك والبروتستانت تدعو الى الاعجاب ومع ذلك فما يؤلم حقا انه فشل فى تخفيف حدة البغضاء بين الفريقين ولقد كان كاثوليكيا وكان الكاثوليك يشكون فى نياته ويحذرون فريقه وكان البروتستانت من جانبهم ، لا يستطيعون ان يعتقدوا ان من الممكن أن يتساءل انسان بدافع من الاعتدال والانصاف . وفى أثناء هياج بوردو ضد الملك ومازاران كان متطرفو الفروند ينظرون الى المعتدلين نظرة الشك ويتهمونهم بالمروق وبأنهم من أنصار مازاران وكان المعتدلون فى أثناء الثورة موضع إتهام من جميع الاحزاب . وقوبل الدستوريون الذين نفوا من فرنسا أسوأ مقابلة من الملكيين وكان منظورا اليهم بحذر من جميع حكومات اوروبا . فكانت المشانق منصوبة لهم على حدود بلادهم والاضطهادات من كل نوع تنتظرهم فى البلاد الاجنبية .

التساهل ، وحتى المستقلون كانوا معتبرين خارجين على القانون .

وكان نوا الجمهوري الى أطراف قدميه ، نفى في ١٨ فرستيدور باعتباره ملكيا ومدافعا عن المهاجرين لأنه طلب أن تفسر القوانين بقدر الامكان لصالحهم متى ثبت انهم لم يحملوا السلاح ضد الوطن . هذا الاعتدال ساقه الى المحاكمة . ولانجينيه الذى أظهر شجاعة كبرى فى المؤتمر وفى مجمع الخمسمائة اتهمه دعاة الاصلاح الذين قبعوا فى مخابئهم أثناء الزوبعة ثم ظهروا يطلبون أن يكافؤوا عن اخلاص لم يكلفهم شيئا .

وهذا الحقد الذى يحمله المتطرفون للمعتدلين ملحوظ فى جميع أدوار التاريخ . ويقول تيوسيديد إن أكثر الرجال اعتدالا يموتون ضحيــــة التحزب . وقد نفى الوطنيون الانجليز سيدنى وهاريسون وهاتشنسون فى أيام شارل الثـانى بعد ان كانوا هدفا لاضطهاد كروموبل .

ولعل منازعات الثورة هى التى تعطى أكثر من غيرها مقياس عمق الأحقاد السياسية . فقد كانت الاحزاب تذبح بعضها البعض كالمصارعين فى حلبة الملعب . وكانت خطب الخطباء محشوة بالتحريض على الانتقام والحقد والغضب . وكان أعضاء لجنة السلام العام يكره كل منهم الآخر . ويقول كارنو إن سان جوست اقترح ، فى حضوره ، فصله من اللجنة كما فصل قبل ذلك هيرودى سيشيل الذى

بعث به فصله الى المقصلة . ويضيف كارنو : « فأجبت سان جوست بيرود أن يبارح هو اللجنة قبلي ومعه أعضاء اللجنة التنفيذية الثلاث ، ودهشت اللجنة ولم تنطق ببنت شفة » .

وكانت الأحزاب قبل أن تتهم بعضها بعضاً تستعين بالافتراء وتتراشق بدعاوى التآمر والدس . ولم ينقطع روبسبير يوماً عن اتهام خصومه بالخيانة والتآمر وكانت خطبه مجموعة من الأكاذيب والافتراءات . وكان الافتراء هو السلاح المفضل بأيدى اليعاقبة ضد الجيرونديين وبه حققوا أغراضهم . ويقول بيزو إنه لا توجد مقاطعة ولا مدينة ولا ناد حقير إلا ويصفنا بأننا ملكيون أو من أنصار التحالف .

ولقد أعلن دانتون من فوق المنبر أن الافتراء على أعداء الوطن مشروع . وساعد كتاب ديمولان المعنون تاريخ البريسوتنيين بما حوى من ادعاءات كاذبة على محاكمة الجيرونديين ولما أخبر ديمولان بالحكم عليهم لم يسعه الا أن يقول « يا للرجال المساكين لقد قتلهم كتابى ! . »

ومنذ بداية الثورة وخصوم العرش يهاجمونه بما يذيعونه فى الخارج من افتراءات ضد الملك والملكة . ويوافق كروبتكين على هذه الخطة ويشير على الفوضويين باتباعها ضد الرأسماليين . وكان اليعاقبة يقولون كما يقول الفوضويون اليوم : « افتروا . افتروا ، فلا بد أن يترك الافتراء أثرا » . لقد كانوا يعلمون أن الاتهام

مهما كان سخيفاً وغير معقول ، فانه اذا تكرر وذاع فانه يؤخذ به فى النهاية على أنه حق ، فلكيما يثيروا الشعب ضد لويس السادس عشر اتهموا هذا الملك المتساهل بأنه يفكر فى ذبح الباريسيين . ولكى يعد الدعاة الرأى العام لفكرة ذبح النبلاء والقسس اتهموهم بأنهم يتآمرون على ذبح الوطنيين . وقبل مذابح سبتمبر ببضعة أيام انتشرت اشاعة بأن مؤامرة اكتشفت داخل السجن .

ولقد اثار الدعاة الشعب فى يونيو ١٨٤٨ ضد المجلس التأسيسى باتهامات كاذبة وجهوها اليه . وفى ثالث أيام تلك الثورة تقدم ممثلون من العمال الى المجلس التشريعى يطلبون تأكيدا بأن المجلس التأسيسى لا ينوى أن يميت الشعب جوعا ليحمله على بغض الجمهورية . ولما أبدى النواب الذين استقبلوهم دهشتهم ، أجابهم العمال : « إن الشعوب عند ما تجتاز محنا صعبة تسىء الظن وفضلا عن ذلك فاننا لا نرى بأعيننا ما هو حاصل وكل معلوماتنا تستقى من الصحف ، فالصحف هى التى حرضتنا . »

وحين تبدو الاحزاب السياسية متفقة متجردة من كل حقد ، فان كل ما هو حاصل فى الواقع أنها اتفقت ضد حزب آخر يكون كرهها له أشد . فالحقد المشترك هو الذى يوفق بينها فترة ولكنها لا تكاد تنتصر على الخصم حتى تبدأ من جديد بمهاجمة بعضها البعض.

فقد اتفق الجيرونديون مع اليعاقبة ضد العرش ، وما كادوا يسقطون العرش حتى أخذوا فى مناوأة بعضهم البعض، وكان يزيد

حقد اليعاقبة على الجيرونديين ما فى نفوسهم من غيرة . فكان اليعاقبة ينفثون على الجيرونديين كفايتهم وحاكوهم ليثأروا لانفسهم من هذه الميزة . وانضم دانتون لروبسبيير ضد الجيرونديين ولكنه سقط بدوره بسلاح شركائه .

وقد يبلغ الحقد السياسى حداً يجعل اضطهاد الخصوم لذيذاً . فالرجل الذى يكره يمتلىء سروراً كلما رأى فريسته تتألم . فى سنة ١٧٩٣ كان اليعاقبة يتلذذون من رؤية موت النبلاء والقسس . وكانوا فى بعض الاحيان يدعون الجلاد لينزل ضيفا عليهم . ويذكر التاريخ أن كثيراً من الاباطرة كانوا يشعرون بلذة عند رؤية رؤس الاشخاص الذين يأمرون بقتلهم . وعندما قتل سيلا بأمر من نيرون حملت رأسه لنيرون الذى قال مازحا « إن الشعر الابيض قد علاها على صغر » . وأحضرت رأس بلانتوس الى نيرون أيضا فسره منظرها ، كما غمر السرور قلب أوتو لرؤيته رأس بيزو ويقال إنه لم يرمق رأسا أخرى بنظرة أقسى من التى وجهها الى تلك الرأس . ونظر أحد الملوك الى جثة خصم كان قد أمر باعدامه وقال : « إن جثة الخصم تفوح لها دائما رائحة زكية » .

ولا يضع الاضطهاد حدا للأحقاد السياسية . فالناس تتجاوز بسهولة عن الاضرار التى يلحقها بهم الغير أكثر مما يغفرون الاضرار التى يلحقونها هم بالغير . فالحزب الذى يلجأ للاضطهاد يود أن يستمر فى اضطهاده ، ذلك أن الضحية قد تغفر لجلادها أملة

الجلاد فلا يصفح أبداً عن الضحية التى تستثير حقده بما تبديه من ثبات واستسلام. وهم يحقدون أيضاً على خصومهم لأن الموت لم يخلصهم منهم بالسرعة الكافية. فالسفاكون الذين ذبحوا الأطفال فى نانت عام ١٧٩٣ كان يغيظهم من الأطفال طول نزعهم.

والحزب السياسى الذى بدأ باضطهاد خصومه يستمر على اضطهاده خشية أن يقابله الخصوم بالمثل. فهم يعتقدون إعتقادا جازماً أن المضطهد سوف يرغب فى الثأر لنفسه بدوره لذلك يوالون الاضطهاد ليجتنبوا رد الفعل الذى قد يضع حداً لسلطانهم.

والأحقاد السياسية لا تبقى على شىء حتى القبور. ففى سنة ١٧٩٣ ذر رماد الملوك فى الهواء ومثل بالجثث. وفى انجلترا سنة ١٦٦١ رفعت من وستمنستر جثث الاميرال بليك وأم كرومويل وابنته.

وفى أيام الثورات يضم المتطرفون عادة حثالة الشعوب الى صفوفهم وينجحون بذلك فى التغلب على المعتدلين. ولقد قال دانتون فى اليوم السابق على ٢١ مايو « إننى أعلم تماما أننا أقلية فى الجمعية وأن كل ما نستطيع الاعتماد عليه هو مجموعة من الأوباش لا تشعر بالوطنية الا حين تثمل. إننا مجموعة جهلة، فارا مجرد دعى، ولوجندر لا يصلح الا لتقطيع اللحوم، والباقون لا يعرفون كيف يقترحون الا بالجلوس فى أماكنهم أو الوقوف على أقدامهم. نحن من حيث الكفاية أقل بكثير من الجيرونديين، ولكن إذا غلبنا

فسينسبون اليانمذابح سبتمبروموت كابيه وعشرة أغسطس ، بالرغم من اشترا كهم معنا فيها جميعها ، لذلك يجب أن نهاجمهم ؛ فهم يحسنون الكلام ويعرفون كيف يجادلون وكيف يدبرون أمورهم ولكننا أجرأ منهم وحثالة الشعب طوع أمرنا »

ولقد استمال اليعاقبة العنصر الجاف من الشعب حتى أصبح طوع بنانهم . فالرجال الذين حاصروا المؤتمر فى اليوم الثانى من يوليو برئاسة هنريو كانوا قد استؤجروا جميعاً لهذا الغرض من قبل وأنقد كل منهم خمس ليرات فى مكان الحادث . ويقول لانجينيه إنه رأى بعينى رأسه أوراقا مالية تدفع علنا لزعيم الواحد والمائة الف رجل .

وأعد العمدة باشيه ١٥٠٠٠ . . . . فرنكا لتـــدفع لأهالى سان دومنيك . وأراد بيزو أن يبرر انهزام حزبه فقال: « لم نكن لنستطيع أن نلجأ إلا لوسائل شريفة وهذه لا تجدى . فالمال ! المال ، هذا ماكان يؤدى الى النجاح وقد أدى اليه بالفعل . ألم نشاهد رسلا فى كل مكان تحمل النقود أحيانا علنا كما فى موضوع المليونين التى دفعت لاهالى بوردو ، وغالبا سرا ؟ كان المال ضروريا ولم يكن عندنا منه فتيلا . »

وكان كومون باريس يدفع لكل عامل فرنكين يوميا حتى أعيد النظام . ودعا دانتون الى استصدار قانون بتجنيد جيش مأجور من عديمى السراويل فى كل بلدة ، والقانون الذى يمنح كل

وطنى يحضر جلسات الجمعيات الفرعية فرنكين عن كل جلسة .

ولم يكن اليعاقبة هم الحزب الوحيد الذى كان يحتضن الغوغاء ، فقد كان للجير ونديين فتوات مأجورين . وكانت الفتن تدبر من بداية الثورة . ويقول المستشار باسكييه فى مذكراته إن المساكين لم يدروا ما يريدون ولا ما يفعلون وكان بادياً للعيان أن حماسهم مصطنع مأجور .

وصرف فيليب المساواة أى دوق أورليان مبالغ جسيمة فى سبيل خلق الفتن ، فقد مول هياج ٥ اكتوبر ليسقط لويس السادس عشر . ويقول نائبان من نواب اليمين هما دوران دى مايان ولانجينيه إن خصوم الثورة كانوا يثيرون القلاقل ليسوؤا سمعتها .

وكثير من الحركات الشعبية التى تبدو اختيارية بدافع من محض شعور الشعب هى فى الواقع حركات منظمة دبرتها ، أو استغلتها على الأقل ، الاحزاب السياسية . وقلما يكون الشعب نتيجة انفجار غضب الشعب من تلقاء نفسه انما مرجعه ومنظموه هم المهيجون السياسيون . فقد دبر حوادث ٢٠ يونيو الجيرونديون الذين أرادوا ارغام الملك على أن يأخذهم وزراء . وكانت حوادث ٣١ مايو و ٢ يونيو من أعمال روبسبير ودانتون .

فاذا ما ترك للشعب العنان فهو السيل الجارف الذى لا توقفه السدود . ومتى ذاق الشعب حلاوة الشغب واسالة الدماء والنهب استحال ضبطه وإيقافه . ويقول شيشيرون : « إذا ما وضع

الشعب يده المجرمة على ملك عادل وارتوى من دماء المواطنين الأفاضل ، وإذا ما أصبحت الجمهورية موطئا لاقدام الجموع الزاحفة ، عند ذلك تكون مقاومة تلك الجموع المجنونة أصعب من مقاومة الزوابع والنيران المحرقة » . ولقد مر على الجيرونديين مثل هذه التجربة ، فهم ، بعد أن حرضوا الشعب على العرش ، رأوا ذلك الشعب نفسه ينقلب عليهم . فالاضطرابات تبدأ ، ولكن لا أحد يستطيع أن يعرف أين تقف . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

وفى أثناء النزاع بين الأرمانياك والبورجنديين أرسل رؤساء الجزارين بتحريض الجامعة مساعديهم وجزاريهم الى المعركة ، وكانوا يظنون أن فى استطاعتهم ضبط عنانهم فتبين لهم أن ذلك فوق مقدورهم . وفى عهد هنرى الثالث عند ما أطلق دوق جيز شعب باريس طلب إليه الملك أن يحد من ثائرتهم ولكنه لم يجد بدا من الاعتراف بأنه لا سلطان له على هذه الثيران الشاردة . وفى أيام الفروند بعد معركة حى سانت أنطوان فى ٤ يوليو سنة ١٦٥٢ لجأ شقيق الملك وكونديه الى مسيو دى بوفور بقصد ارهاب السلطات البلدية ولكن الشعب المطلوق العنان ذهب إلى أبعد مما كان مطلوبا منه فذبح كثيرا من القضاة .

وأحقاد الشعب تعمى لدرجة أن كثيرا من الناس يذبحون أعز أصدقائهم أثناء الشغب . ففى أثناء حوادث الثورة التى جرت فى

دار البلدية فى ٤ يوليو ١٦٥٢ ذبح الشعب قضاة من أخصام مازاران بحسبانهم من أنصاره . وفى أثناء هياج الفروند كانت تهمة مناصرة مازاران جزاؤها القتل ، كما كان الاتهام بالارستقراطية سنة ١٧٩٣ يقود للشنق بأحد أعمدة اضاءة الشوارع . وكثيراً ماذبح أعز أصدقاء الحرية باعتبارهم أعداءها . وكم أضل الدعاة الشعوب أثناء الأزمات السياسية الحادة فجعلوها ترى الخونة فى كل مكان . وكم من قواد اتهموا بالخيانة وذبحوا .

وكثيرا ما ترتكب الغوغاء الذين يترك لهم الحبل على الغارب ، سواء كانوا من أنصار الثورة أو خصومها ، فظائع منكرة . ولقد كان قتلة سبتمبر لا يرتوون من الدماء ، فبعد أن قتلوا القسس والنبلاء ذبحوا العجائز والأطفال والمرضى فى سالبتريير وبيستر ، وقتلوا وسبوا بنات صغار فى مراقدهم وذبحوا أولادا محجوزين فى فى إصلاحيات الأحداث . وبعد ٩ تيرميدور سنة ١٨١٥ جاء رد الفعل فكان الغوغاء المضادون للثورة فى جنوب فرنسا مدفوعين بشهوة الانتقام يقلدون الثوريين وإن لم يصلوا إلى مداهم بالفعل .

والرجال الذين اضطهدوا يودون أن يثأروا لأنفسهم وأن يسيئوا إلى من اضطهدوهم ، والحزب الذى أصابه ضرر يود أن ينتقم لنفسه ، وحتى المعتدلون يصبحون متطرفين عندما تحركهم شهوة الانتقام . وقد وصف ثوسيديد هذا التعطش إلى الأخذ بالثأر الذى يدفع المتألمين إلى كل مغالاة ، فهو يقول إن كوزسيرس

كانت أول مسرح للمغالاة فقد رؤى إلى أى حد يصل الشعب فى سبيل الانتقام من الأشخاص الذين حكموه طويلا بطغيان وعجرفة بدلا من أن يعاملوه باعتدال . وأى مخالفة للقانون يمكن أن يدفع اليها الأشخاص البائسين الذين يريدون أن يدفعوا عن أنفسهم الفاقة والذين تملكتهم شهواتهم فهم لا يأبهون الا بالاستيلاء على ثروات الآخرين دون رعاية لأية عدالة . وبالاختصار، أى فظاعة وأى عنف يمكن أن يرتكبه رجال تحركهم الرغبة فى الوصول إلى المساواة السياسية أكثر مما يحركهم الجشع ، فهم ينتقلون من أفراط الى افراط مسترشدين بجهلهم وحنقهم الجنونى ؟ وكان فلاحو الجاكيرى فى القرون الوسطى وعبيد سان دومنجو فى القرن الثامن عشر يقابلون الاهانة بمثلها. كانت الفظائع ترتكب من جانب النبلاء ومن جانب الفلاحين ومن العبيد من ناحية ومن سادتهم من الناحية الأخرى . وقد أحرق الفلاحون قصورا ، كما أحرق النبلاء قرى بأكلها . وكانت المجزرة فى الناحيتين مريعة . والارلنديون الذين اضطهدهم الانجليز بفظاعة ارتكبوا بدورهم فى المناسبات التى ثاروا فيها فظائع مثلها .

ورد الفعل الناتج عن عهود متطرفة يكون دائما عنيفا . فبعد أن أسقط انقلاب ٩ تيرميدور الأرهابيين استمر فى اتباع وسائلهم ثم حل الارهاب الأبيض محله ، فالمعارضون حبا فى الانتقام، يرتكبون الجرائم التى كانوا يشكون منها .

يستمد المتطرفون ابان الثورات قوتهم من بلادة الذين يحترمون القوانين وهى بلادة ملحوظة فى جميع أدوار التاريخ. فتاستوس ، أحزنته قسوة الطغاة وجيش الضحايا ، فرمى القلم متأفقاً وقال « إن هذا الخنوع وهذه الدماء المراقة فى أيام السلم تتعب وتملأ النفس حزنا »

وكانت جمعية الأورمية التى نشرت الرعب فى بوردو أيام الفروند مكونة من خمسمائة عضو لا أكثر. وفى أيام الثورة ترك سكان بوردو تاليان يضطهدهم بالف وثمانمائة متعصب ينصرونه. وكان اليعاقبة فى مارسيليا يسيطرون على خمسة أقسام من اثنين وثلاثين قسما. ويؤكد رونسن زعيم الجيش اليعقوبى الثورى فى ليون إنه لم يكن فى المدينة كلها أكثر من ١٥٠٠ يعقوبى. وخضعت باريس نفسها لحفنه من السفاكين.

ويبدو لأول وهلة أن هذه الأحقاد الوحشية التى أسالت كل هذه الدماء قد أصبحت من نصيب التاريخ وحده ، وأن الهيئة الاجتماعية الحاضرة لن تشهد فظائع ١٧٩٣ مرة أخرى فالفاظ الاخاء والانسانية والشفقة على جميع الألسنة ، ولكنها لم تنفذ بعد إلى جميع القلوب . فلا يزال بيننا متوحشون لا عقل لهم ، لا يعرفون شيئا سوى الحقد ، وهم يطلبون القضاء على الهيئة الاجتماعية . وهؤلاء المتوحشون الذين يختبئون فى أطراف المدن الكبرى أكثر قسوة من سكان الغابات . ومن الخطأ أن نغش

أنفسنا ونركن إلى أمن مزيف بدعوى أن أعداء الهيئة الاجتماعية أقلية وأن الغالبية العظمى للشعب لا تحركها أى عاطفة ثورية ، فأغلب الثورات قد نشأت على أيد أقليـــة جريئة . وعدد المتطرفين قليل ولكن عدد الجبناء كثير . لقد رأينا فى ١٨٧١ تجدد لعهد ألارهاب وفاقت اعمال الكومون أعمال ١٧٩٣ . وإذا قامت ثورة جديدة غداً فان مافعله ثوروو ١٨٧١ من فظاعة وسلب لا يقارن بما يفعله ثائرو الغد من اشتراكيين وفوضويين يحملون فى نفوسهم حقدا عميقا على أصحاب الأعمال وأهل الطبقة الوسطى والقسس والجيش ويودون هدم الهيئة الاجتماعية بكل الوسائل : بالخنجر والجاز ، بالديناميت والحريق .

ولسوء الحظ تضعف مقاومة العناصر الطيبة بقدر ما تكبر جرأة وحقد أعداء الهيئة الاجتماعية . إننا نشبه أشخاصا يهتمون، بينما دارهم تحترق ، بالنظر بأعجاب إلى اللهيب المندلع وبالتلذذ بمظهر النار والحريق . ولقد قبلنا بيننا بتأثير العواطف الكاذبة الأشخاص الذين ارتكبوا جرائم الحريق فى عهد الكومون ، وهم يأبون علينا فضل العفو الذى منحناه لهم . والفوضويون الذين يرتكبون أفظع الجرائم يمنحون أسباباً للتخفيف ، وكأنى بالمحلفين الذين يمنحونهم تلك الأسباب يطلبون لأنفسهم مثلها .

الرياء السياسي

للسياسة ، كما للدين ، مراؤن يخفون أطماعهم تحت ستر الألفاظ الخلابة . لقد فضح موليير الرياء الديني في رواية خالدة أما الرياء السياسي فلا يزال ينتظر الفنان الذي يكشف ستره .

فالسياسيون ذوو الأطماع يتحدثون دائما عن المصلحة العامة ومصلحة الدولة ، ولايفتأون يظهرون الاخلاص لرفاهية المجموع في حين أن هدفهم الصحيح في الواقع هو الوصول إلى السلطة . وكثيراً ما يحدث أن الوزير ، الذي يكثر من الحديث عن سلامة الدولة ، لايهتم في دخيلة نفسه إلا بسلامة وظيفته ، وذلك الذي يلتمس دائما مصلحة الدولة انما يسعى لمصلحته الخاصة . فالوزارة ، التي لا يدخلها ذلك السياسي الطموح ، تكون دائما عنده وزارة ضارة يجب اسقاطها . . . لمصلحة الدولة ، والسياسة، التي لا تعود عليه بفائدة ملموسة ، سياسة ضارة . أما السياسة النافعة فهي

التى تجلب السلطـــة والمزايا المـادية . فأعضاء مؤتمر الثورة الحنبليون الذين ألغوا الألقاب ختموا حياتهم بأن أصبحوا بارونات وكونتات فى عهد الامبراطورية ، وأنصار الحرية المتحمسون هم الذين أعادوا الامبراطورية ومغتالو الملك هتفوا – فى سنة ١٨١٥ – بحياة الملك ، وأشد خصوم لويس فيليب الذين كانوا يشكون من فقدان الحرية فى عهده أصبحوا من كبار موظفى نابليون الثالث . وكما أن بعض قاتلى الملك فى ١٧٩٣ قد أصبحوا مديرين ومستشارين للدولة فى عهد الامبراطورية الأولى فكذلك عين بعض اشتراكيى ١٨٤٨ مديرين ومستشارين للامبراطورية الثانية . وإذا كان هناك عـدد قليل من السياسيين يشفق حقا على الصالح العام فما أكثر السياسيين الذين يخفون أطماعهم الشخصية تحت ستر الألفاظ الرنانة ! !

فعند ما ثار دوق بيرى وكونت شاروليه ضد لويس الحادى عشر أذاعا انهما انما يحاربان لمصلحة المجموع . ولكن لويس الحادى عشر أرسل خطابات لجميع أنحاء المملكة فضح فيها الأسباب الحقيقية لتمردهما ، وأثبت أنه لو كان قد قبل أن يزيد فى مخصصاتهما لما مر الصالح العام لهما بخاطر . ولقد عنون كومين الفصل من مذكراته الخاص بثورة كونت شاروليه « كيف ان كونت شاروليه ، وكثيرين من نبلاء فرنسا جندوا جيشاً ضد لويس الحادى عشر بدعوى المصلحة العامة . »

وكم من السياسيين الطموحين استغل الدين لستر أغراضـه . يقول دوق نفير فى خطابه عن أعمال الدولة المطبوع سنة ١٥٩٠

والمهدى إلى البابا سيكستوس الخامس إن الاحتجاج بالدين ليس بالجديد ، فكثير من الأمراء قد لجأوا إليه لتحقيق أغراضهم ، فدوق دى جيز استعان بالدين للوصول إلى العرش ، واتخذ الصالح العام سترا لمؤامرة امبواز على حين أن الباعث الصحيح لها هو حقد البرنس دى كونديه على أسرة جيز . وكان الزعماء البروتستانت أثناء الحروب الدينية يرعون اطماعهم الشخصية أكثر مما يرعون مصلحة الدين . وكان الدين مجرد تكأة لشغب لاروشيل فى ١٦٢٧ أما سببه فى الواقع فأطماع أسرة روهان التى لم تتردد فى طلب معاونة انجلترا ضد الملك . وكذلك أخفى شارل الخامس اطماعه تحت رداء الدين ، ويقول فرانسيس الأول إن شارل أراد أن يسيطر على شئون الدولة بدعوى الدين . وكذلك استعان فيليب الثانى بالدين لأغراض سياسية .

ولم تكن المصلحة العامة ، بل الأطماع السياسية ، هى التى دفعت النبلاء أيام الفروند إلى الانضمام للشعب . فقد اشترط شاتونوف أحد زعماء الفروند ، فى كل الاتفاقات التى اقترحت بين حزبه وبين مازاران ، أن يكون وزيراً . كما طلب زعيم آخر ، هو المركيز دى فيوفيل ، أن يكون وزيراً للمالية بوجه التحديد كما طلب دى رتز أن يعين كاردينالا وأن يمنح وظائف أخرى وراثية فى البلاط . ولما اصطلح دوق لا رشفوكو (المصلح) مع ما زاران اختص نفسه بمعاش محترم قدره ثمانية آلاف فرنكا . وعند ما تفاوض كونديه مع البلاط طلب أن يعين أصدقاءه

ماريشالات وحكاماً للمقاطعات وأن يمنحوا معاشات وألقاب كما طلب معاشاً كبيراً لمدام دى شاتيون . ولم يكن خطباء الشعب أقل عناية بمصالحهم الشخصية ، فقد طلب فيلار أحد زعماء الأورميه فى بوردو ثلاثين الف كورون لنفسه . ومعروف أن النبلاء الذين حرضوا الشعب للخروج على مازاران انما كانوا يسعون لتحقيق أغراضهم . تلك كانت دائماسنة الأمور .

وأغلب المشاغبات والحروب الأهلية التى دمرت فرنسا قبل ١٧٨٩ كان هم المحرضين عليها موجها لتحقيق اطماعهم وكانوا يتملقون الطغام ويدفعونهم لحمل السلاح . فلا شىء ادعى للاحتقار من تصرف كونديه مثلا أثناء مشاغبات الفروند . فعند ماانقسمت الفروندفى بوردو إلى قسمين ، الأقلية وقوامها المعتدلون والمتنورون والأغلبية (الأورمية) وقوامها المتطرفون الهائجون وأغلبهم من الأوساط الدنيا ، عند ما وقع الانقسام وتلته المجازر الدموية كتب كونديه ، كونديه العظيم إلى لونيه يقول : « إذا كان من المستحيل ، بالمفاوضة أو الدهاء أو أية وسيلة أخرى ، حمل الأورمية على التخفيف من حدتها ، فالأفضل لنا أن تنضم إليها . . وأرى أن تنضم جميعاً إلى الأورمية لأنها الحزب الأقوى . »

ولما طردت الأورمية كثيرين من أعضاء البرلمان من أصدقاء كونديه شر طرد ، وافق كونديه على أعمال العنف هذه لأنه عدها ضرورية ، بل لقد ذهب إلى أكثر من ذلك فلم يتحرج من الدس

لالقاء العبء على البرنس دى كوتى ودوقة دى لونجفيل ، فكتب إلى لونيه يقول « إنه ليسرنى لو أمكن نسبة أعمال العنف ضد البرلمان إلى البرنس دى كوتى ومدام دى لونجيفيل »

فاذا كان بطل ركروا بدافع من الشهوة السياسية قد تنزل الى الخداع والجبن والرياء فهل يدهشنا أن نجد عالم السياسة خلوا من الصراحة ؟ فالأمراء والملوك والاباطرة والوزراء والنواب وخطباء الشعب يكادون يلجأون جميعا الى الكلام لاخفاء أفكارهم ويتخذون الكذب دينهم ومبدأ من مبادىء حكمهم . ويقول لويس الحادى عشر إن الذى لا يعرف كيف يوارى ، لا يعرف كيف يحكم . وحتى اليوم، يوجد مؤرخون يطلبون الينا أن نعجب بمبادىء لويس الحادى عشر . وقد قيل عن كثير من الحكام إنهم كانوا يكذبون حتى حين يصمتون . ويكاد يكون الرياء — بعد القسوة — الخليقة السائدة لدى جميع أباطرة الرومان . فقد وارى اغسطس سلطانه المطلق تحت مظاهر الجمهورية ، ومن المعروف كيف كان تيبريوس يرائى وكم كان يقول ويعيد إن القانون واجب الاحترام ، بينما لا يحترمه . وكان نيرون يخفى حقده باللقاء الحسن ، وكان يظن انه يستطيع أن يبرر كل جرائمه بدعوى أن ارتكابها كان لمصلحة الدولة . فلكى يبرر قتل اجريبينا وجه اليها تهما كاذبة . وحين أمر باعدام وطنيين مستقيمين هما بلوتوس وسيلا أتهمهما باطلا بانهما متمردان وكتب الى مجلس الشيوخ يؤكد سهره على سلامة الجمهورية .

وجميع ذوى المطامع الذين سعوا للحكم مراؤن كانوا يدعون أن ليس لهم أطماع . ويقول بلوتارك إن بيزستراتوس كان يتظاهر بأن لا أطماع له ، وأنه قانع بما عنده لا مطمع له فى مزيد وكان يكره من يحاولون تغيير حالة الشعب أو يفكرون فى التآمر على أمر جديد . ولم يفد تحذير سولون الذى اكتشف خداع بيزيستراتوس لأفراد الشعب ومطالبته لهم أن لا يدعوا الحرية تموت ، كما ذهب عبثا اتهامه الآثنيين بالجبن والخنوع . إنه لم ينجح فى اقناع أحد لشدة ما كانوا قد اطمأنوا لرياء بيزيستراتوس

وهل هناك مراء أكبر من كروموبل ؟ لقد أخفى هو الآخر اطماعه بستر مصطنع من التواضع وحشا خطبه باقتباسات من التوراة ، ومظاهر من التبتل . وكم كانت تنهمر الدموع من مآقيه وهو يعلن إنه كان يشعر بسعادة أتم لو قدر له أن يعيش فى ظل غابته الصغيرة يرعى غنمه ولا يحمل اعباء الحكم . ولكنه كان يضيف إنه يؤدى واجباً بحمله العبء ليخلص الأمة وخضوعا لمشيئة الله . وهو لم يتكلم قط متعاظما بل كأحد أفراد الشعب العاديين وكخادم من خدامه . لقد وارى سلطانه خلف لقب الحامى كما اتخذ نابليون لقب القنصل الأول للغرض نفسه . ولست بمستطيع أن أذكر جميع أعمال القسوة والدهاء التى ارتكبها كروموبل ويكفينى أن أذكر كيف استولى على مدينة دجورتا فقد وعد

الذين يستسلمون بأن ينجوا بأعمارهم فخدعوا بهذا الوعد واستسلموا ، ولكنه أمر باعدامهم جميعا . ويقول جوستاف دى بومون فى كتابه عن ارلندا إنه زار تلك البلاد بعد قرنين من هذه الحوادث فوجدها لا تزال ترتعد فرقا لمجرد ذكر اسمه . وكان شأن كروموبل شأن الكثيرين من السياسيين ذوى الأطماع يفترى على الذين يقاومونه قبل أن يسجنهم أو يعدمهم ، ويستأجر الكتاب ليتهموهم بالتآمر ويصموهم بكل جريمة .

ولذوى المطامع ، الذين يسعون لنيل السلطة أو يريدون الاحتفاظ بها دائما ، كتابهم ومأجوروهم الذين يفترون على خصومهم ويتسترون على مشاريعهم . فالرجل الذى ينوى خنق الحرية يشيد بها ويعلن استعداده لمحاربة الاستبداد . وحين كان مونك يعبد الطريق لعودة آل ستيوارت قال لصديق له « يجب على كل منا أن يعيش ويموت من أجل الجمهورية » وأقسم أنه سيقاوم بمفرده آل ستيوارت . والفاتح الذى يضطهد بلدا يحب أن يقال عنه إنه يصلحه . والأمير الذى يحكم ضد رغبات الشعب لا يفتأ يعلن أنه وكيل الشعب ومنفذ ارادته . والملك أو الوزير الذى يعد العدة للحرب يعلن تمسكه بالسلم ، وبعد إعلانها يسعى جهده بتصريحاته الكاذبة ليزرع الانقسام بين أهل البلد الذى يهاجمه حكومة وشعبا . فلقد أعلن ليوبولد فى رسالة للدول سنة ١٧٩١ أن غرضه لا يعدو القضاء على أعضاء الاتحاد الذين يريدون

القضاء على سلام أوربا بعد أن اعتدوا على العرش والهيكل ، وأضاف « وأنا اقرر للامة الفرنسية انى لن أقود جيوشى ضدها » ولجأ ملك بروسيا إلى نفس المناورة سنة ١٨٧٠ حين أعلن أنه يحارب نابليون الثالث لا الأمة الفرنسية ، ومع ذلك فبعدما أسر نابليون استمرت بروسيا تحارب الأمة الفرنسية .

ويقول المتطرفون إن النظام يستتب باخماد صوت الضحايا ، ويحسبون أنهم يقيمون الهدوء وما يقيمون الا العزلة . وحين تضطهد إحدى الأمم أمة اخرى لا تغفل عن أن تذكر لها إنها تحمل لواء المدنية وتعمل فى مصلحة المضطهد . ولما انذر الآثينيون الميلاتيين ليخضعوا قالوا لهم برياء « إننا نحدثكم فى مصلحة جمهوريتكم ونريد ان نوفر عليكم مقاومة لا طائل تحتها . نحافظ عليكم لمصلحتكم ... ومصلحتنا . »

وحاول شيشيرون ان يبرر الضرائب الباهظة التى كان يتقاضاها الرومانيون من الشعوب التى يستعمرونها فادعى ان ذلك الاستعمار كان لمصلحة تلك الشعوب . والحقيقة أن تلك الشعوب كانت تسرق وتسلب بفظاعة وجشع لا مثيل لهما ، كما سلب الأسبان سكان الدنيا الجديدة بدعوى تمدينها .

ويتشدق المضطهدون دائما بالفاظ الانسانية والاخاء بينما هم يعثون بضحاياهم إلى المشانق . فان ارادوا الغاء الدين فانهم ، بحجة حرية العبادة وحرية الضمير ، يضعون العراقيل فى سبيل اتباع قواعد

الدين واختيار القسس . فبعد ٩ ترميدور ، أعلن المؤتمر حرية العقائد ، ولكنه فى نفس الوقت ، منع القسس من القيام بالصلاة . وقد دلت التجارب على أن التعصب اللاديني مراء وقاس . وفى أثناء الارهاب أدى ذلك التعصب إلى قتل القسس وغلق الكنائس وهدم الهياكل باسم الفلسفة . وكان مغتالو القسس يحسبون أنفسهم وطنيين وفلاسفة وينعتون ضحاياهم بالتعصب ، واستمر الاضطهاد بعد ذلك باسم العدالة . وإذا عجز الاضطهاد عن بلوغ مآربه بالقوة ، اتخذ برياء مظاهر مشروعة . فعندما وجدت انجلترا ان من الصعب القضاء على الكاثوليكية فى ارلندا بالقوة ، سمحت باتباع ذلك الدين ، ولكنها فى الوقت نفسه نفت الأساقفة لتمنع تعيين القسس . وفى فرنسا لجأ أكثر رجال الارهاب قسوة وتطرفا إلى الحيلة والعنف ليجتزوا المسيحية من جزورها . فكاريه الذى نبغ فى اغراق الكثير من القسس والذى قال فى محاكمته إن ذلك الاغراق كان يبدو له طبيعيا ، والذى نصح بالالتجاء للحيلة للقضاء على المسيحية ، كان يدعو فى نفس الوقت الى حرية العبادة .

وكانت المصادرة أثناء الثورة تسمى حراسة أو إدارة بواسطة الحكومة . وانزل الدين العام بغير حق إلى ثلث قيمته وسمى بالثلث الموحد . وأعلن المؤتمر بعد ٩ ترميدور أن للملكية حرمة ومع ذلك فقد قرر أن أسر المهاجرين لا يجوز لها أن تمتلك وصادر أملاكها .

وتفيض أغلب خطب العهد الثورى بالمغالطات . ففى ٢ يونيو بينما كان المؤتمر يتناقش تحت تهديد بنادق ومدافع الكومون ، تكلم كوتون عن الاستقلال الذى يتمتع به المؤتمر وقال : الآن وقد اطمأننتم على حريتكم اطلب أن ينال الشعب العدل وأن يقبض على النواب الذين تآمروا . وكم كان روبسبيير مرائياً وكانت خطبه تفيض بالخداع والغش ! إنه مثال الطرطوف السياسى . كانت لغته دائماً مصطنعة متقلبة . كان يباهى بصراحته ويتظاهر بالاستسلام والتجرد من الطمع وينطق بالفاظ الانسانية والحرية بكل تقوى بينما هو يعتزم أعمال الاضطهاد . وهو ، لما يحس به من غيرة من خصومه لنبوغهم ، يضطهدهم ويفترى عليهم بدعوى مصلحة الجمهورية ومايضحى بهم فى الواقع إلا لحقده الخاص عليهم . وتراه فى سبيل اكتساب الشهرة يسكن مع عامل ويؤاكل أفراد أسرته .

وقد لجأت الحكومات التى أرادت هدم الأديان إلى وسيلة مكيافيلية أخرى هى إساءة سمعة القسس باساءة اختيارهم . فلكى تلغى حكومة روسيا الكاثوليكية فى بولندا عينت فيها سكيرين وفسقة قسساً .

ويتحدث دعاة الوطنية الذين يريدون إرهاق الأغلبية لحساب أقلية ضئيلة باسم الشعب ، وإن لم يمثلوا إلا أقل أفراد الشعب تنوراً واحتراماً . فقد طلبوا باسم الشعب إعدام الملك واضطهاد

الجيروند وإقامة محكمة الثورة . وكان القضاة أنفسهم الذين يتولون الفصل فى تلك المحكمة يحرضون الشعب ويقولون فى حيثياتهم «إن الشعب الذى يعرف المتآمرين يطلب عقابهم فقولوا للشعب إن المؤتمر ينضم إليه فى خلاص الجمهورية ». وتدعى الأقليات الحزبية دائماً أنها تعمل بارادة الشعب . ففى أثناء الثورة ادعى مندوبو الثمانية والاربعين قسما باريسيا انهم وحدهم الذين يمثلون الشعب صاحب السيادة وأن الثمانية والاربعين قسما قد اجمعت على إسقاط الملكية . والواقع أنه فى مساء ٩ - ١٠ أغسطس انتخب الكثيرون من هؤلاء المندوبين بأقلية ضئيلة جداً . ولكم رأينا بعد ذلك نفس الطريقة تتبع فى تعيين المندوبين أعضاء اللجان السياسية الذين يدعون لأنفسهم تمثيل الأغلبية ويستندون إلى توكيل لم يمنحوه قط . وبفضل مثل هذه المناورات تحكم فرنسا فى بعض الأحيان بأقلية ليست مع ذلك أفضل ما فى البلد . فالأرقام الصحيحة تزور أو يتلاعب بها ، وتتظاهر الأقلية بأنها أغلبية وتؤثر على الرأى العام وتتحدث باسم الشعب وتوجهه إلى حيث تشاء هى لا هو .

ومرتكبو الانقلابات الاستبدادية أو الشعبية لا يغفلون عن الاحتماء وراء سيادة الشعب فى الوقت الذى يهاجمون فيه تلك السيادة ، إذ السيادة الوحيدة التى تهمهم هى سيادتهم أنفسهم . إنهم يعلنون سيادة الشعب فى الوقت الذى يتحكمون فيه ويعاملونه معاملة الرقيق . فهم يتظاهرون باستفتاء الوطن ، على حين يملون عليه

فى الواقع الجواب الذى يطلبونه منه.

وتعج فرنسا فى أيام الثورات بالأشخاص الذين ينسبون لأنفسهم حق تمثيل الوطن. فاذا هاجموا البرلمان فهم يفعلون ذلك لابلاغه إرادة الشعب. وفى جلسة أول بريريال سنة ٣ هاجمت المؤتمر الوطنى عصابة ثائرة واعتلى المنبر شخص يرتدى ملابس الطوبجية وحوله حاملو البنادق وتلا فى لهجة مهينة جداً، إعلاناً مطبوعاً قال إنه يحتوى على ارادة الشعب صاحب السيادة الذى يتحدث هو باسمه.

وبينما يستر المتطرفون أغراضهم بمجموعة من الأعذار الموهومة كالصالح العام، وسلامة الجمهورية وإرادة الشعب، نرى المعتدلين أيضاً يسترون ضعفهم وخوفهم بمغالطات وأكاذيب. فهم يخضعون، على حد دعواهم، ليجنبوا الوطن اضراراً أعم وليمنعوا وقوع أزمة خطيرة. وهم يستسلمون للاجراءات الشاذة التى يحتم الواجب عليهم معارضتها بدعوى أنهم يقبلونها لمصلحة الذين توجه ضدهم. فحين طلب اليعاقبة فى اليوم الثانى من يونيو محاكمة الجيروندنيين وافق نواب السهل (الوسط) بدعوى أنه لا محل لشكوى النواب المقبوض عليهم فى بيوتهم وأنه من الضرورى وضع حد لأزمة خطيرة. وعهد إلى بارير بكتابة تقرير باسم لجنة السلام العام فوجه نداء كله رياء إلى وطنية وكرم الأعضاء المتهمين وطلب منهم أن يوافقوا مختارين على التنازل عن

حصانتهم لأنها الطريقة الوحيدة للقضاء على الانقسامات التى مزقت الجمهورية . وعند الاقتراع على كشف المتهمين أظهر أعضاء حزب الوسط نفس الرياء الذى سبق لهم أن أبدوه ليخفوا ضعفهم ، فامتنعوا عن التصويت ، بدعوى أنهم لا يشعرون بأنهم أحرار ، . وبذلك مكنوا للجبل من أن يطلب محاكمة الجيروندين .

ويفعل الخوف اليوم فعله فيدفع بكثير من المعتدلين إلى السير فى ركاب المتطرفين والاشتراكيين ، فالخوف هو الذى كان يزيد باستمرار ، فى أيام الثورة ، عدد اليعاقبة الذين كانوا بادىء الأمر أقلية فى المؤتمر . والخوف هو الذى جعل دوق أورليان يأخذ مكانه بين رجال الجبل ويتخذ لنفسه لقب المساواة .

والخوف الذى يعلم الناس الرياء يعلمهم القسوة أيضاً . فلكى ينجوا بأنفسهم يعملون على تضحية غيرهم ، ويقول مونتانى « إن الجبن أم القسوة » . فكم كان عدد النواب الذين دفعهم الخوف الى الاقتراع على موت لويس السادس عشر أو الجيروندين ؟ وكم منهم تصرف كما تصرف سان فارجو رئيس برلمان باريس السابق الذى بعد أن أظهر عداءه للثورة اقترع بادانة لويس السادس عشر وجمع أصواتا لتلك الادانة . . كان الجيروندبون لا يرغبون فى موت لويس السادس عشر ولكنهم اقترعوا على موته خشية أن يتهموا بالملكية . وهذا الجبن مع ذلك لم ينجهم فقد اتهمهم رجال الجبل فيما بعد بأنهم أرادوا أن يخلصوا الطاغية . وهاهو فرنيو

الذى بدأ باظهار عدم رضاه عن إعدام لويس السادس عشر ينتهى بالاقتراع بالاعدام بدعوى أنه لا مفر من تضحية حياة رجل لتجنب حرب أهلية . وما أكثر النواب الذين وقعوا تحت تأثير هتافات رواد ألواج الجمهور الذين كانوا يتذمرون ضد كل من يقترع بعقوبة غير الاعدام . ولم ينجح رجال الجبل فى الحصول على حكم الادانة إلا بفضل الجرأة والارهاب . والخوف هو الذى أوقع الجيرونديين بدورهم فريسة لدانتون وروبسبيير ، كما أوقع دانتون بعد ذلك فريسة لروبسبيير . ولم تكن غالبية المؤتمر مدفوعة بشعور القسوة . وقد لاحظ المسيو دى سفر بعد ذلك أن الأغلبية كانت دائماً سليمة التفكير ولكن بجبن . وليست شجاعة الأغلبية على أى حال هى التى قضت على دكتاتورية روبسبير ، وانما الخوف من الوقوع فريسة له هو الذى دفع تاليان وبوردون دى لواز ولوجندر ولوكوانتر الى مهاجمة روبسبيير ، لقد أسقطوه ليخلصوا أنفسهم . ولما سئل بارير بعد ذلك عن أعمال لجنة السلامة العامة أجاب « كنا جميعا نشعر شعورا واحداً هو خلاص أنفسنا ، ورغبة واحدة هى رغبة الابقاء على حياتنا التى كان كل منا يظن أنها مهددة . فكان الواحد منا يدفع بجاره للمقصلة لينجو هو منها » وهكذا كان النواب لكى ينجوا برقابهم يدفعون برقاب زملائهم الى المشانق .

ولما سئل سايس بعد الارهاب ماذا فعل أثناء العاصفة أجاب :

« لقد عشت » . وفعل كثير من أعضاء المؤتمر فعله ، فكانت فكرتهم الوحيدة هي خلاص أنفسهم بالصمت وبالانحناء الى أسفل ولو فى الوحل . وقد شرح دوران دى مايان وهو أحد نواب اليمين موقفه فى المؤتمر بقوله « لم يجد حزب روبسبير سبيلا لخلاص الجمهورية وسلامة الحزب نفسه إلا بالالتجاء إلى اجراءات عنيفة والتخلص من خصومه بالسيف والاغتيال . وكثيرا ما كان يستعمل الحماس الوطنى سترا لهذه الفظاعات . أما أنا فقد أثرت فى هذه المناظر المخجلة وخاصة ماتجره من مصائب ، لذلك قررت أن أتنحى جانبا ، وأن أعهد بنجاتى إلى السكوت وعدم الظهور ... فبسكوتى لم أستجلب حقد أحد من أعضاء اليسار ، ووضعت نصب عينى الرأى الذى قاله بودان فى كتابه « الجمهورية » . « إذا وجدت لدى الانسان أسباب قوية تجعله لايعلن مناصرته للشعب ، فى حالة الهياج ، فالأحوط ، بل الواجب ، لخلاص الانسان ، أن لايعارضه . . . ويضيف ... إن الافضل لنا أن نعوى مع الذئاب . »

هذا العواء مع الذئاب هو فى الواقع شعار عدد غفير من المعتدلين الذين وإن كرهوا الاراء المتطرفة ، يمتنعون عن محاربتها بل ويتظاهرون أحيانا بتأييدها . فان كانوا شيوخا أو نوابا اقترعوا على قوانين لا تقرها ضمائرهم مهما كلفهم ذلك من ألم . وأغلب السياسيين يسيرون وراء الجمهور بدلا من أن يقودوه . وما أقل عدد الذين لديهم من الشجاعة مايكفى للوقوف فى وجه التيار . فالناس ، خشية الوقوع فى المحذور ، ينضمون إلى الذين

يبدو نجمهم فى الصعود . فهم يتظاهرون رياء بآراء متطرفة ، ويتبعون التيار لينالوا الشهرة (١) وكثير من السياسيين لا يتحرجون عن الاقدام على الكذب فى سبيل اكتساب الشهرة والاحتفاظ بها . فهم يتملقون بخضوع لكل شهوات الجمهور . ويغيرون آراءهم وبرامجهم كما يتبدل الرأى العام . يدافعون عما كانوا يهاجمونه ويهاجمون ما كانوا يدافعون عنه . أنهم يتبعون الرأى السائد . فاذا كان الاعتدال والحرية هما السائدان ، فهم معتدلون وهم أحرار ، وإذا كان روح الانصاف والحرية يعرضهم لفقدان شهرتهم فسرعان ما ينقلبون متطرفين ، ظالمين ، بل وطغاة حتى لا يدعوا خصومهم يسبقونهم تطرفا . فاذا جنح الجمهور للاضطهاد الدينى ، اضطهدوا الدين ، وإذا طلب ضرائب ظالمة اقترعوا عليها ، وإذا أصر الرأى العام على اتخاذ سياسة سلب ونهب سارعوا بتحقيق كل نوع من انواع الجشع والحسد ، فاذا رغب الشعب فى اراقة الدماء ، اسالوها له

---

(١) ذكر لى أحد نواب مدينة أنه ذهب لعاصمة المديرية ليعطى صوته فى انتخاب أحد الشيوخ وكان غرضه أن يصوت للمرشح الجمهورى المعتدل ولكنه أضاف « إنى وجدت عند وصولى أن التيار لم يكن متجها لناحيته فنحت صوتى لخصمه » . فقلت له محاولا اظهار سخريتى فى ثوب من الاعجاب به : انك سياسى عميق فأنت دائما تتبع التيار » فتردد لحظة وكأنه فى شك مما اذا كنت مخلصا أو ساخرا ، ونظر الى ليرى اذا كنت أبتسم ولكنى استطعت أن أبدو جادا فلما اطمأن الى نواياى وأعجبه تقديرى له أجابنى بهذا الرد الخالد : « نعم ياسيدى انى دائما أتبع التيار » ومعظم السياسيين يتبعون التيار كهذا النائب وكالسيادس الذى قال : « لما كان الاثينيون يحكمون بحكومة شعبية فمن الواجب مجاراة الأحوال » .

مدراراً بل وشنعوا على الضحايا . وبالرغم من ذلك فما أسرع مايجيء الوقت الذى يفقد فيه أصحابنا تلك الشهرة لأن الشعب سريع فى كسر أصنامه (١) .

ويمكننا أن نطبق على عالم السياسة ماقالته مدام دى مانتنون ووالدة الوصى عن عالم القصر . فمدام دى مانتنون تقول « إن هذه البيئة فظيعة تدير كل الرؤس » . وقالت والدة الوصى لولدها « احذر من تقدرهم فانى عند المنبع وقد شهدت الخيانة تعقبها خيانة . إن أحسن الناس أخلاقا يفسدهم البلاط » . وكذلك تفعل السياسة . ووالدة الوصى تقول له أيضا « منذ ما جئت هنا وأنا أشاهد أشياء فظيعة بحيث لو أننى وجدت فى موضع لا يعتبر الدس فيه الفضيلة السائدة ولا يباح فيه الكذب ويحترم لظننت أننى عثرت على الجنة » .

ولم تكن الوسطاء تسعى لتنوير الملك . بل كان كل همهم ارضاءه واكتساب عطفه بالتملق . كان الملك فى نظرهم إلها يتقرب اليه

---

(١) كان ديرمينيل قد اكتسب شهرة واسعة فى سنة ١٧٨٩ ولكن الجمهور عامله أسوأ معاملة سنة ١٧٩١ وكاد يفتك به فلما أنقذ من بين أيديهم قال الذى جاء يواسيه هذه الكلمات التى يحسن بالسياسيين الطموحين المغرورين أن يتدبروها : وأنا أيضا حملنى الجمهور محل الفائزين !! ومع ذلك فالجرى وراء الشهرة هو الشهوة المتسلطة على السياسيين فقد سمع بنيامين كونستان يقول وهو فى حشرجة الموت : بعد اثنى عشر عاما من شهرة مكتسبة بجدارة واستحقاق وما اقترع الجير وتديون موت ضد لويس السادس عشر ضد ضمائرهم الا للاحتفاظ بشهرتهم

وقد أصبح الشعب عند ساسة اليوم ذلك الاله ، فهم يتملقونه ويعبدونه ليثروا . وهم يتفكهون بكل شهواته ويصفقون لكل عيوبه . ما أكبرك أيها الشعب ! وما أظرفك ! وما أعدل كل مطالبك ! إنهم يتملقون الشعب كتملق الملوك ، يسمون عيوبه فضائل ليبرروا شهواته ، فتعصبه فى نظرهم حب للحرية ، وتطرفه ميل للهدوء . وهم يقولون له إنه يثبت النظام العام حين يعامل بقسوة ممثلى السلطة ، ويؤكدون له أن التدخل فى حرية العمل اقامة لتلك الحرية ، وإن اسقاط الرأسماليين يقيم بناء الأخاء ، ويقنعونه بأن سبيله للرفاهية هو القضاء على أصحاب الأعمال ، وان سبيل الوطن للثراء هو إفقار المواطنين .

ومن الملوك من ضاق ذرعا بتملق المتملقين . فقد كان تيبريوس نفسه فى كل مرة يغادر مجلس السناتو لا يستطيع أن يمنع نفسه من القول باليونانية « ياللرجال المخلوقين للعبودية !! » وكان يقصى عنه الشيوخ الذين يتدنون فى تملقهم . ورفض الامبراطور كلوديوس لقب والد السناتو لأنه اعتبر ذلك التملق زائدا عن الحد . ولكن قلما يتأفف الشعب من هذا التملق الريائى المفضوح الموجه اليه بل هو على العكس يخضع لذلك السحر . ويقول ارستوفان « إن الشعب سهل خداعه » خصوصا اذا هاجم الخطباء الأغنياء بقولهم إنهم يتمرغون فى الثروة بينما تنقصنا ضرورات الحياة ، ويملكون القصور بينما لانجد نحن الا كواخ نرتاح فيها .

مسكين هذا الشعب : إنه يحب التملق ولا يرى أن المتملقين انما يعيشون على أكتافه .

وتنحصر وسائل الدعاة وطرق تأثيرهم فى إهاجة العامل ضد صاحب العمل ، وتحريض الجندى ضد قائده ،وإثارة حسد الفقير للغنى ، ووعدالشعب بالمستحيل والمطالبة بمصادرة أملاك الأغنياء . كيف يستطيع الشعب أن يقاوم مثل هذه التحريضات المجرمة خصوصا اذا كان المحرضون (كما حصل مرارا فى فرنسا) يتولون السلطة . فوزير الداخلية فى ٢٨ مارس سنة ١٨٤٨ يقول (أيها العمال فى المدن والورش يجب أن تنتبهوا لآلامكم وحقوقكم ومطالبكم المشروعة . انشروهافى الخارج . . . أيهاالعمال ، اعلنوا آلامكم . . . اعلنوا أن حياتكم كانت حياة عذاب . . . اشرحوا تلك الفظائع للعالم المتألم . . . اذكروا له أن لا خيار لبناتكم الصغيرات الا الانتحار أو الدعارة ، اذكروا أن كباركم كانوا يتركون لمصيرهم اذا ما دهمكم الموت قبلهم وان نساء شوهدن ممددات متقلصات الأطراف على أحجار المقابر التى تضم أبناءهن . ايه شهداء العمل ، انهضوا وتكلموا ، قولوا كيف أن الطعام والدواء الذى كان يصفه لكم أطباؤكم كان وسيلة المضاربة والاختلاس . . . قولوا كيف كان الغش فى كل مكان وكيف كان السم يخلط بفعل المضاربة فى الخبز المر الذى تأكلونه . . . ان الهيئة الاجتماعية مطالبة أمامكم من الآن بفحص جروحكم وتقديم الدواء لكم وهى مدينة لكم بالمحافظة على أرواحكم وعلى صحتكم وعلى

عقولكم وكرامتكم ، انها مدينة لكم بالعمل والطعام وبالتعلم والشرف والهواء والنور . . . انكم على وشك أن تكون لكم يد فى تكوين الهيئة الاجتماعية . أيها العمال ! هذا بناء ستقيمونه للهيئة الاجتماعية بأيديكم فلا تسمحوا بأن يقام لمصلحة القليلين وحدهم على حين تبقى الانسانية فى الخارج ، عارية ، جائعة ، محتقرة ، بائسة »

ألا تفيض بلاغة متملق الشعب بالرياء ، فهى تارة لينة هينة وتارة نارية محرقة . ما أكثر ما فيها من وعود بسوء قصد !! (١)

متى يدرك الشعب أن كل متملق يعيش على حساب من يصغى إليه وأن ألفاظ صديق الشعب ، والجمهورى المخلص فى متناول كل انسان ؟ ان كل شخص يستطيع أن ينسبها لنفسه ولكن أكثر الناس تمسكا بها هم أقلهم استحقاقا لها . فكم من هؤلاء الأصدقاء الصاخبين للشعب يصدقونه الحب ويظهرونه له بشىء أكثر من الكلام ؟ ولكنه يكفى الشخص مع الأسف فى بعض الجهات - وان كان مجهولا - أن يهتف للكومون ، وان يلبس قميصاً ، وأن يسب

---

(١) خطب أحد نواب جوب فرنسا واعلن أنه يجب على الحكومة أن تضمن لكل فلاح يبلغ الخمسين معاشا قدره اربعمائة فرنكا ، فبعد انفضاض الاجتماع تحدث عمدة المدينة الذى كان حاضرا حديثا خاصا مع النائب ولاحظ له أن ماوعد به الفلاحين مستحيل تحقيقه ، فأجاب النائب أنى أعرف ذلك ولكن هذه الوعود تسرهم دائما ولقد كان زعماء مؤامرة بابوف يقولون هم أيضا لانصارهم ، لاتقتصدوا فى الوعود فان التخلص منها ميسور دائما بحسب الاحوال .

القسس الذين يربون أبناء الشعب ، وراهبات الرحمة اللائى يخصصن حياتهن للعناية بالمرضى ، يكفيه هذا ليذاع عنه أنه صديق الشعب وبطل من أبطال الطبقة العاملة ، والمدافع عن الأرامل والايتام وحامل لواء الاصلاح الاجتماعى . ان أدعياء صداقة الشعب هؤلاء هم فى الحقيقة ألد أعدائه . لقد كان واشنجتون يخشى هؤلاء الأصدقاء أكثر مما يخشى الانجليز فهو يقول « إننى أبكى دماً على مستقبل بلادى اذا لم تحل حكمة الشعب الامريكى دون وقوعه فى قبضة أمثال هؤلاء الرجال . إنهم يفسدون كل ما اصلحناه ، إنهم يقيمون حكومة شغب مستمر وجماعات ادعائية تقاوم المؤتمر الوطنى . إنهم حكومة داخل الحكومة ـ وأى حكومة ! حكومة أكثر الأشخاص جرأة وفجراً وفساداً »

ووصف فينلون وظيفة الوسيط فقال « إن أضيق الناس عقولا وأكثرهم فســاداً هم الذين ينبغون فى هــذه المهنة . وهــذه الملاحظة تنطبق على وسطاء الشعب ، فان أكثر الناس جهلا وفسادا ينبغون فى باريس كما فى أثينا فى التأثير على الجمهور !!

ومتملقو الشعب ، الوسطاء ، يسجدون للشمس حين تشرق ويديرون ظهورهم اليها حين تأفل . وكما أن وسطاء الملك سرعان ماينقلبون خداماً للشعب غداة الثورة كذلك يصبح متملقو الشعب

غداة الانقلاب أو عودة الملكية سماسرة للملوك (١) فهم يعاقبة فى أيام الارهاب وأعضاء فى مجلس شيوخ الامبراطورية وأنصار للملكية فى عهدها ، على حين تنظر جميع الأحزاب بريبة إلى الرجال المعتدلين الذين لم يتملقوا الرعاع ولا الملوك.

ويقول مونتسكيو « إن الطمع المصحوب بالكسل ، والانحطاط المصحوب بالكبر ، والرغبة فى الثراء بغير عمل ، وازدراء الصدق ، والتملق والخيانة والغش ونقض العهود واحتقار واجبات المواطنين هى فيما اعتقد أخلاق غالبية الوسطاء » إن هذا الوصف ينطبق على متملقى الشعب كما ينطبق على متملقى الملوك . فالوسطاء يهمسون فى آذان الأمراء الشبان « حرروا أنفسكم من كل وصاية ، وتخلصوا من الاستعباد الذى أنتم فيه ، ولا تطيعوا أحد .... غيرنا » . ويوجه المتملقون إلى الشعب حديثاً مشابها حتى يجعلوه يستريب فى العظماء الذين ينيرون له الطريق ويفترون على أصدقاء الشعب الحقيقيين .

ولكى يتمكن الوسطاء من صغار الأمراء يسعون إلى افسادهم ، كذلك يفعل متملقو الشعب ، فهم ينشرون فى أوساط العمال مطبوعات يسمونها أدبية وهى فى الواقع مفسدة للآداب . يفعلون ذلك لأنهم يدركون أنهم اذا أفسدوا العمال سهل عليهم تلقينهم الآراء الثائرة ، لأن هناك ارتباط وثيق وتأثير متبادل بين

---

(١) يقول أحد مؤرخى العهد أنه عندما قتل أنين مارسيل أخفى أصدقاؤه قبعاتهم الحمراء وبادروا لمقابلة ولى العهد وهتافاتهم أعلى من هتافات الاخرين .

الأعمال والافكار . فالعامل الذى يعيش عيشة مستقيمة ينفر عادة من الآراء المضادة للهيئة الاجتماعية ، أما العامل الفاسد فهو على العكس فريسة سهلة بين أيدى الدعاة . العامل الذى يخلق لنفسه حاجات جمة ويركن الى العمل القليل يكون أميل للقول بأنه يجب اعطاء كل بقدر حاجته ، أما الرجل القانع «العامل» فيدرك بفطرته أن المبدأ الصحيح هو لكل بقدر عمله .

ويتخذ المتملقون ، فى سبيل افساد الشعب ، محاربة الدين قاعدة من قواعد الحكم . فالدين يدعو الى طاعة أولى الأمر واحترامهم ، لذلك يسعى طلاب الثورة الراغبون فى قلب نظام الهيئة الاجتماعية بكل وسائل الدس الى حرمان الشعب من الدين ليسهل عليهم تحريضه على التمرد . (١)

فنواب الشعب الذين يسخرون فى دخيلة انفسهم من كلمات الحرية والصالح العام ، يحركون دائماً تلك الكلمات كأنها الأعلام .

ان حب الحرية وادراك كنهها يفترض احترام الاخرين وحبهم . ومع ذلك فالذين يكثرون من الحديث عن الحرية انما يطلبونها لأنفسهم لا لسواهم ، وتتلخص وجهة نظرهم فى أن الحرية لفظ رنان يحسن النطق به دائماً لا كتساب الشهرة وان فاضت قلوبهم فى نفس الوقت بالاحقاد : حقد للدين وحقد للتفوق الاجتماعى وحقد

---

(١) كان روبسبير أقل تحاملا من ذلك لانه يقول يجب أن ترحب بكل نظام ، وكل مبدأ يدخل السلوان على الناس ويرفع عقولهم ، فيجب على المشرع أن يعتبر حقا كل ماهو مفيد للعالم ، سهل تطبيقه ، وفكرة الله متعالى وخلود النفس تذكرنا دائما بالعدالة فهى لذلك فكرة اجتماعية وجمهورية .

للسلطة وحقد للملكية ، فكيف يتكون حب الحرية من مجموع هذه الاحقاد ؟ وما أقل الذين يحبون الحرية حقا ؟ فهى عند البعض ، الحقد على الأشراف ، وعند البعض الآخر كره الدين والقسس . وكانت الحرية عند بعض اليعاقبة عام ١٧٩٣ حب مصادرة الاملاك لحساب الأمة والحقد على الأشراف والقسس ، وكانت فى ١٨٣٠ عند بعض منتصرى يوليو حب الارض وعند البعض الآخر كره التفوق الاجتماعى . وكما تميل روح الحسد الى الظهور يميل كذلك حب الحرية الى الظهور ، فهذا يحب الحرية لما تجود عليه من تعبيرات بليغة وعواطف مثيرة . وذاك يحبها لأنها وسيلته الوحيدة لنيل السلطان والثروة ، وثالث يقع تحت تأثير تاريخ الثورة ، فيحلم بأن يصبح روبسبير زمانه ورابع يريد أن يكون دانتونا جديدا . ويظن بعض الشبان أنهم يحبون الحرية وما يحبون فى الواقع الا الصخب والتغيير والتمرد . فالخضوع يتعبهم والهدوء يضجرهم ، والسكون يضايقهم ، فلا شىء عندهم أتعب من النظام ولا أسخف من الهدوء التام . إن الهياج هو الحياة وقليل من الشغب يغير مجرى سكون الحياة . فالانسان يشعر بالحياة تدب فيه عندما يكسر بعض زجاج مصابيح الاضاءة فى الطرقات وبعض زجاج المحلات التجارية ، ويكون الشعور أتم اذا استطاع أن يصيب رؤس بعض رجال البوليس . ويخلط كثير من العمال من جانبهم بين الحرية وبين مشاغبات الاجتماعات العامة . وتتصور النفوس القلقة أنها تحب

الحرية لأنها تمج كل سلطان ، وكثيرا ماتحقد على الحكومة لمجرد اتهامها بمخالفات بسيطة للوائح البوليس . وإنك لتجد روح المعارضة للحكومة تشمل الجميع حتى الذين يطلبون رضاء الحكومة . فالمواطن الذى لايحسن ادارة عمله ، أو يجنى محصولا سيئا يفرج عن نفسه بالسخط على الحكومة . والرجل الذى لم تكسبه التجربة ومسئوليات الأسرة رزانة وحكمة يكره النظام ولايشعر بواجب احترام السلطة . لذلك تجد الفوضوية التى تمجد الثورة أنصاراً بين الشبان .

ويفهم السياسيون والأحزاب السياسية عادة أن الحرية هى أن يكون لهم الحق فى عمل مايريدون والزام الآخرين اتباع امرهم . فاذا ساد الحكم الارستقراطى ، فالحرية هى المحافظة على امتيازات الارستقراطيين ، وفى عهد دعاة الشعب يطلق هـــذا الاسم على الاباحة واضطهاد الأقلية للأغلبية . وقد يظن أن الطغيان المحلى يجب أن لا يوجد فى هيئة اجتماعية ديموقراطية ، ولكن الواقع أن الحكومات التى تسمى أنفسها حرة ليس لها من الحرية الا الاسم . وكل ما فى الأمر أن فريقا تولى الارهاق بدلا من فريق آخر .

لايحب أحد أن يقع عليه اضطهاد ولكن كل انسان يود لو استطاع أن يضطهد الآخرين ، وعلى كل فعدد الذين يطلبون الحرية للجميع ضئيل جدا ، وأغلب الناس يطلبون الحرية لأنفسهم ، ولأصدقائهم . وكل الأحزاب تسعى للوصول إلى السلطة لتضطهد خصومها .

وأكثر الناس تضرروا من الاضطهاد فى المعارضة ينسون مبادئهم بمجرد وصولهم إلى الحكم ، وبعد أن كانوا السندان يحبون بدورهم أن يصبحوا المطرقة . وقد تطغى الجماعة كما يطغى الدكتاتور العسكرى فان نقل جميع السلطات من يد الملك إلى أيدى جماعة ليس معناه قيام الحرية بل انتقال الاستبداد من يد إلى أخرى .

وكلما أرادت الأحزاب السياسية أن تضطهد خصومها لجأت إلى القول بأن المجموع فى خطر ـ وأشبعت عند ذلك أحقادها الخاصة بدعوى سلامة الشعب . فما يسمونه الصالح العام هو فى الواقع صالحهم الخاص . وهم يسنون القانون بدعوى سلامة المجموع وما غرضهم الاضمان السلطان لهم ... لأنهم يخلطون بين مصلحتهم الخاصة ومصلحة الهيئة الاجتماعية ، وشتان ما بين الاثنين ، ويكتشفون خطرا أهليا حيث لاخطر الا على أطماعهم .

والسياسيون مقنّعون دائما . يود كل حزب أن يقضى على خصومه ، فيخفى أطماعه وجشعه تحت ستر من الألفاظ الخلابة . ولقد وصف توسديد رياء الأحزاب ـ فقال « إن الذين يشغلون المكان الأول فى كل مدينة ، يصفون السلطة التى اغتصبوها بأحسن الأوصاف ويعلنون تارة أنهم يدافعون عن المساواة السياسية ، التى طالما تمن بها الحكومات الشعبية وتارة عن ارستقراطية عاقلة متزنة . والاحزاب جميعها تنسب الفضل لها دائما فيما وصلت اليه البلاد من تقدم ولا تتردد لحظة فى محاولة اسقاط الحزب الذى يلى

الحكم ، وما خلافاتهم الا وليدة الرغبة فى تولى الحكم ، وهى رغبة منشؤها الطمع والجشع وما اليهما من المبادىء المحفزة لهم . إن الغيرة تحرض الرجال لمهاجمة بعضهم البعض .

وإذا كان من الحكمة أن لانحكم على الناس بمظهرهم فمن الحكمة أيضا أن لانحكم على الأحزاب السياسية بالعنوان الذى تتخذه . فالاشخاص الذين ينحصر همهم فى العودة بالهيئة الاجتماعية إلى الهمجية الأولى يسمون أنفسهم « بالاصلاحيين » وغيرهم ممن يجهلون أنه لاسبيل إلى المحافظة على الهيئة الاجتماعية إلا بالتدرج فى التحسين والتغيير يسمون أنفسهم « بالمحافظين » وإن لم يحافظوا على شىء . وفى لغة الثوريين يسمون الأشخاص الذين لايعملون « العمال » . وكان سفاكو الكومون يسمون الجنود المحاربين دفاعا عن النظام « القتلة » ويمثلون أنفسهم بأنهم ضحايا طغيان الطبقة الوسطى . وكان سفاكو سبتمبر والثوريون الذين يمضون أوقاتهم بين الموبقات يطلقون على أنفسهم « الفضلاء » ، وكان هنريو وشركاؤه الذين يعيشون من السلب والنهب يدعون أنهم إنما يطلبون غنى الأخلاق والفضائل وحب الوطن .

والمتطرفون الذين يهاجمون الوظائف والموظفين هم أول من يطلب إنشاء وظائف عامة ، ليسوا أهلا للقيام بها ، ويحرضون على الموظفين الأكفاء المستقيمين أملا فى أن يحلوا محلهم . فحكومة الديركتوار ، تلك الحكومة الفاسدة المتطرفة ، كانت تتحدث عن

الفضيلة والانسانية والعدالة حتى بعد ١٨ فروكتيدور . ولما سن قانون النفى قال أحد مؤيديه إنه ينطبق على قواعد العدل والانسانية . وألفت النظر إلى أنه لن تراق قطرة من الدماء ، وأن هذا القانون يخلصهم من أعداء الحرية بطريقة إنسانية . إن أصدقاء الحرية ، فى عرف المضطهدين ، هم دائما أعداؤها . والرجال الذين لايحبون أحدا يسمون أنفسهم أصدقاء الشعب ، والذين لايحبون وطنهم ، يدعون أنهم يهيمون بحب الانسانية . ويقول الفوضويون إنهم يفرطون فى الوطن ليزدادوا مقدرة على خدمة الانسانية .

فاذا أراد السياسيون سن قوانين شاذة قالوا عنها إنها مؤقتة ولكن لا تكاد تسن حتى يبدأ السعى لجعلها دائمة . وكثيرا ما تلجأ الأحزاب السياسية لتحريك شبح مؤامرة أو أى خطر موهوم آخر للوصول إلى سن قوانين شاذة ! فهم يستعينون بالخوف للحصول على الاقتراع . فاذا أردت أن تعرف السبب الحقيقى لاصدار أى قانون فلا تبحث عنه فى البيانات الرسمية التى تقال عند عرض ذلك القانون ، لأن الأسباب الظاهرة ليست دائما بالصحيحة . ويقول سانت افريمون فى رواية تمثيلية هزلية أسماها « السيد السياسى » أظهر فيها عيوب الخداع السياسى ، على لسان أحد أشخاص الرواية « لاتقل فى خطاباتك شيئا مما تفكر فيه ولا تصدق مايقال لك الا بنفس النسبة ، فالخطابات والبيانات الرسمية ليست فى غالبها الا مجموعة أكاذيب » . ولكم زور فى الجريدة

الرسمية نفسها ونشرت فيها بيانات مكذوبة عمداً . ويقول السياسيون إن الشعب يجب أن يخدع ، ومن الضرورى أن يدرس الملوك أو وزراؤهم كيف يقودون الشعب ويوجهونه بالكلمات المعسولة ويسخرونه ويخدعونه بالمظاهر . . . وكيف يستعينون بالكتاب الفطاحل الذين يؤلفون المنشورات والتبريرات والبيانات المنمقة ليقودوا الشعب من أنفه ويجعلوه يقر أو لا يقر دون أن يعلم ما الذى يقره وما الذى لا يقره (١) .

وكتب فوريه رسالة يفضح بها محاولات وتدجيل أنصار سان سيمون واون بأنهم ، على حد قوله « العميان يقودون العميان ، فهم إخوان كاذبون كل غرضهم أن يكون لهم أصبع فى الحكم والمال والممتلكات الخاصة » .

ولو أردت أن أظهر تدجيل الأحزاب السياسية جميعها لاحتجت إلى مجلد ضخم لذلك سأكتفى باظهار بعض الملاحظات الوجيزة فى هذا الموضوع الذى لا نهاية له .

ماقيمة اخلاص السياسيين الذين يقرون قوانينا راديكاليه بينما يقولون عن أنفسهم إنهم معتدلون ؟ إن كانوا معتدلين فى شىء ففى الشجاعة والاخلاص . وماذا تقول عن حسن نية أولئك (يقصد المحلفين وأغلبهم تجار) الذين يطلب منهم محاكمة الشيوعيين فلا

---

(١) جبريل توديه . الانقلابات — فصل ٤

يجرأون على التسليم بمبادئهم خشية الازدراء العام ولا على استنكارها خشية فقدان زبائن مربحين ؟ وهل الاشتراكيون مخلصون حين يعلنون أن لاشيء يربطهم بالفوضويين بينما هم يحالفونهم ويحتجون على إجراءات القمع الموجهة اليهم؟ وهل تخاص الصحف الراديكالية والنواب الراديكاليون حين ينسبون إلى البوليس والطبقة الوسطى والقسس إلقاء القنابل ؟ ألا يفعلون ذلك تضليلا لسخط الشعب ؟ وأليس يمكن القول بأن مهاجمة الاشتراكيين للقسس هو مجرد مناورة سياسية ماهرة تنحصر فى لفت نظر الشعب عن الخطر الاشتراكى الذى يجب عليه أن يخشاه وحده ؟ وهلا يقصد الاشتراكيون والراديكاليون تحقير الجمهوريين المعتدلين حين يتهمونهم بأنهم محافظون وأنصار للقسس كلما وجدوا منهم محاربة لدسائسهم الثورية ؟

وهل هم مدفوعون حقا بمحض الشفقة حين يصفون فاقة الشعب ذلك الوصف القاتم الذى يزيدون تأثيره بمغالاتهم فى تصوير سعادة الأغنياء ؟ أليس غرضهم من هذه المقارنة استثارة غضب الشعب ؟ (١)

وهل يمكن القول بأن الأقوال المختلفة التى يوجهها الاشتراكيون للعمال والفلاحين كل منهم بدوره دليل على حسن النية ؟ إنهم

---

(١) ان السياسيين الذين يغالون فى وصف سعادة الأغنياء يزيدون فى حسد الفقراء ويضاعفون آلامهم .

يقولون للفلاحين إنهم سيحمون ويحترمون الملكيات الصغيرة بينما يعدون العمال بحرية التجارة والقضاء على الملكية . أمخاصون هم حقا حين يعدون بالقضاء على الفروقات الاجتماعية وعلى الآلام والفاقة وحين يضمنون الغنى والسعادة للجميع ويعدون بابدال الأرض التي هي وادى الدموع بجنة الخلد ، حيث يصبح الرجال جميعا ملائكة وتصبح القوانين والمحاكم والسجون عديمة الجدوى ؟ أليس ينطبق على هذه الوعود الكاذبة تلك الكلمات التي قالها تاسيتوس «من الألفاظ ماهو خادع وفسيح ، إنها تحمل بين طياتها ظلا من الحرية وتعبِّد الطريق للسقوط فى أسوأ عبودية » .

وهل حقاً إن كل اهتمام أصحاب هذه الوعود ، الذين يعلنون عن أنفسهم ، موجه إلى مصلحة الشعب وحده ؟ أن أكابرهم كثيراً مايدفعون غيرهم أو يكتبون هم أنفسهم مقالات تقريظية لأنفسهم، عاملين بنصائح بيكون ، للذين يريدون أن يصلوا ، بالاعلان عن أنفسهم ، فهو القائل : « إذا أعوزتك الجدارة فتظاهر بها ، تظاهر بالفضل وبالمقدرة وحتى بالغنى ، فالتظاهر كالافتراء يترك دائما أثراً فى العقول . ويضمن احترام الجموع العديدة وان استحققت به احتقار العقلاء . تلك نصيحة يمجها الخلق السليم ولكنها مفيدة جداً فى عالم السياسة » .

أيأملون حقا فى إقامة حكم الاخاء بتحريضهم الطبقات المختلفة

بعضها ضد الآخر ، وفى أن يقودوا الوطن إلى السلام والاتحاد بما يعدون من عناصر حرب أهلية ؟

وهل الدعاة الذين كل همهم اثارة الهياج والاضرابات يحركهم حقا حبهم للشعب ؟ إن المحرضين يبتعدون عن الخطر كلما بدأ الشعب ولا يلقون القنابل بل يكلفون غيرهم بالقائها . إنهم يقلدون أولئك الثوريين الذين كانوا يسببون الفتنة ثم يختفون وينتظرون فى اطمئنان نهاية المعركة .

ويلجأ المهيجون لتحريض الجموع واثارتهم الى عذر مختلق أو صيحة مؤثرة . ففى إبان الثورة كانت الفتن العديدة تقع بين صيحات الخبز والدستور . ولم يكن أولئك الذين يطلبون الخبز فى حاجة اليه . فعند ما هجم على المؤتمر فى بريريال رجال ونساء يطلبون الخبز وجدت جيوب أولهم مملوءة ... بالخبز . وخوف المجاعة الذى طالما اتخذ أساسا لعدد من الثورات كثيرا ما كان مجرد تكأة .

وتنظم المشاغبات دائما بنفس الطريقة : ترسل النساء والأطفال والمتسكعون فى الطليعة وحولهم جموع غفيرة تحاصر المكان المراد مهاجمته أو الجنود المراد الاعتداء عليهم . ولكى يصلوا الى إثارة الجموع بسرعة يجتهد زعماء الحركة الثورية باطلاق بضعة أعيرة نارية ، فاذا قتل الجنود أحد الثائرين دفاعا عن انفسهم كلف زعماء تلك الحركة من يحمل الجثة ويطوف بها الشوارع ويعلن أن

الحكومة تقتل الشعب . وهم يضمون اليهم المجرمين الذين يملأون المــــدن الكبيرة وبالأخص باريس أو الذين يخفون اليها بغية انتهاز فرصة المشاغبات للسلب .

وينتهز المجرمون فرصة المشاغبات ليقتلوا ويسرقوا بدعوى المصلحة العامة . ويقول توديه إنه فى أثناء مذبحة سانت بارتلمى قتل عدد من الكاثوليك ضحية المعمعة . فهناك أناس انتهزوا فرصة الهياج ليقتلوا خصومهم بدعوى الدين . وفى إبان الثورة ارتكبت انتقامات فردية ، لخصومات شخصــــية ، باسم الحرية . وفى أيام الدير كتوار هجر المدن رجال ممن اشتركوا فى الهياج الشعبى ليرتكبوا جرائم جديدة فى الطرق العامة تحت ستر الانتقام ورد الاعتداء .

وفى جنوب فرنسا على الأخص ، كانوا يصبغون جرائمهم بصبغة السياسة . فيقتلون ، بدعوى الانتقام من اليعاقبة ، مشترى الضيعات التى صادرتها الأمة . . . وحاولوا أن يضعوا أيديهم على الأموال العامة وأن يغتصبوها من محصلى الضرائب أنفسهم بدعوى محاربة الحكومة : وكذلك رؤى فى أيام الاضطرابات مدينين يتهمون دائنيهم بخيانة الوطن أو يفتشون منازلهم للبحث عن مستندات مديونيتهم . ووجد مدينون تخلصوا سنة ١٧٩٣ من ديونهم بالتحريض على القبض على دائنيهم ومحاكمتهم بدعوى أنهم أرستقراطيون .

ويلجأ زعماء الثورة لاثارة الشعب أحيانا إلى الاغراء بالنهب

والسلب وتقديمه طعما . وقد لجأ زعماء مؤامرة بابون الى هذه الوسيلة فقد كتبوا إلى أنصارهم « لا ضرورة للخطب والبيانات الطويلة لحمل العساكر على العمل ، ففي الخمر وأمل السلب ما يكفي » . وكأني بهم قد قرأوا قول تاسيتوس : « لا شيء يحرض الجموع على الحروب الأهلية أكثر من الشجار والنهب » . وقد لاحظ أفلاطون أيضا سعى الدعاة ليحتفظوا بسيطرتهم على الشعب بأن يعدوه بتراث الأغنياء . ولكي يدفع ديمولان الجموع للهياج اغراهم بقوله : « إن أربعين ألف منزل وقصر وبيت ريفي أي ثلثي ممتلكات فرنسا ستكون جزاء عزمكم . »

ولم يتنبه الى رياء الشيوعيين بعد . لقد كان ديليكلوز يكذب على الدوام . وفي أثناء حصار باريس كان الرجال الذين ألفوا الكومون فيما بعد يتظاهرون بحقد كبير على البروسيين ولكنهم في الواقع تخلفوا عن محاربتهم . لقد كانوا يعلنون الحرب (إلى النهاية) لمجرد وضع أيديهم على المدافع . والسبب الذي من أجله قتلوا الجنرال كليمان توماس هو أنه اجترأ على فضح ريائهم . ولقد رأينا بعد ذلك أكثر الناس صياحا ضد استبداد الامبراطور يطبقون بأنفسهم أسوأ أنواع الطغيان .

إن زمننا خصب بالرجال الذين يتحدثون عن الحرية ، وهم في المعارضة ، ليسقطوا الحكومة القائمة ، فاذا ماأوصلتهم تدبيراتهم الى السلطة رفضوا أن يمنحوا غيرهم أي نوع من أنواع الحرية .

« إنهم ليسقطوا الحكومة يتكلمون عن الحرية فاذا ما سقطت الحكومة هاجموا الحرية بانفسهم » . فالذين كانوا فى طليعة مهاجمى الطغيان يطغون بدورهم ، والذين كانوا أرفع الناس صوتا فى اظهار اساءة استغلال السلطة يسيئون استغلالها كغيرهم ، بل وأكثر منهم . لقد قال جوته عن رسل الحرية المرائين هؤلاء : « لقد كنت دائما أكره رسل الحرية فان الهدف النهائى الذى يتطلعون اليه هو أن ينالوا حق العمل باستبداد » . أنك لا تستطيع أن تعتقد فى إخلاص الرجل الا اذا رأيته يطبق وهو فى الحكم مبادىء الحرية التى طالما ادعاها وهو فى المعارضة .

الاستغلال السياسى

بينما يأمر الضمير والدين الانسان بأن لا يطمع فيما يملكه غيره وأن يكسب عيشه بعرق جبينه ، يقول له الجشع والرغبة الجنونية فى الملذات والكسل : « إن نهب ممتلكات الغير لذيذ والعيش على حساب الغير رغد » .

كانت الحرب عند الشعوب القديمة وسيلة الثراء على حساب المغلوب . فهل تغير الحال ، بالنسبة للدول الحديثة ؟ يقول سيروس لجنوده : « إن من المسلم به فى كل مكان وزمان أن البلد الذى يحتل أثناء الحرب يصبح بما فيه من رجال وأموال ملكا لفاتحه . »

ويروى آشيل فى الالياذة أنه نهب اثنتا عشرة مدينة ووضع يده فى كل منها على غنائم كبيرة . ولما اختلف مع آجمنون هدده بأنه ينصرف عنه وأن يحمل معه كل الغنائم التى كانت من نصيبه ، « الذهب والبرونز اللامع والحديد البارق والنساء الجميلات اللابسات الحلى » . ويشكو آشيل دائماً من جشع آجمنون فهو ينعته بأنه : « أقل الناس شبعاً ، مدمن على الفجور ، شره فى الكسب » .

ويلومه دائما لأنه « يغمر نفسه بالغنى ويختصها بنصيب الأسد من كل غنيمة » ويقول له : « عند توزيع الغنائم يفوق نصيبك نصيبى بكثير أما أنا فيجب أن أقنع بأن أحمل لمراكبى جزءاً ضئيلا بعد أن أفنى نفسى فى المعركة » .. وهو يقول بجرأة « فهذا الملك العظيم منح الجنود جزءاً صغيراً من الغنيمة ، واحتفظ لنفسه بالنصيب الأوفر ، وأعطى الباقى للملوك وقواد الجيش » .

ولم يكن يقنع الغزاة بتوزيع ثروة المغلوبين بينهم بل كانوا يستولون على نسائهم . فقد أخذ آجمنون كريزيس التى فضلها على كليمنسترا وأخذ آشيل بريزييس ذات الخدين الناعمين الأسيلين . وكان الغزاة لما استولوا على مدينة ، يحرقونها ويذبحون رجالها ويحملون النساء والأطفال وكثيراً ما كانوا يتخذون الرجال عبيداً بدلا من قتلهم (١)

ان جميع الحجج التى أبديت لتبرير الرق لا تخرج عن كونها أعذاراً أريد بها اخفاء الرغبة الوحشية فى تحويل أناس إلى دواب للحمل وحرمانهم من نتاج عملهم . فقد كان المنتصرون يلزمون

(١) كان الرجال الأقدمون يعتبرون استعباد المغلوبين مشروعا لدرجة أن الرومانيين كانوا يعتبرون مواطنيهم الذين أسروا ولم تدفع عنهم الدية عبيداً فاذا عاد الاسرى وجدوا مركزهم الاجتماعى قد هبط . ولما استولى الاسكندر على طيبة هدم المدينة وباع جميع سكانها وكان عددهم ثلاثين ألفاً . وكان المغلوبون فى الشرق يهبط بهم الى أحط مستوى .

المغلوبين الذين استعبدوهم بالصرف عليهم ، وكان الفلاسفة ورجال السياسة الاقدميون يدعون أن من الضروري أن يجد المواطنون بعض الفراغ ليشغلوا أنفسهم بالأعمال العامة وأنه لابد لهم من أن يعهدوا إلى العبيد بمطالب الحياة المادية . ففي اسبرطة ذاتها ، حيث لم يكن للترف وجود كان لكل مواطن عدد من العبيد يخدمونه . (١)

وكان القدماء يزدرون العمل اليدوي . ويقول أحد أشخاص ميناندر إن من المقبول أن ينتصر الناس في الحرب أما فلاحة الأرض فتترك للعبيد .

وأشهر فلاسفة اليونان ، افلاطون وارسطوطاليس واكزينيفون كانوا يزدرون العمل اليدوي أشد ازدراء . ويقول افلاطون « إن الطبيعة لم تخلق الاسكاف أو الحداد فتلك أعمال تحقر الاشخاص الذين يتولونها »

والشاعر هزيود وسولون الحكيم هما وحدهما اللذان امتدحا العمل . وكانت الفلاحة في روما محترمة وحدها : اما ما عداها من المهن الصناعية فحتقر . ويقول شيشيرون إن كل العمال ، مهما

(١) ومن المعروف أنه عند ما بعث الاثوفيريون خمسة آلاف اسبرطي لمساعدة الاثينيين ضد ماردونيوس كان مع كل اسبرطي سبعة عبيد . ومعروف أيضا أن عدد الارقاء في روما كان كبيرا جدا . وزاد عددهم بعد الحرب التي قادها لوكولوس في بنتوس لدرجة أن سعر العبد هبط الى أربعة دراخمات أي ما يساوي ثلاثة عشر قرشا .

كان عملهم ، طبقة دنيئة لاتستحق أن تكون فى عداد المواطنين .
وأولئك القدماء الذين كانوا يخجلون من العمل اليدوى لم يكونوا يخجلون من السلب والنهب بل كانوا يرون من الطبيعى أن يسطو الشعب القوى على ممتلكات الأمة الضعيفة . وكان ساستهم يؤسسون المستعمرات بطرد المغلوبين من أراضيهم واسكان مواطنيهم فيها وتوزيع المساكن والأراضى عليهم . وقد سمع جنرال يونانى يقول - بعد حملة موفقة ضد الفرس - الى من لم يصحبه من مواطنيه إنهم إذا كانوا يعيشون فى الفاقه فالذنب ذنبهم لأنه كان يمكنهم أن يرسلوا مواطنيهم الفقراء معه ويرونهم فى بحبوحة الغنى لأن كل هذه الممتلكات مكافآت تنتظر من يغزوها . ولم يبد افلاطون اعتراضا على السلب والنهب إلا حين ارتكبتها مدينة يونانية ضد مدينة يونانية أخرى .

وكانت الحرب صناعة عدد كبير من الشعوب المتوحشة . يقول تاسيتوس « إنك لن تنجح فى اقناع الرجال بأن زرع الأرض وانتظار المحصول أفضل من مهاجمة الأعداء واحتمال الجروح . بل أنهم ليندفعون إلى القول بأن الحصول بالعمل على ما يمكن الوصول اليه باسالة الدماء دليل على الكسل والجبن » ويبدى تاسيتوس دهشته من عادات هذه الشعوب ومع ذلك فقد أحال الرومانيون الحرب الى أداة للنهب باستيلائهم على أراضى الشعوب التى غلبوها . كانوا يصادرون أراضى البلاد التى يحتلونها فتحا وهم

الذين وضعوا قاعدة المصلحة العامة ، وكانت تلك الأراضى تباع لفائدة الدولة أو تعطى بالايجار لأغراض استعمارية . وكان الرومان ـ بحجة منح البلاد المجـــاورة قوانين ـ يطلبون الثراء بالنهب ، ويغرقون البلاد المحكومة تحت وابل من الضرائب . ويقول . شيشيرون « إن مقاطعاتنا تئن والشعوب الحرة تضج بالشكوى ، والملوك يصخبون ضد جشعنا ومظالمنا ، ولا يوجد مكان مهما كان بعيداً لم تمتد اليه أطماع مواطنينا المجحفة » . ولما غادر ايبوس سيليسيا وجدها شيشيرون خرابا بلقعا « حتى ليظن الرائى أن حيوانا مفترسا اجتازها » . وعين شيشيرون حاكما على هذه المقاطعة المنهوبة فاستطاع ، مع ذلك ، أن يجمع منها فى سنة واحدة مليونين ومائتى الف سيسترس بطريقة مشروعة .

وكانت الغنائم التى تؤخذ من الأعداء فى الأزمنة القديمة ترسل لروما أو يتولى القواد بيعها وتوريد ثمنها للخزينة العامة . وكان على الجندى يوم التحاقه بالجيش أن يقسم بأنه لن يختلس فى اليوم أكثر من شىء قيمته لا تتجاوز قطعة فضية واحدة . ولكن قواد الرومان أخذوا يوزعون جزءا من الغنائم بين جنودهم . فعندما غزا بولوس اميليوس مقدونيا وزع جزءا من الغنائم على جنوده ولكنه لم يشبع جشعهم واعتبر الجيش أن النصيب الذى أعطى له صغيرا فعمل على أن لا يعترف لأميليوس بفضل انتصاره . وفى عهد لوكولوس شاعت عادة النهب هذه . وعندما طارد جيش

لوكولوس متريداتس استطاع هذا الأخير أن يفر بتركه بغلا محملا ذهبا فى طريق مطارديه ، فترك الجنود الرومانيون المطاردة ليستولوا على المال . ولقد كلف لوكولوس بمناسبة حفلات انتصاره من يحمل فى الموكب سجلا يدل على أنه أعطى لكل جندى ٩٥٠ دراخما . وأصبحت الخدمة العسكرية وسيلة للحصول على الثروة بطريق النهب . وكانت الجنود تتذمر كلما رأت القواد تستولى على المدن بالمفاوضة بدلا من القوة . ويقول بلوتارك إن جنود لوكولوس شكوا من قائدهم لأنه فاوض المدن لتسلم له ولم يستول عليها بالقوة ولم يترك لهم فرصة للنهب ، وقارنوا بمرارة بين مصيرهم ومصير جنود بومبي الذين هم الآن قابعون فى منازلهم بين أزواجهم وأولادهم ، يملكون الأراضى ويسكنون بلادا جميلة كالأغنياء المحترمين .

وكان القواد فى السنين الأخيرة للجمهورية يشجعون جشع الجنود ليكسبوا بذلك صيتا وشهرة ، ويجتهدون بما يبذلونه من عطاء فى ضم الجنود لصفهم ، فقد سمح لهم سيلا بأن ينهبوا الافراد والدولة وكان بومبي يوزع النقود عليهم . وأغناهم قيصر فأخضع الغال بجنود الرومان وحكم الرومان بأموال الغال . ولقد كان قيصر كريما على الأخص فى عطائه للجنود الاسبان والالمان الذين عهد اليهم بحراسته . ونجح أغسطس فى تركيز السلطة بين يديه بضمانه تأييد الجنود بهداياه السخية وبما كان يوزعه عليهم من قمح . وعندما

غزا نابليون اللومباردى فى ١٧٩٦، اتبع مثال قيصر وأغسطس فى النداء الذى وجهه لجنوده « أيها الجند إنكم لاتكادون تطعمون أو تكسون .. أتى أقودكم الى أخصب وديان العالم . ستجدون هناك مدنا عظيمة ومقاطعات غنية .ستجدون هناك الشرف والجاه والغنى » . واعتمد خلفاء أغسطس فى الحكم على القضاة الذين انتهى بهم الأمر إلى تصفية الامبراطورية جميعها ، فقد باعوها سنة ١٩٣ قبل الميلاد الى ديديوس جوليانوس بسعر ٦٢٥٠ دراخمه لكل جندى .

ولم يكن الرومان وحدهم الذين ينهبون العالم بدعوى تمدينه . فان أكثر الشعوب عاملت الشعوب الأخرى معاملة الصائد للطير . وكم من الآف الرجال طردوا من بلادهم أو شردوا أو استعبدهم رجال آخرون ؟ فرجال الشمال المعوزون اتجهوا الى الجنوب بحثا وراء بلاد أغنى ، كما اتخذوا الحروب ذريعة لنزع الملكيات واغتصابها . فعندما غزا النرمان انجلترا استولوا على الأرض وعلى سكانها واسموهم « رعايا » أى الذين دخلوا فى رعايتهم . وكان على المغلوبين أن يعملوا لفائدة الغالبين . وجاء كتاب سياسيون يؤكدون أن للغالب حق وضع يده على المغلوبين .

والنظام الاقطاعى ، فى صميمه ، مجرد ترتيب انتصار واستغلال غزو . فالعمال المتصلون بالأرض هم المغلوبون المضطرون لحرث الأرض لمصلحة الغالبين ، والملزمون بدفع الجزية أيضا .

وكما انتهب الرومان العالم القديم انتهب الأسبان والبرتغال العالم الجديد ، وانتهب المغول والأفغان والانجليز من بعدهم الهند ، وانتهب الألمان والنمساويون والفرنسيون والأسبان ايطاليا ، وانتهب الانجليز ارلندا وهكذا ، وهكذا . وكم شنت الشعوب الاوروبية الحروب على سكان آسيا وأفريقا وأمريكا ليجبروهم على شراء منتجاتهم ومنسوجاتهم وكحولهم ؟ ان روح الجشع هذه التي تنشرها الشعوب الاوروبية في معاملاتها مع باقي شعوب العالم هي التي عطلت وأحيانا أوقفت نجاح رسل المدنية .

وكان العراك بين انجلترا وارلندا ينتهي دائما بمصادرة الأملاك فقد وزعت الملكة اليصابات مائتي ألف فدان على المستعمرين من مواليد انجلترا . وصادر جيمس الأول خمسمائة الف فدان أخرى وسمح للاسكتلنديين بمشاركة الانجليز فيها . وفي عهد شارل الأول انتزع لورد استرافورد من سكان كونوت وجولواي أراضيهم . وثارت ارلندا سنة ١٦٤١ واشترك أحد القضاة ، السير وليم بارسونز في التحريض على الفتنة وفي اشراك أكبر عدد ممكن فيها لكيما يكثر المذنبون ويكون محصول الاراضي المصادرة بعد الحرب أكثر خصبا . ولما حصرت انجلترا الكاثوليك الارلنديين في احدى المقاطعات الاربعة الارلندية وزعت ممتلكاتهم بين جنود كرومويل والمضاربين الذين أقرضوا الحكومة الانجليزية . وعند عودة الملكية قلق ملاك تلك الاراضي المصادرة

ولكن شارل الثانى أثبتهم فى ممتلكاتهم ، ولم ينل الارلنديون أى عدل بل اختص الملك نفسه بنصيب من الغنيمة .

وطالما طالبت الجيوش بنصيب من غنيمة غزو الشعوب المغلوبة ! فلا الانجليز فى أثناء حرب المائة سنة ولا الألمان والفرنسيون والاسبان أثناء حروب ايطاليا وألمانيا ، ولا جنود لويس الرابع عشر وفردريك الثانى ونابليون وجيوش الحلفاء سنة ١٨١٥ ولا جيوش المانيا سنة ١٨٧٠ قد احترمت الملكيات الخاصة أو العامة !

وأبدت جيوش الجمهورية الأولى شجاعة وبطولة ولكنها لم تظهر أى زهد أو قناعة . ويقول المسيو أرثور شوكيه فى كتابه عن حروب الثورة « أن هوش فى سنة ١٧٩٣ بمعاونة المندوب أشير استولى على كل ما حوته البلاد فارسل المرايا والساعات والمراتب والاثاث والأجراس وكل ماله قيمة وكتب لبوشوت يقول : « هل يراد من عديمى القمصان المساكين أن يعملوا طيلة حياتهم ولا يجنوا فائدة ؟ يجب أن يكسبوا مع الحرية ملابس من الدمقس والحرير ومعاطف الارستقراطيين الواسعة الاكمام . »

وفى سنة ١٨١٤ جاء القوقازيون الى باريس يبيعون فيها ماسرقوه من أهل البلاد ، وفى ١٨١٥ وضعت الجيوش الاجنبية أيديها على عدد كبير من الخزائن العامة وارتكبوا الكثير من حوادث النهب .

ولم تكن الجيوش تقنع فى الايام السالفة بسلب الاجانب بل

كثيرا ما كانت تنهب مواطنيها ، ويقول كومين « إن الرجال المجندين لايقنعون بعيشة راضية وبما ينالونه من الفلاحين وما يقبضونه من أجور ، بل هم بالعكس يعتدون على الضعفاء ويجبرونهم على أن يأتوهم بالخبز والخمور والطيور من أى سبيل . وإذا كان للمضيف زوجة او ابنة جميلة فخير له أن يسهر عليهما . وفى ابان حروب الفانديه نهب كثير من القواد الجمهوريين سكانها . واعترف ليكينيس الذى أوفده المؤتمر فى مهمة بأن الدعوى إلى النهب كانت عامة وأن قوادا كانوا يشجعون جنودهم ليستروا ما اقترفوه فى ذلك الميدان .

ولم تكن الشعوب القديمة تقنع بقولها « ويل للمغلوب » بل كانت تقول أيضاً « ويل لمن تصاب مركبه بعطب » فلقد أنشأوا عدا حق الفتح ، حقا بغيضاً آخر هو حق الاستيلاء على المراكب المعطوبة . وبفضل هذا الحق المزعوم كانت المراكب التى تقذفها الأمواج الى الشاطىء تصادر ويستعبد ملاحوها وركابها . وهذا الاستغلال العجيب الذى ألبسه السياسيون والفقهاء لباس الحق ظل قائما بين الشعوب البحرية التى استفادت من وجود الصخور بشواطئها فأثرت على حساب المراكب المعطوبة كسكان بريطانيا والصقليين واليونان والدنمركيين والبندقيين ،

وحق امتلاك تركة الأجنبى كحق المراكب المعطوبة كلاهما استغلال مفضوح . فقد كانت الخزينة العامة تستولى أيضاً على كل تركة يموت عنها أجنبى .

ولقد تنازعت الأمم ملكية البحر كما تنازعت ملكية الأرض واجتهدت فى أن تنال احتكاراً اضراراً بغيرها من الأمم . فبعد اكتشاف أمريكا طلبت أسبانيا أن تكون لها ملكية مطلقة على الاقيانوس وطلبت البرتغال أن تستقل بتجارة الهند . وحاولت نجلترا أن تأخذ لنفسها سيادة مطلقة فوق البحار من شواطىء بريطانيا العظمى إلى شواطىء الولايات المتحدة . وطالبت فرنسا بحرية البحار وبالمساواة فى الحقوق بين جميع الأمم . واحتاج التسليم بهذه المبادىء الأولية إلى عدة قرون .

ولم يكن النظام الاجتماعى للعهد القديم إلا أحد أنواع الاستغلال . فقد أعفى الأشراف والقسس أنفسهم من كل ضريبة وحطوا عبئها على الطبقة الثالثة . وكانت طبقة الفلاحين على الأخص تئن تحت ضغط الضرائب بينما السياسيون مغتبطون بفقر الفلاحين لاعتقادهم أن فى ذلك ضمان خضوعهم . ويقول ريشيليو فى وصيته السياسية : « لو تحسنت حالة الشعب لصعب اخضاعه » . ولكن فنلون عارض هذه السياسة البغيضة فى كتابه : « نصائح لتكوين ضمير ملك » . وكان النبلاء الرومانيون يبقون أفراد الشعب فى العوز ليضمنوا خضوعهم لهم .

وكانت المصادرة هى الباعث الأكبر للحروب الأهلية . وليست الأحقاد السياسية والمنافسات هى وحدها التى كانت تدفع للاضطهاد بل إن للجشع نصيباً وافراً فيها . فالمضطهدون

يتشوقون لاغتصاب ثروة ضحاياهم تشوقهم لاراقة دمائهم . ولم يكونوا يقتلون دائما من أجل القتل بل فى الغالب بغية السرقة . ويقول بلوتارك وهو يروى اضطهادات سيلا « كانت الرجال تقتل للاستيلاء على أملاكهم وكان يمكن لقاتليهم أن يقولوا « منزل هذا الرجل الفخم هو سبب قتله . وحديقة ذاك الغنى هى سبب حتفه » والكل يعرف ماقاله كوينتوس أوريليوس الذى لم يكن له شأن بالخلافات الحزبية وكان يظن أنه فى مأمن من كل اضطهاد وذهب يوما يستطلع قائمة المضطهدين فادهشه أن وجد نفسه بينهم وقال « إن دارى فى إلبا هى سبب موتى » .

والمهيجون السياسيون عادة فقراء يطلبون الثروة عن طريق قلب النظام القائم وشجاعتهم آتية من أنه ليس لديهم مايخشون ضياعه(١) وهم يزدادون جرأة إذا كانوا غارقين فى الديون ، جشعين فى طلب الملذات والسلطة . فالمترفون المفلسون فى حاجة الى الثورة ليدفعوا ديونهم وليقيموا لأنفسهم ثروة جديدة .

لاأريد أن أقول كما قال نابليون الأول إن المعدة تحكم العالم ـ فالفكرة ايضا تحكم العالم . وللشهوات والمصالح المادية من التأثير على الثورات ما للافكار . ويرجع الخلاف فى الافكار عادة الى الكبرياء والطمع ، عند الزعماء وعند الشعب على السواء ، وهى خلافات تشترك المعدة فيها بنصيب وافر . فبينما يرغب القليل من

(١) يقول تاسيتوس ان فقر سيلا هو أساس جرأته

المتجردين من المطامع الشخصية نجاح الآراء التى يعتنقونها فهناك كثيرون يفوقونهم عددا يرون فى الثورة وسيلة لازدياد نفوذهم وللسيطرة والانتقام والحصول على المال .

ولم يكن النزاع الذى قام فى روما بين الأشراف والشعب بخصوص قوانين الأراضى فى الواقع الا خلافا على الملكية . فقد أصبحت الجمهورية مجرد شركة بين بضع مئات من الأسر اغتصبت ممتلكات الدولة الواسعة ونزلت بالشعب الى حضيض الفاقة .

كان الاشراف يعارضون قوانين الأراضى التى كانت ترمى إلى وضع حد لممتلكاتهم الواسعة ، وانشاء ملكيات صغيرة . وانهارت الجمهورية لأنها أبت الأخذ بالاصلاحات التى اقترحها جراشى بينما قامت الامبراطورية لأنها ضمنت انشاء الملكيات الصغيرة .

ومن أهم أسباب اضطهاد اليهود فى القرون الوسطى كثرة أموالهم . فالملوك والنبلاء الذين كانوا مدينين لهم لجأوا الى اضطهادهم تخلصا من تعهداتهم . وقد أعدم فيليب الجميل ، الملك الذى كان يزيف النقود ، القسس الصليبين ليستولى على ثرواتهم .

ولم يكن الدافع على الاصلاح (البروتستانتيه) هو الشعور الدينى وحده . فقد اعتنق كثير من الأمراء الالمان البروتستانتية لغرض

واحد هو الاستيلاء على أملاك الكنيسة . وكان الدافع الأول لاعتناق ذلك المذهب فى انجلترا هو رغبة هنرى الثامن فى طلاق زوجه والتزوج من غيرها . ولم يختلف الملك مع روما إلا لأن البابا رفض أن يقر ذلك الطلاق . أضف إلى ذلك أن قطع العلائق بين هنرى الثامن والبابا يرجع سبب بعضها إلى رغبة الملك فى الاستيلاء على ثروات الأديرة . وسارع النبلاء إلى تأييد الحركة لينالوا نصيبهم من الغنائم .

ولم تكن قرارات ملوك فرنسا ضد البروتستانت تغفل المصادرة . فلما الغى لويس الرابع عشر قرارنانت قال « إننا نريد ونقصد إلى أن أملاك جميع الذين لا يعودون فى ظرف أربعة أشهر إلى مملكتنا أو إلى بلاد أو أراضى تحت أمرنا ، فتلك الأملاك التى قد تركوها تصادر تنفيذا لأمرنا الصادر فى ٢٠ أغسطس » وأصاب السماسرة جزءاً من الأملاك المصادرة .

وكان جشع السماسرة عظيما إلى حد أن الرئيس سجيه نبّه وزير هنرى الثامن إلى ذلك الخطر ورفض تسجيل الأمر الصادر بانشاء محكمة تفتيش قائلا لأعضاء البرلمان « إنه بمجرد أن يضمن خصومكم أنهم سينالون من الملك الأمر بمصادرة ممتلكاتكم فانه يكفيهم الاطمئنان إلى محكمة تفتيش واحضار شاهدين ليحرقوكم بدعوى الزندقة مهما كان أيمانكم . »

وفى التقرير الذى قدمه نيكر ـ وقت أن كان مديراً عاما

للأموال ـ إلى لويس السادس عشر سنة ١٧٨١ تفاصيل محزنة خاصة بجشع السماسرة والمبالغ الباهظة التى كانت تتكبدها الخزانة العامة من أجلهم . وقد بلغت مرتباتهم ثمانية وعشرين مليونا فى العام . ويقول نيكر « إننى أشك فى أن ملوك أوروبا مجتمعين يدفعون نصف هذه المرتبات » وأصبحت مِنَح العرش هى المورد العام الذى يغترف منه الجميع . كما أصبح الحصول على وظائف كبيرة ، والزواج وتربية الأولاد والخسائر غير المنتظرة والآمال التى لم تتحقق كلها تصلح أعذارا للاغتراف من كرم المليك . وقد يظن أن الخزانة الملكية ليست مكلفة بأن توفق بين مختلف المصالح وأن تزيل المصاعب وتصلح ما يفسده الدهر ـ ومع ذلك فان نظام المرتبات برغم التوسع فيه إلى أقصى حد لم يكف لسد تلك الأطماع وأشباع الجشع . لذلك صارت تكتشف سبلا جديدة ، فى كل يوم ، فاتجه الاهتمام إلى المقاولات والعطاءات الحكومية والتزام المحطات والوظائف الشاغرة من كل نوع وتوريد المأكولات والعقود المختلفة حتى عقود التوريد للمستشفيات ، كل هذه أصبحت ذات قيمة وجديرة باهتمام الأشخاص الذين لم يكن لهم بحكم مكانتهم الاجتماعية أن يتدنوا للاهتمام بها . وقد ذهب السماسرة إلى حد المطالبة بالتزام غابات ادعوا أنها مهجورة . وحين تفاوض كالون فى قرض قدره مائة مليون فرنك وزع ثلاثة أرباع المبلغ على إخوان الملك وأصدقاء الملكة والمقربين والنبلاء الغارقين فى الديون .

وفى أبان الثورة استمر الاستغلال ولكن من الناحية الأخرى . فلم يقنع الطامعون بالغاء الامتيازات وإقامة المساواة بل صادروا ثلث أملاك الوطن وباعوها على أنها أملاك عامــــة . وفى سبيل اكتساب الأنصار وزع زعماء الثورة أملاكا أو باعوها بثمن بخس . وبذلك ضمنوا تأييد من اشتروا تلك الأملاك وأصبحت مصلحتهم فى نجاح النظام الجديد ، وانقلبوا أعـــداء للملاك المنزوعة ملكيتهم . وسن قانون فى ٩ يوليو سنة ١٧٩٢ يقضى بمصادرة جميع أملاك المهاجرين ، كما فرضت ضرائب باهظة على آباء وأمهات المهاجرين . واعتبر من المهاجرين جميع الأشخاص الذين لم يغادروا فى خلال أربعة وعشرين ساعة ليون ومارسيليا وسكان جميع المدن التى جندت الجيوش ضد الدستور . كذلك اعتبر من المهاجرين القسس الذين رفضوا الخضوع للدستور ، وألزم آباؤهم بضرائب كالتى الزم بها آباء المهاجرين . وأصدر المؤتمر فى ١١ سبتمبر سنة ١٧٩٣ قانونا ببيع أملاك المهاجرين على وجه السرعـــة وبعقاب النظار الذين يرفضون لأى سبب بيع تلك الممتلكات وغيرها من الأملاك الاهلية فى خلال الاربعة عشر يوما المخصصة لقبول العطاءات بالأشغال الشاقة عشر سنوات .

وفى ١٩ مارس سنة ١٧٩٣ صودرت أملاك المحكوم عليهم لجرائم ضد الثورة ، وفى ٣١ أغسطس صودرت أملاك جميع الاشخاص الذين اعتبروا خارجين على القانون . وكذلك صودرت

أمـــلاك الذين تركوا على واجهات أملاكهم اية إشارة الى النظام الملكى القديم . ولما كانت المصادرة معلقة على صدور حكم بالادانة فقد كان بعض آباء الأسر يقدمون على الانتحار ليتركوا ممتلكاتهم لأولادهم . فلملافاة هذا الخطر أصدر المؤتمر قانون ٢٩ بروميرمن السنة الثانية الذى يجعل للمصادرة أثرا رجعيا من تاريخ الاتهام .

وقرر المؤتمر (المادة ٧٣ من د كريتو ٢٨ مارس سنة ١٧٩٣) منح عشر الأملاك المصادرة لكل مواطن يرشد عن أملاك لمهاجر لم تصادر أو هربها أصحابها . وهكذا تكررت الاجراءات البغيضة التى كان يلجأ اليها أباطرة الرومان بسماحهم للمرشدين بأن يثروا بل ويشغلوا مراكز محترمة . ولقد تحدث تاسيتوس عن المرشدين الذين كانوا يشجعون بمكافآت بغيضة كأعمالهم نفسها ، فيقتسمون الغنائم ، ويعين البعض منهم قضاة والبعض الآخر قناصل وحكاما للمقاطعات أو فى وظائف أخرى ذات نفوذ فى الداخل وهكذا يغتصبون كل مايصادفونه فى طريقهم . ولقد قبض المرشدان المهمان ضد تراسياس وسورانوس مكافأة قدرها خمسة ملايين سيسترسا ، وقبض شريك لهما مليونا ومائتى الف سيسترسا ومنح وظائف شرفية .

ويقول تين : « مهما كانت الألفاظ الرنانة من أمثال الحرية والمساوة والأخاء التى تعلن الثورة بها عن نفسها فهى لاتخرج فى

حقيقتها عن أنها مسألة انتقال ملكية » . وعندى ان في هذا التأكيد شيء من المغالاة ، لأن حب المساواة والحقد على الامتيازات والرغبة فى الحصول على حرية العقيدة وحرية الضمير من البواعث الأولى على الثورة . ولكن الثورة الفرنسية مع ذلك كغيرها من الثورات قد طبعت بطابع انتقال الملكية .

فالمصادرات التى أقدمت عليها الدولة تحولت جميعها الى مصالح للافراد الذين اشتروا تلك الأملاك دون قيمتها الحقيقية بكثير . وكان الثوار يعتقدون على كل حال أن الغرض من الثورة هو افقار الغنى واثراء الفقير . وكانت لجان الثورة فى بوردو وليون ومارسيليا تسلب الأغنياء وتبيع ممتلكاتهم وتنهب مساكنهم ولا تبقى على كرارات الخمور (١) ، بدعوى البحث عن اسلحة النبلاء . وتعلن أن الكماليات التى يملكها كل شخص من حق عديمى القمصان وأن كل ما يحتفظ به زيادة عن الضرورى المحض هو سرقة ترتكب ضد الأمة .

ويتحمل دانتون مسئولية الأمر الذى يبيح تفتيش المساكن وهو الامر الذى سهل لعديمى القمصان اختلاس أثاث ومجوهرات وخمور الارستقراطيين . ووضع كومون باريس يده على أثاث الكنائس والمهاجرين ، بل ومتعلقات المساجين الذين قتلوا فى مجزرة سبتمبر حتى لقد اختار كل عضو من أعضاء لجنة الرقابة لنفسه

---

(١) ميشيلة :- تاريخ الثورة الفرنسية المجلد ٦ ص ١٢٨

ساعة . واشتكى احد القتلة المسئوول عن اشنع السرقات فى ٣١ مايو من قلة الغنائم فى ذلك الحادث لأنه فى مثل ذلك اليوم كان يجب أن يخصه خمسين منزلا على الاقل !!

وكانت أمثال هذه السرقات تتبع دائما الحروب الاهلية . ففى أيام النزاع بين الارمنياك والبرجانديين عندما استسلمت باريس الى الاخــــيرين اشترك النبلاء البرجانديون العظماء مع الدهماء ليحصلوا على نصيبهم من الغنائم . ويقول برانتوم إن كثيرا من أصدقائه ، الطيبى العنصر ، اضافوا الى ثرواتهم بعد مذبحة السانت بارتلمى عشرات الآلاف من الكورونات .

ويمكن بحق أن يطبق على المضطهدين كلمات التوراة : إنهم يطمعون فى الأطيان ويأخذونها وفى البيوت ويستولون عليها ويضطهدون الرجل وبيته بل الرجل وتركته . ويرتكن المهيجون على حجج واهية ليثيروا الشعب وماغرضهم الصحيح عادة الا ارضاء شهواتهم .

وهذا الملخص للاستغلال السياسى يكون ناقصا لولم اذكر شيئا عن الاستغلال الذى ارتكبه سماسرة الامس ويرتكبه سياسيو اليوم بالاشتراك مع رجال المال . لقد الفتُ النظر فى الفصل السابق الخاص بالرياء السياسى الى مواطن الشبه العديدة بين متملق الملوك ومتملق الجموع . وبقى على ان اثبت أن جشع هؤلاء لايقل فى شىء عن جشع أولئك . وقد وضع فنلون فى كتابه عن واجبات

الملك فى الفصل المخصص لامتحان الضمير هذا السؤال : « ألم تتسامح مع السماسرة الذين عرضوا عليك ، حين كانوا يطلبون تحقيق مطامعهم ، سمسرة بدعوى توفير المال لك ؟ » إن السماسرة مغرمون بدفع السمسرة والسياسيون يشعرون بميل الى قبولها ايضا . فالذين يفلحون الارض يضطرون ، ليسدوا رمقهم ، أن يزرعوا ويبذروا ويجمعوا ويدرسوا القمح ويحملوه الى المطاحن . أما السياسيون فشأنهم شأن السماسرة ، لازرع ولا بذر ولا حصد ولا جمع ، لان السياسة تقوم بأودهم . ويطرق العمال الحديد ليل نهار ، ينشرون الخشب ويذيبون الرصاص ويحفرون الارض ويقيمون البناء مخاطرين بأرواحهم ويغزلون وينسجون . أما السياسيون فهم كالسماسرة لايشتغلون الحديد ولاالخشب ، وإنما يعجنون الدوائر الانتخابية عجن الدقيق ، وبدلا من أن يضيفوا اليها الخميرة يخمرونها بالحروب الاهليـــة والسفسطة والوعود الكاذبة والافتراء والنظريات الضارة . انهم لا يغزلون ولاينسجون وهم مع ذلك احسن رداء وطعاما وسكنى من الذين يعملون .

ويرقب السياسيون الوظائف التى تخلو والالتزامات والاحتكارات بعيون يقظة كالسماسرة . فاذا قورنت ثروة السياسيين قبل حصولهم على الوظائف وبعده لوجد أنهم دخلوها فقراء وتركوها أغنياء . الا يصح أن يوجه اليهم السؤال الذى وجهه شيشرون الى انطونيو : « ماهى المعجزة التى جعلتك أنت المدين بأربعة

ملايين سيسترسا فى شهر مارس تصبح ولادين عليك فى ابريل؟»

ولقد رؤى سياسيون فى جميع العهود يحالفون رجالا مريبين. وهكذا نبتت عصابة اللصوص المتمدينين الذين يلجأون الى الدهاء ، يغشون الدولة ويسرقون الجمهور . ففى خلال ثمانية عشر شهرا السالفة على مارس سنة ١٨٦٦ طلب القضاء (الذى أظهر تشددا محمودا) من أربعين شركة أن تقدم الحساب عن ثمانين مليونا بددتها فى مضاربات مجرمة . ومبلغ الثمانين مليونا هذا الذى اختلس من الجمهور لم يعد شيئا يذكر بجانب أعمال النصب الهائلة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة ، فلقد نجحت شركة واحدة بفضل ممالأة بعض السياسيين والاعتماد على بيانات كاذبة عن الوقت اللازم للانشاء ومجموع المصاريف والأرباح المنتظرة ، من أن تجمع مليارا وثلثمائة الف مليون ابتلعت ثلاثة ارباعها . ويقول المسيو ليون ساى إن أزمة ١٨٨٢ المالية كلفت فرنسا عدة مليارات أى مايساوى مااستولت عليه المانيا عقب حرب السبعين . كما فقدت فرنسا أكثر من مليار فى القروض التى قدمت لأرجواى والبرازيل والبرتغال وأسبانيا واليونان .

وهذا التحالف بين الساسة ورجال المال ، ذلك التحالف القائم الآن فى أوربا كما فى أمريكا وفى فرنسا كما فى إيطاليا وانجلترا كان موجودا أيضا فى روما وفلورنسا وفى العهود الملكية الفرنسية . كان القناصل والقضاة والأشراف الرومانيون يشتركون فى عمليات مالية واسعة . وكان الرجال الذين يلتزمون بالضرائب يدفعون

لهم فوائد كبيرة ليكسبوا تأييدهم. فكان اتيكوس مهتما بأعمال الذين يستغلون سيليسيا، كما كان لشيشيرون نفسه علاقة عمل بملتزمي الضرائب واشترك في مضاربات مالية وكسب مبالغ باهظة. ففي السنة التي عين فيها عرافا كان يشكو الفقر في فبراير وأصبح ثريا في أكتوبر.

وكان الحكام الذين ينهبون المقاطعات على تفاهم خفي مع ملتزمي الضرائب، يتقاسمون معهم الغنائم. وكان لملتزمي الضرائب هؤلاء نفوذ عظيم. فلما أراد حكام من أمثال لوكولوس أن يضعوا حدا لاستغلالهم ذهبوا بشكواهم إلى روما واستطاعوا أن يفحموا خصومهم بخطباء مأجورين لهم، وكان ذلك عليهم هينا لأنهم كانوا دائما يسيطرون على الذين يتولون الاعمال المالية في روما، ولطالما نجحوا في استدعاء الحكام الذين عارضوا وسائل تدليسهم. على أنهم كانوا في العادة على وفاق مع الحكام. فقد كان فيريس مثلا يعمل كل ما في وسعه لارضاء جمعية التزام الضرائب الجركية ورسوم الرعي وأصدر كل الأوامر التي طلبها منه كاربيناتيوس وكيل الشركة. وكانت الشركة في مقابل تلك الخدمات تعدم كل الشكاوى التي كان يقدمها موظفو فيريس مثبتة لاختلاساته وتدليسه على حساب الجرك. واستطاع شيشيرون بالرجوع الى صور تلك الخطابات أن يعثر على دفعات تشغل أشهرا كاملة قيدت لحساب فيريس دون مقابل كما عثر بالبحث

فى دفاتر الشركة وبالطريقة عينها على أنه كانت لفيريس معاملة مالية مع الشركة باسم منتحل : كايوس فيراتيوس .

واثبات الرشوة على السياسيين من أشق الأمور . ذلك أن المتهم لايوقع سندا بل تسلم المبالغ إلى يده مباشرة أو عن طريق الوسطاء ، أو رجال من القش أو كتاب السر ، فيستطيع فى تلك الحالة أن يدفع الاتهام عن نفسه بقوله : إننى شخصيا لم أستلم شيئا(١)

وكان هذا هو نظام دفاع فيريس حين اتهم باختلاس أربعين مليون سيسترسا . ولقد هدم شيشيرون هذا الدفاع بأن سلم بأن قطعة واحدة من النقود لم تدفع ليد فيريس ولكنه أضاف « لقد كان مأموروك وكتابك هم يداك . . . . فكل ماقبضه كل واحد منهم لم يصل إليك فحسب بل وضع فى جيبك - تلك هى الحقيقة ولا حقيقة سواها ياحضرات القضاة . وإلا ، لو قبلتم هذا الدفاع وقلتم إن فيريس لم يقبض شيئا بنفسه ، لقضيتم على كل محاكمة للرشوة

---

(١) ويشيرلويس الرابع عشر فى النصائح التى تركها لابنه الى أن استعمال الوسطاء إحدى الوسائل التى يلجأ اليها وزراء مرتشون ليثروا وهو يقول إنه يندر أن يوجد منهم من لديه الجرأة الكافية لسرقة مخدومه صراحة أو من يمد يده إلى الأموال المعهود اليه ادارتها لأنه لو فعل لوقع فى جريمة من السهل اثباتها عليه . أما طريقة الاختلاس التى يستسهلونها ويرون الخلاص منها ميسورا فهى أن يأخذوا باسم غيرهم مايريدون الاحتفاظ به لانفسهم . ووسائل الخداع التى يلجأون اليها لتحقيق ذلك كثيرة ، فلن أحاول شرحها تفصيلا ، ويكفينى أن أقول إنهم دائما يضيفون الى المبالغ التى يودون اخفاءها .

فلن يؤتى لكم بمتهم او مجرم لايستطيع أن يتبع هذا الدفاع » .

ونرى فى هذه الأيام كما فى أيام روما سياسيين يضعون نفوذهم فى خدمة شركات مالية مريبة . فالشركات التى تعين سياسيين أعضاء فى مجالس إداراتها لاتفعل ذلك لتستفيد بمهارتهم فى الأعمال ولكن لتستغل عند الاقتضاء نفوذهم ولتبث الثقة عند حملة الأسهم .

ولقد أصبحت الصحافة بين أيدى الساسة ورجال المال احدى أدوات الاستغلال . فالشركات المالية الكبرى لاتقنع بشراء الاعلان الذى تستطيع الجرائد أن تقدمه لها بل هى تدفع أجورا للجرائد لتشيد باعمالها ولتدخل الغفلة على الجمهور ، بل منها ماتدفع للصحف مبالغ ثابتة فى أوقات معينة .

وقد اعترف شارل دى ليسبس أنه صرف مائة مليون من الفرنكات فى الاعلان ومصاريف أخرى . وكانت المقالات التى كتبت فى مدح شركة بناما من تحرير مديرى الشركة أنفسهم .

وعند مايراد إصدار أسهم يضع مجلس الادارة تحت تصرف المديرين مبلغا من المال لاكتساب تأييد الصحف أو على الأقل حيادها ، بحيث يمكن القول بحق عن الصحافيين إن كلامهم من فضة وسكوتهم من ذهب . وإذا كان صاحب الجريدة من رجال السياسة فان الصحيفة تقبض من المال مايزيد بكثير عما كانت تقبضه فى حالة أخرى . ولا يكاد يعلن عن مشروع مالى حتى يتقدم الصحافيون بطلب المال وبالتهديد بعدائهم إن لم ينالوه . والرجال

الذين يسمون أنفسهم أصدقاء الشعب لا يتأخرون عن كتابة مقالات للصحف يغشون بها الشعب ويساعدون على نشله .

ولقد رؤى نواب وشيوخ ووزراء يبيعون أصواتهم لشركات مالية ويلجأون إلى أكثر الوسائل خداعا ليضمنوا أن يُشترى نفوذهم . وإذا عرض عليهم مرة مشروع يهم إحدى الشركات الكبرى فهم لا يرفضونه بل يؤجلون النظر فيه ليجبروا الشركة فى فترة التأجيل على الاتفاق معهم ودفع المبالغ التى يطلبونها . وتسلم المبالغ باليد أو بطريق وسطاء أو على شكل فوائد فى سنديكات ضمان . وهى سنديكات وهمية ووسيلة لمكافأة اتفاق محرم لأن أعضاء السنديكات لا يتعرضون لأى خطر . ولقد دفع أحد رجال المال سبعة ملايين من الفرنكات دفعة واحدة ليشترى النفوذ البرلمانى الذى كانت شركته فى حاجة إليه . ومن المعروف أن أحد وزراء الأشغال قال لاحدى الشركات التى طلبت الترخيص لها باصدار سندات ذات يانصيب إنه لن يقدم الطلب إلا إذا دفعت الشركة مليونا من الفرنكات . وقد قبض دفعة أولى قدرها ٣٧٥٠٠٠ من الفرنكات يوم قدم القانون الى البرلمان ، ولم يمنعه من قبض الباقى إلا اضطراره لسحب القانون من المجلس ازاء روح العداء التى قوبل بها .

ولقد افلست آلاف الأسر بسبب أعمال النصب الكبرى التى ارتكبها رجال المال والسياسة .

وبالرغم من الثروات المكتسبة بسرعة فاضحة فى مضارباته

على الأسهم ودسائس ومعاملات سياسية ، فقد تقدمت الشركات في هذه الأيام تقدما عظيما إذا قورنت بالعهود القديمة وأنظمة الحكم السابقة التي كان سداها ولحمتها الاستغلال . ولقد اختفى الرق وعبودية الأرض من العالم المتمدن ولم نعد نرى مجموعة من المواطنين يضطهدون العديد من العبيد ، ولا عددا صغيرا من الناس يعيشون عالة على جهود الأكثرية . وألغيت كذلك الامتيازات وأصبح الكل سواء أمام القانون ولم يعد هناك رجال يحملون الآخرين الضرائب ويجمعون لأنفسهم النفوذ والجاه . فقد قضت الثورة الفرنسية على هذه الفروقات الاجتماعية الظالمة . فاذا كان علينا أن نذكر الاخطاء والجرائم التي ارتكبت باسم الثورة ، فيجب أن لا نغفل عن ذكر التقدم الاجتماعي العظيم الذي أدت اليه .

ويخدع الاشتراكيون الشعب حين يؤكدون أن كل ما فعلته الثورة هو أنها أحلت امتيازات الطبقة الوسطى محل امتيازات النبلاء ، وأن تلك الطبقة تضطهد الشعب كما كان يضطهدها النبلاء قبل ١٧٨٩ . فليس للطبقة الوسطى امتيازات ، ولا هي طبقة منفصلة ، ولا يمكن مقارنتها بنبلاء العهد الماضي ، ولاهي تسرق أحدا . بل ان أفرادها ، على العكس من ذلك ، يمكنون عددا غفيرا من العمال والموظفين من أن يعيشوا بالأجور والمهايا التي يدفعونها اليهم . والرجال الذين يتهمهم الاشتراكيون بأنهم يميزون

قد جمعوا ثرواتهم بالعمل والتفكير والاقتصاد . فأين تنتهى الطبقة الوسطى وأين يبدأ الشعب ؟ ففى كل يوم يرتفع أناس من الدركات السفلى ويصبحون أعضاء فيما يراد تسميتهم بالطبقات ، بينما أفراد الطبقات الخاملون أو المسرفون يهبطون الى أحط صفوف الهيئة الاجتماعية . أليس صغار التجار ، ومقدمو العمال والصناع الذين يعملون لحساب أنفسهم ، أليس هؤلاء أعضاء فى الطبقة الوسطى ؟ أليس رجل العمل والمقاول والمحامى والطبيب وصاحب المصنع ، أليس هؤلاء من الشعب وهل لهم امتيازات خاصة ؟ إن من الصعب جدا تصور احداث تغيير فى نظام الهيئة الاجتماعية الا إذا أريد اعادة نظام الامتيازات لحساب الطبقة العاملة .

إن المساواة الاجتماعية المطلقة حلم بعيد التحقيق . (١) ومع ذلك ، وبالرغم من أن المساواة الاجتماعية حلم ، فان الرغبة فى رفع المستوى الاجتماعى وتقليـــل الفروق ليست وهما من

(١) أراد المارشال بوجو فى سنة ١٨٤٢ أن ينشىء عدداً من القرى بجوار مدينة الجزائر ، فقسم الارض الى أقسام متساوية ووزعها على جنود الفرقة الثامنة والاربعين ، فلما زار البلاد سنة ١٨٤٥ وجد بعض هؤلاء يملكون ماشية تقدر بخمسة أو ستة آلاف فرنك بينما وجد آخرين لم يستطيعوا الاحتفاظ برأس المال الذى كان قد وزع عليهم . وفعل الاحوال فى هدم المساواة هذا هو الذى جعل روسو لا يتردد فى مطالبة الدولة بان تعيد التسوية كلما لزم الامر ، لان الناس ليسوا متساوين ولانه يستحيل على الكسول وعلى المسرف وعلى الغبي أن يكسب أو يحتفظ بنفس الثروة التى يكسبها المجد المقتصد الذكى . ولقد مد جوبيتر لكل دولة مائدتين فكان النشيطون والمهرة والاقوياء يجلسون على الكراسى الاولى على حين يأكل صغار القوم وضعافهم ما يترك لهم من فتات على المائدة الثانية (لافونتين)

الأوهام . فهى رغبات تحقق تدريجيا بتأثير القوانين الاقتصادية وارتفاع أجور العمال وتخفيض فوائد المال ونشر التعليم وتنمية روح التضامن . فالفروق الكبيرة التى كانت تميز الأغنياء من الفقراء فى الملبس والتربية والعادات آخذة فى النقصان المتوالى(١) وأصبحنا الآن فى زمن من الصعب على الفرد أن يعيش فيه من غير أن يعمل .

ولا تزال هناك مظالم يتحمل مسئوليتها بعض الأفراد ، وهى الاستغلالات المنطبقة على قانون العقوبات . أما ظلم النظام الاجتماعى نفسه فقد أصبح فى عداد التاريخ ، كما أصبح من الممكن ، إذا طبقت العدالة بدقة ، القضاء على اختلاسات رجال المال والسياسة المريبين .

ولا مرية فى أنه لا يزال هناك الكثير مما يجب عمله لتحسين حال الفقراء ، ولكن من الممكن أن تتم جميع هذه التحسينات بغير عنف . فالثورة الجديدة التى يطلبها الاشتراكيون إنما تكون استغلالا جديدا وشراً جديدا .

(١) يحصل المزارعون فى جنوب فرنسا على ملكية الاراضى بطبيعة الامور لان الذين يزرعون الاراضى بأنفسهم هم وحدهم الذين تغل أراضيهم ربحا ، وهؤلاء المزارعون يملكون ثروات تفوق بكثير ثروات أفراد الطبقة المتوسطة . سألت احدهم مره لماذا يرفض شراء أرض يعرضها أصحابها — وهم من الطبقة المتوسطة — فى حالة اضطرارية فقال « إن عندنا من الاراضى اكثر مما نستطيع زرعه »

الفساد بين السياسيين

الفساد السياسى فى روما

يقول لورد بروجام « إن القناعة والنزاهة وحب الصالح العام والايثار هى فضائل يجهلها رجال القصور تنبت من تلقاء نفسها فى الحقول الديمقراطية (١)

(١) لورد بروجام (الديمقراطية والحكومات المشتركة ص ١٤٣) تبدو هذه الفقرة من كتاب لورد بروجام كانها مقتبسة من كتاب سدنى عن الحكومة فان الفصل التاسع عشر منه متبوع بهذا التلخيص « ان الفساد والرشوة الموجودين بكثرة فى قصور الملوك والامراء ودولهم قل ان يوجدا فى الجمهوريات والحكومات التمثيلية ، وأراد منتسكيو أن يثبت أن الفضيلة ليست المحرك الاول للحكومات الملكية فاستشهد بفقرة من وصية ريشليو السياسية : « اذا وجد بين أفراد الشعب رجل شريف عاثر الحظ فان الكردينال ريشليو يشير على الملك فى وصيته بان لا يستعمله لان الفضيلة ليست بحال من الاحوال المحرك الاول لهذا النوع من الحكومات »

وعبر روبسبير عن نفس الرأى حين قال « انكم تعرفون الكلمة البليغة التى قالها ريشليو فى وصيته السياسية فهو يشير على الملوك بأن لا يستعملوا النزيهين لان خدماتهم لا تنتج » (التقرير الذى كتبه باسم لجنة الخلاص العام عن العلاقة بين

ان الفضائل لا تنبت من تلقاء نفسها أبدا بل الرذائل وحدها هى التى تنبت كالحشائش بدون جهد اما الفضائل فكالنبات المفيد لابد من زرعها اذا أريد أن تنبت فى أرض ديموقراطية . والفساد مشاهد فى كل اشكال الحكومات . فنواب الشعب معرضون له كاعضاء السناتو الذين ظهر فى السنوات الأخيرة لعهد الجمهورية الرومانية انهم لم يكونوا اقل تهافتا على مال جوجورتا من تهافت افراد الشعب : فقد بدأ ملك نوميديا يمنح العطايا لكل صاحب نفوذ فى السناتو (١) فما كادت رسله تظهر ما لديها من مال حتى سحرت ضخامة المبالغ المعروضة أعضاء السناتو وسال لها لعابهم . ولم يهمل جوجورتا

الدين والاخلاق والمبادىء الجمهورية) ولقد أخطأ كل من منتسكيو وروبسبير فهم تلك الفقرة من وصية ريشليو السياسية . انه يقول مشيراً إلى القضاة « إن هؤلاء الموظفين ينتخبون من أغنى أبناء الدولة وأنبههم ، فاذا أحسن تنظيم الجمهوريات فان الاغنياء يفضلون الفقراء اذ المفروض فيهم انهم أكثر فضلا وادراكا ، فهم لذلك أقل تعرضا لارتكاب الدنايا التى قد تدفع اليها الحاجة ونقص التربية ويعتقد ريشليو أن الموظف الفقير يجد صعوبة أكثر من الغنى فى أن يحتفظ بامانته وهو لذلك ينصح الملك باختيار القضاة من الاغنياء لانه يعتبرهم أقرب الى الاحتفاظ بالامانة والاستقلال . وقد قال بعض ساسة الازمنة القديمة بهذا الرأى واتخذوه قاعدة من قواعد الحكم حتى فى الحكومات غير الملكية . وكان القرطاجنيون يعتقدون أنه من الصعب على المواطن الفقير أن يترك عمله ويتفرغ بامانة واخلاص لخدمته مصالح الدولة (ارسطوطاليس)

(١) سالوست . ويقول ارسطوطاليس ان رجالا شاغلين لوظائف القضاء كانوا يقبلون الرشوة ويضحون بمصلحة الدولة لاعتبارات خاصة . وكان نواب سويسرا وهولندا يقبلون مرتبات من لويس الحادى عشر كما كان يقبل منه اشراف انجلترا وبولندا .

تجربة تأثير الذهب فى جميع الضمائر . فلم يكن بابيوس أحد نواب الشعب أكثر تأثرا بالرشوة من كالبورنيوس أوسكورس . بل كان الاشراف والعامة سواء فى التهالك على الرشوة . ولما ترك جوجورتا روما ، مشمئزاً من هذا الجشع ، لم يستطع إلا ان يقول : « يالها من مدينة معروضة للبيع سوف تفنى قريبا إذا وجدت مشتريا . »

ولقد انتقد اريستوفان فى مسرحياته الخالدة فجر الدعاة وجشعهم وجعل جزارا من أشخاص روايته يقول الى كليون : « إنك تشبه الذين يصطادون ثعابين الماء فهم لا يعثرون على شىء طالما كان الماء صافيا ولكنهم لا يكادون يحركون الوحل حتى يجدوا صيدا وفيرا . كذلك أنت لا تستطيع ان تملأ جيوبك الا فى العهود المضطربة » . . ويقول الشعب لكليون : « يالك من لص أهكذا تسرقنى بعد أن غمرتك بالتيجان والهدايا » فيجيب كليون : « لقد سرقت فى سبيل المصلحة العامة » فيقول الشعب : « أعد هذا التاج الى سريعا » فيجيب كليون بقوله : « وداعا أيها التاج . . . سوف يستولى عليك غيرى . . وإنه لن يكون اكثر لصوصية منى ولكنه قد يكون أكثر توفيقا . انى لص فهل تسلم أنت بأنك أيضاً لص ؟ » ولم يجد خصم كليون أى غضاضة فى أن يعترف باللصوصية بل أضاف فضلا عن ذلك « بأنه من نا كثى العهود وانه مادام أكثر الاثنين فجرا فهو أحقهما بالتاج ، لأن السرقة والحنث باليمين هما وسيلة الوصول إلى المراكز

السامية ، ولأن هذه هى مبادئه فقد تنبىء له من الصغر بالمستقبل الباهر لأنه جمع كل مؤهلات الرجل السياسى » .

وقد يظن أن الرجل إذا عهد اليه بعمل من الأعمال العامة فان شعوره بالمسئولية واهتمامه بالصالح العام لابد يرفعانه أخلاقيا إلى المستوى الذى يتطلبه مركزه . ولكنا لسوء الحظ اذا ما درسنا تاريخ كبار السياسيين عن كثب تبين لنا أنهم من حيث الأخلاق فى أحط مكان ، فحياتهم نسيج من التبذل والرذائل تثير الدهشة وتتعارض مع العواطف الرقيقة التى يزينون بها خطبهم . وليس الايثار عادة من فضائل الساسة . ومع ذلك فقد وجد ساسة اكتسبوا شهرة لمجرد أنهم كانوا أمناء . وكان الايثار فترة طويلة أظهر مافى خلق ساسة روما فقد أحضر بولوس إيميليوس الى روما كل كنوز مقدونيا ولم يحتفظ لنفسه بأقل نصيب . وعاد سيبو الافريقى الى روما صفر اليدين بعد أن دمر قرطاجنة . ولكن من عهد سيلا ومابعده أخذ الرجال العموميون ينهبون الجمهورية . ويقول شيشيرون « إن استغلال الجمهورية ليس مخجلا فحسب بل هو جريمة منكرة » . وهى جريمة كتب لها الشيوع .

وكثر الاختلاس لدرجة أن منيوس يقول « لم يعد لهذه الجريمة أهمية لأننا اعتدناها . . ولأن الطمع قد أفسد ضمائر الرجال كأنه الطاعون المعدى » ولقد أظهر كاتو تضرره من عدم معاقبة المختلسين فالذين يسرقون أملاك الأفراد يقضون حياتهم فى السلاسل ،

أما الذين يسرقون الجمهور فيرفلون فى الذهب والحرير . وسن الرومانيون قوانين عديدة للقضاء على الرشوة ولكنها مع ذلك لم تنجح فى استئصال الشر لأن القضاة أنفسهم كانوا يرتشون.

ويقول شيشيرون : « إنه فى خلال خمسين سنة كان معهودا فيها للفرسان الرومان بتوزيع العدالة لم تعلق بأحدهم أقل ريبة فى أنه أخذ مالا ليصدر حكما ، على حين أنه فى خلال العشرة السنوات التى كان القضاء فيها لمجلس الشيوخ كان يستحيل تصور كل الدنايا والأعمال الحقيرة التى صحبت توزيع العدالة .» ويؤكد شيشيرون إنه عندما برىء كلوديوس قبل ثلاثون من قضاته الخمسة والخمسين الرشوة منه . وهو يقول فى خطاب لاتيكوس : « هل تريد أن تعرف كيف صدر حكم البراءة ؟ لقد صدر بفضل فقر القضاة فى المال والشرف . » ولما ثبتت جريمة الاختلاس على الشيخ سبتميوس قدرت الغرامة التى حكم عليه بها على أساس مجموع الرشاوى التى وصلته حين كان قاضيا . ويقول شيشيرون بعد ذلك « وهناك حالة معروفة عن شيخ كان وهو قاض يقبض باحدى يديه نقودا من المتهم ليوزعها على زملائه القضاة الآخرين وباليد الأخرى من المدعى ليدين المتهم . »

وكان الحكام الذين ينهبون المقاطعات يحتفظون بجانب من الغنائم التى يجمعونها بغير حق ليدفعوه الى القضاة الذين قد يطالبون امامهم بالدفاع عن جرائمهم . ويقول فيريس إنه وزع

بهذه الطريقة ما دره عليه حكمه لصقليا خلال ثلاث سنوات وأنه كان يعدنفسه سعيدا لو استطاع أن يحتفظ لنفسه بايراد سنةواحدة ، وانه خصص لقضاته ايراد السنة الثالثة وهو أكبرها وأكثرها . وعند شيشرون ان الافضل للمقاطعات المسلوبة ان لاتشكوساليها وذلك لأنه اذا ضمن الحاكم أن لا يحاكم فانه يقنع بالحصول على ما يكفيه وأولاده بينما وجود المحاكم بالهيئة التى هى بهـــا تجعل الحاكم يطمع فيما يكفيه هو ومن يراقبونه ومحاميه والمدعى العام والقضاة . وما دام الحال كذلك فلاحد لمطالبه من الرعايا ، فان من الميسور اشباع مطامع أكثر الناس جشعا ولكن ليس من السهل جعل تكاليف الدعاوى أكبر مما يمكن جمعه من السلب . ويبدى شيشرون فى كل فرصة تسنح له ، وبمنتهى الشدة فى التعبير ، اشمئزازه من هؤلاء القضاة المرتشين ويقول : « لم تشهد جهنم مثل هؤلاء الجماعة ، من شيوخ ملوثين وفرسان رثى الملابس وخطباء وأمناء خزائن مثقلين بالديون وجيوبهم خاوية من المال . . . ما أمر هؤلاء الرجال وما أفجرهم !! » وهو يذكر ان انطونى عين بهلوانات وموسيقيين قضاة « أى محكمة هذه يا إلهى . فقد يجلس فيها غدا كريدى بل ، وهو الادهى والأمر ، قاض . . . لا يعرف اللاتينية » .

« الفساد السياسى فى أثينا »

وكان الفساد السياسى معروفا فى أثينا حتى فى أزهر عصورها عصر بركليس . وقد اعتاد السياسيون أن يشغلوا أنفسهم بالأعمال

العامة بقصد جمع المال من وظائفهم وانجاح مصالحهم الخاصة. واعتاد الخطيبان استراتوكلس وديموكليدس ان يدفع كل منهما زميله للتقدم لجمع محصولهما الذهبي، وكانا يشيران بذلك في سخرية إلى المنبر الذى كانا يتحدثان منه إلى الشعب. وقد اتهم اسكين وديموستين كل منهما الآخر بالرشوة؛ وثبتت تهمة الاختلاس على ديموستين(١). ويروى المؤرخون اليونانيون عددا من التفاصيل المضحكة عن طمع ساسة ذلك العهد وحبهم للمال. ولقد فتح فيليب المقدونى اليونان بماله بقدر ما فتحها بجنوده. وأراد مرة أن يحتل موقعا صعباً فطلب إلى عدد من عساكره أن يتعرفوا المكان فلما عادوا ووصفوا له مناعته سألهم إن كان يصعب على حمار يحمل ذهبا أن يقترب منه فطالما فتح بفضل الذهب المواقع التى عجز عن فتحها بقوة الجيوش.

ويظهر أن السيبيادس كان المثل الكامل للسياسى الفاجر المخلوق للملذات وجمع المال، جشعاً لا يتورع؛ وخطيباً ساحراً؛ لين الخلق متقلباً، مثّل كل الأدوار، ولبس كل قناع، وبدّل من حديثه بقدر تبدل الأحوال. كان يغير مظهره كلما شاء، بسهولة دونها سهولة الحرباء. وهو لم يعتمد لحصوله على السلطان على مقدرته الخطابية فحسب ولا على صلاته العديدة، ولكنه كسب لنفسه الشهرة

---

(١) ويذكر بلوتارك ان ديموستين أخذ نقودا ثمنا لسكوته وأنه حضر الى المجتمع وقد لف عنقه بالصوف بدعوى أنه يشكو ألما فى الحلق فصاح به أحد أفراد الجمهور: «الاجدر بك أن تقول انك تشكو مرضا فضيا»

بتملقه الشعب وبما عرضه عليهم من ألعاب بما فيها سباق الخيـل . وكانت المبالغ التى يصرفها على خيول السباق مدار حديث الجميع. ولم يقنع بامتلاك الخيول بل كانت له مجازفات غراميـة وكان يترك زوجته للندماء ويستهزىء بالحفلات الدينية ويؤذى الرجال المحترمين بحرية حديثه . وكان محدثا ماهرا لبقا يستهوى الاسماع ، نبغ فى إلقاء النكتة الظريفة . زار بيريكليس ذات مرة فبعث يعتذر له عن عدم استطاعته مقابلته لانه مشغول بفحص طريقة تقديمه الحساب للآثنيين فكان رد السيبيادس « أليس الأفضل له أن يحاول عدم تقديم حسابات مطلقا ؟ » وكان موته جديراً بحياته فقد مات مقتولا فى بيت أحد الندماء وخلفّ ابنتـــه التى أصبحت فيما بعد لاييس الشهيرة .

وكان ساسة ذلك العهد يحتفظون بشهرتهم بما يمنحونه للشعب من هدايا . وكانوا يرتشون ويرشون الآخرين . وحتى بريكليس ، بما اقترحه من أجور للذين يحضرون المناقشات العامة والالعاب العامة والأعياد ، قد أدخل الرشـوة ضمن عادات الآثنيين ، وبذلك انقلبت الديموقراطية إلى حكومة أدعياء وطلاب منافع (١) . وكان الشعب يقصى المواطنين المخلصين عن الوظائف العامة ويحتفظ بها لطلاب المنافع الذين يتملقونه ويوزعون عليه العطايا .

---

(١) ارسطوطاليس . وفى عهد اكسينوفون كان يقال عادة انه يمكن عمل كل شىء فى أثينا بالمـال .

ولقد رسم ارستوفان صورة صادقة لمتملق الشعب تستحق أن نذكرها بنصها فحين كان الجزار الذى أتم دراسته السياسية بين المطاهى والمجازر ينافس كليون للحصول على ثقة الشعب بدأ يبتهل لآلهة المترفين الادعياء ، آلهة البسطاء الخائنين السفهاء ويقول لهم « جودوا على بالجرأة التى لاحد لها وبالقدرة على الحديث وعلى البذاءة » ... ويردعليه كليون : «هلمى يا أكاذيبى العزيزة إلى نجدتى وتأييد مطالبى » . الجزار : «سأجرك أمام الشعب وأفوقك افتراء » كليون : « إنك تهذى ، فالشعب لايثق بك بينما أنا ألعب به كما أريد» الجزار : « فالشعب اذاً طوع أمرك ، تفعل به ماتشاء » ؟ . كليون : « نعم والسبب اننى أعرف الكلمات التى تعجبه ، اجل ، انك لن تفوقنى فى التملق الدنىء » . وهذه القذيفة الأخيرة تذكرنا بما قاله وزير سمسار : « ليفعل أعدائى مايشاءون فلن يهزمونى فانى ، ولله الحمد ، لا يوجد من يبزنى فى خضوعى وعبوديتى للبلاط . »

« الفساد السياسى فى انجلترا »

ولقد مرت انجلترا بعهود فساد ، وانك لتجد أدق التفاصيل عن حب عظماء الانجليز للمال فى عهد الملك ادوارد فى مذكرات كومنس . وكان لويس الحادى عشر يدفع نحو ستة عشر ألف مرتب للوزراء والعظماء والسماسرة . فاللورد هاستنجس ، كبير الامناء ، باع نفسه لملك فرنسا كما فعل كثيرون غيره . وابدى اللورد صعوبات جمة ليقبل مرتبا من الملك لانه كان إذ ذاك يقبض مرتبا

قدره ألف كورون من دوق بورجاندى ولكنه خضع لتأثير كومنس عليه ، فقبل المرتب المضاعف الذى عرضه عليه لويس الحادى عشر . وكان لويس الحادى عشر قد أمر رسوله بيير كلاريه بأن يدفع للورد الفى كورون ويطلب سندا بها « ليثبت فى المستقبل ويعرف ، كيف أن كبير الأمناء ومستشار الملك والاميرال وكبير الياوران وكثيرين غيرهم من عظماء انجلترا كانوا يأخذون مرتبات من ملك فرنسا » . وقابل بيير كلاريه كبير الأمناء مقابلة خاصة ، وبعد أن ذكر له مايريده الملك سلمه الألفى كورون ذهبا - لأن المال لم يكن يدفع لعظماء الاجانب فى أى شكل آخر - وطلب رسول لويس الحادى عشر سندا من لورد هاستنجس أو على الاقل كلمة قصيرة لكى لايتهمه سيده بأنه احتفظ بالمال لنفسه ، ولكن كبير الامناء أجابه : « إن هذه الهدية يرسلها إلىّ الملك سيدك ، بمحض اختياره وبغير طلب منى ، فاذا أردتنى أن أقبلها فضعها هنا ولن يكون بيننا سند أو شهود ، فلا أريد أن يأتى يوم يقال فيه ، بغلطتى ، إن كبير ياوران انجلترا كان يأخذ راتبا من ملك فرنسا ، ولا ان يعثر على سندات منى فى درج مكتبه » . (١)

وثبتت تهمة الاختلاس على المستشار بيكون الذى كان قاضيا مرتشيا . ولما طلب للمثول أمام مجلس اللوردات اعترف بجرمه بالصيغة الآتية . « إننى بعد أن درست التهمة الموجهة إلى ، وبعد أن

---

(١) مذكرات كومنس الكتاب السادس فصل ١ .

سبرت غورضميرى . وراجعت سلوكى السابق بقدر ما استطعت اعترف اعترافا كاملا مخلصا لاموار بة فيه ، إننى أرتكب جريمة قبول الرشوة وأنا متنازل عن كل محاولة للدفاع عن نفسى وأضع نفسى بين يدى شفقة اللوردات ورحمتهم . » وقصدت لجنة من مجلس اللوردات الى اللورد بيكون لتتحقق من أنه هو الذى كتب الرسالة المحتوية على اعترافه هذا ، فأعاد أمامها ذلك الاعتراف « أجل أيها اللوردات أنا كاتب هذه الرسالة التى أتهم فيها نفسى . فالكتاب من إنشائى ومن تحرير يمينى ومن إملاء قلبى . وأنا ألتمس منكم أن ترثوا لحالة رجل مسكين متهدم »

وكان كثير من ملوك انجلترا يشترون أصوات أعضاء البرلمان بمنحهم رواتب . ويقول فولتير إن هذه الطريقة تختصر الصعوبات وتمنع الخلافات . وكان شارل الثانى كثير الالتجاء اليها . ولقد افتتح البرلمان الثانى الذى اجتمع فى ١٦٧٩ عمله باتخاذ إجراءات ضد عشرة من أعضاء مجلس العموم فى البرلمان السابق لاتهامهم بأنهم أخذوا رواتب من الملك ، ولكن القانون لم يكن يمنع قبول المنح من الملك فلم يكن من الميسور محاكمتهم . وكان بلاط شارل الثانى مفسودا جدا . ويقول لويس الرابع عشر فى مذكراته « إنه بلاط يمكن عمل أى شىء فيه بسحر المال ، وطالما اتهم وزراء هذه الأمة بأنهم مأجورون لأسبانيا . » واعتاد

لويس الرابع عشر فى مفاوضاته مع رجال بلاط شارل الثانى كما فى مفاوضاته مع ملوك آخرين أن يظهر نفسه سخيا جداً مع الوزراء والملوك والملكات . وقدصرف مبالغ جسيمة لأمراء ووزراء أجانب (١) . ولم يكن نواب هولنــــدا ونبلاء بولندا الفخام أقل قبولا للرشوة من الوزراء ويقول لويس الرابع عشر : « وكان بين الهولنديين كثيرون دفعت لهم رواتب كما دفعت رواتب باهظة لاشراف بولنديين لكى أستطيع التصرف بأصواتهم فى الانتخابات المنتظرة . وكان لى مأجورون فى أرلندا مهمتهم إثارة الكاثوليك ضد الانجليز ، واتصلت بعد ذلك ببعض اللاجئين الانجليز ووعدتهم بمبالغ جسيمة لكى يعيدوا النشاط الى ما قد يكون باقيا من حزب كروموبل . ودفعت لملك الدنمارك مائة ألف من الكورونات لأحمله على الانضمام إلى التحالف ضد ملك انجلترا ، وقدمت للملكة زوجه عقداً من اللؤلؤ ، كما قدمت عقداً آخر إلى ناخبة براند بورج ، وبعثت بهدية قيمة إلى ملكة السويد لأنى كنت واثقا من أن أولئك الأميرات سوف يتخطين مصالح دولهن ويشعرن بالشرف الذى يلحق

---

(١) مذكرات لويس الرابع عشر . ولكنه مع ذلك لم ينجح فى محاولته رشوة المستشار هايد الذى كان محتاجا لمعونته لتحقيق مشروع زواج شارل الثانى وولية عهد البرتغال . ويقول لويس الرابع عشر عن محاولته هذه « لقد دخلت معه بطريقة سرية فى مفاوضات لم يكن يعلم بامرها احد حتى سفيرى فى لندن وارسلت له رجلا لبقا يحمل معه بحجة شراء رصاص لاسطول كمبيالات بمبلغ ٥٠٠٠٠٠ من الفرنكات عرضها من قبلى على الوزير طالبا صداقته لى ليس الا ، ولكنه رفض عرضى رفضا باتا . »

بهن شخصيا من جراء ما أعمله لاكتساب صداقتهن . ولعلى بنفوذ المستشار فى السويد وبان أمير انهالت والكونت شويرين مسموعا الكلمة لدى ناخبة براند بورج أردت أن أضمن مساعدتهما بعطاياى . » وظاهر أن لويس الرابع عشر لم يقتصد فى الصرف ليضمن له انصارا فى القصور الأجنبية وهو يقول : « وكثيرا ماحدث أن مبالغ معتدلة صرفت فى الوقت المناسب وبحكمة وقت الدولة خسائر وأخطارا لاتقدر ، ومتىاعوزنا التأييد الذى كان يمكن اكتسابه بقليل من المال يصبح من الضرورى للحصول عليه تجنيد جيوش عديدة . فالجار الذى كان من السهل اكتساب صداقته بقليل من البذل يكلفنا كثيرا متى أصبح من أعدائنا» ولما كان يفاوض النمسا لمصلحة دوق دانجين ضمن مساعدة موظف كبير متصل بشخص الامبراطور بدفع مائة ألف كورون .

واستمر الفساد سائدا فى انجلترا بعد ثورة ١٦٨٨ . وظهرت فضائح جمة خلال سنة ١٦٩٥ . فقد ادين الرئيس تريفور لأنه قبل ألف جنيه من مدينة لندن ليضمن لها الاقتراع على قانون معين ، وفى نفس السنة سجن المستر جرين سكرتير الخزينة فى برج لندن لأنه قبل رشوة قدرها مائتا جنيه ، كما سجن المستر هنجرفورد لأنه أخذ عشرين جنيها نظير خدمات قدمها حين كان رئيسا لاحدى اللجان .

وكان وليم الثالث، لضمان تأييد أعضاء البرلمان له ، يعينهم فى

وظائف تُدفع مرتباتها من مخصصات الملك . واعترض البرلمان وطلب فصل جميع الأعضاء الذين يتناولون رواتب أو مهايا من العرش . وبعد مناقشة طويلة قرر فى سنة ١٧٠٧ أن يحرم من عضوية المجلس الأعضاء الذين عينوا فى وظائف بعد سنة ١٧٠٥، أما الذين كان تعيينهم سابقا لذلك التاريخ ، فطلب اليهم أن يعيدوا ترشيح أنفسهم . واستمر العرش فى أثناء حكم الملكة آن وجورج الأول وبالأخص جورج الثانى يكافىء أعضاء البرلمان برواتب . وكتابات ذلك العهد تفيض بالاعتراضات الشديدة على دسائس الوزراء والاخلاق الفاسدة التى فشت بهذه الطريقة داخل البرلمان وانتقلت منه إلى الشعب .

والطريقة الفاجرة التى كان يشترى بها روبير والبول ضمائر أعضاء البرلمان ويباهى بأن قائمة الأسعار على طرف لسانه معروفة جدا ، ومع ذلك فماكولى يتساهل تساهلا غريبا فى تقدير هذا السلوك ويقول : « لقد استعان والبول بالرشوة ليحكم لأنه كان من المستحيل عليه أن يحكم بغير ذلك . . . لقد كان مجلس العموم فى حالة يجب معها سياسته بالرشوة أو عدم سياسته بتاتا . فمسئولية الخطأ منصبة إذاً على تكوين المجلس التشريعى نفسه ومن الظلم لوم الوزراء الذين عاملوا المجلس المعاملة الوحيدة الفعالة . لقد خضع الوزراء للاطماع لأنه لم يكن فى مقدورهم أن لا يخضعوا لها . أن سير روبرت والبول لم يفسد أخلاق البرلمان ، وجرمه الوحيد هو أنه عرف كيف يستعمل نقوده ،

فكسب بها من التايد أكثرمما كسبه سابقوه ولاحقوه . » ويقول اللورد جون رسل : «إن الرشوة احدى ضرورات السياسة» . وفى وزارة لورد نورث ألف جورج الثالث ، بطريقة الاغراء والافساد ، حزبا كان يطلق عليه اسم « حزب أصدقاء الملك » وكان أعضاؤه ينظرون إلى السياسة باعتبارها سبيلا الى تحقيق جشعهم لاغير .

ولقد أضاف البلاط وسيلة جديدة للافساد ، اتسع تطبيقها بعد ذلك فى فرنسا كما فى انجلترا ، هى منح أعضاء البرلمان عطاءات مربحة . وهاجم فوكس تأثير البلاط المفسد وطلب فصل أعضاء البرلمان الذين لهم مصالح فى تلك العطاءات . واشتد الخلاف بين البلاط والمعارضة ، وكانت الوزارة تشترى بعض الأصوات فى فترات التأجيل بين جلسات البرلمان وعلم فوكس (١) بالموضوع ففضحه فى خطابه بقوله « إننى أرى حولى مخلوقات حقيرة خانت عهدها . فلتنهض ولتترك مقاعد أصدقائى ولتجلس بين أعدائى » . وسقطت وزارة لورد نورث وحلت محلها وزارة لورد روكنجهام فقدمت للبرلمان قانونا يفصل من عضويته جميع الأعضاء الذين لهم مصالح فى العطاءات والمقاولات .

---

(١) لم تحم بأمانة فوكس أية ريبة بالرغم من ارتباك حياته الخاصة وحبه للمقامرة « لأنه فى الوقت الذى كانت ترى فيه أمثلة عديدة وظاهرة لاهتمام الوزراء بمصالحهم الخاصة امتنع هو عن طلب الثروة ولم يتخذ أى احتياط ضد الفقر ، وكان فى مقدوره ، بسبب فساد ذلك العهد ، أن يفعل دون أن يفقد شهرته » . (ريموزا انجلترا فى القرن الثامن عشر المجلد ٢ ص ٤٨٢)

وكان أعضاء البرلمان الانجليزى الذين يبيعون أصواتهم يشترون مقاعدهم بأثمان باهظة . وقد كتب لورد شستر فيلد إلى ابنه ، خطابا تاريخه ١٩ ديسمبر ١٧٦٧ ، ينبئه فيه أنه دخل فى مفاوضات مع أحد وكلاء بيع إحدى المدن التى لها حق إرسال مندوبين للبرلمان ، وعرض عليه ٢٥٠٠ جنيه ولكنه أبى بحجة أنه لم يعد من المستطاع شراء مدينة بهذا السعر ، لأن تجار الهند الأغنياء قد اشتروا كل ما كان معروضا فى السوق بأسعار أرفع من ذلك . وكان الغرض من شراء المدن هو المضاربة ، فقد كانت العضوية تشترى للاتجار فى الأصوات . ولقد حاول وكلاء الانتخابات أن يدخلوا تجارة المقاعد الانتخابية ضمن الأصناف المقبولة فى البورصة ، وحدث بالفعل أن كانت هناك تعريفة لأسعار بعض المدن . كما رؤيت مدن تعرض نفسها على المرشح الذى يدفع لها أكبر سعر فعرضت اكسفورد أن تنتخب من يدفع ديون المدينة واتفقت فعلا مع دوق مارلبورو .

ويقول لورد رسل إنه فى السنين الأولى من القرن التاسع عشر بلغ سعر الكرسى فى البرلمان خمسة آلاف جنيه . واعترف ولبرفورس أن انتخابه كلفه ثمانية آلاف جنيه . ولقد ألغيت امتيازات تلك البلدان فى ١٨٣٢ فقل الفساد الانتخابى والسياسى من ذلك الوقت ولكنه لم يمح تماما . وفى سنة ١٨٧٨ تباهى انجليزيان من رجال الأعمال علنا بأن لديهما طرقا مضمونة للتأثير على أعضاء لجنة موكول اليها دراسة مشروع قانون معين .

الفساد السياسي في فرنسا

كان عدد الوزراء الذين اتهموا بالاختلاس فى فرنسا فى العهد القديم كبيرا ، وتعددت المحاكم التى أنشئت خصيصا لاجبار الماليين على رد المبالغ التى اختلسوها من الخزانة العامة بممالأة مديرى الأموال . ففى عهد لويس العاشر اتهم انجران دى مارينى وزير فيليب الجميل بالاختلاس وشنق فى مشنقة مونفوكون التى شيدها بنفسه . وفى أيام فيليب الجميل اتهم جيرار دى لاجيت الذى كان مديرا للأموال فى عهد فيليب الطويل وقبض عليه لاختلاسات نسبت اليه . ولقد سئل وعذب بقسوة حتى مات أثناء سؤاله وسحب جسمه فى الطرقات وعرض فى باريس مدلى من حبل المشنقة . وفى ٢٥ ابريل سنة ٣٢٨ فى عهد فيليب فالوا شنق بيير ريمى رئيس خزانة شارل الجميل لاختلاسات ارتكبها فى غينيا وسرقات عديدة من أموال الملك لأنه قد جمع فى سنوات قليلة مليونا ومائتى الف من الفرنكات أى ما يساوى عشرين مليونا من أموالنا الحاضرة ، وشنق على مشنقة مونفوكون التى تسبب فى انشائها ، واسترد الملك بفضل المصادرة ، الأموال التى سرقت منه (١) . وفى سنة ١٤٠٩

---

(١) يقول منتسكيو إنه اا كان الاختلاس جريمة شائعة فى الدول المستبدة فان المصادرة مفيدة لان فيها تعزية للشعب وتوفيرا عليه فى الضرائب ، فأن المال الذى تنتجه كان لابد أن يبقى الملك لجمعه من شعب مرهق بالضرائب (روح القوانين الكتاب الخامس فصل ١٥)

قطعت راس جان دى مونتاجو الذى أثرى من ادارته المالية . وفى عهد شارل السابع قبض على جان دى اكسانتوان المحصل العام للماليـــة لأنه بدد واساء استعمال أموال الملك ، كما اختلس مبالغ جسيمة منها . وثبتت عليه تهمة التزوير ومع ذلك فلم يحكم عليه إلا بالحبس سنوات قليلة ومصادرة جميع ممتلكاته ؛ وسرعان ما أخلى سبيله بعد أن دفع للملك أكثر من ستين الف من الكورونات . وفى سنة ١٤٥٣ حوكم جاك كور الذى ذهب ضحية غيرة كبار النبلاء المدينين له وحسد الشعب الذى لم يكن يصدق أن يثرى انسان بغير السرقة أو السحر ، ولقد كان جاك كور ابن تاجر فراء جمع من التجارة مالا وفيراً وانشأ له فروعا فى مونبلييه ومارسليا وليون ومصانع فى أفريقيا وأسيا ، وقدم للملك فى مناسبات عديدة أموالا طائلة ليصرفها فى حروبه ، ودخل مجلس الملك أميناً للخزينة مع احتفاظه بحق الاستمرار فى تجارته . ولقد جرت عليه الاراضى التى اشتراها والقصور والمساكن التى اقامها غيرة موظفى القصر فاقنعوا شارل السابع بالقبض عليه واتهموه ظلما بأنه سمم اجنيس سوريل . فلما انهارت تلك التهمة من أساسها نسبوا اليه أنه جمع مالا بغير حق ، وعهد بأمر محاكمته الى خصومه فنسبوا اليـــه الاختلاس واخراج الأموال من المملكة وحكم عليه الملك ، فى جلسة تولاهابشخصه(١) ، بان يعتذر ويدفع غرامة قدرها مائةالف

---

(١) Lit de justice

من الكورونات ، وصودرت أملاكه ووزع جانب منها على الذين اتهموه .

وفى القرن السادس عشر ، فى أيام فرنسوا الأول ، حوكم مدير المالية ، سامبلانسى الذى مات ضحية جشع وخيانة الملكة الوالدة ، لويز دى سافوى . ذلك أن سامبلانسى كان قد أبلغ الملك أن الملكة الوالدة أخذت لنفسها أربعمائة ألف من الكورونات ذهبا مرسلة إلى لوترس حاكم الملايا ؛ فأقسمت الملكة الوالدة لتثأرن لنفسها ، وانتهزت فرصة غياب الملك فرنسوا الأول سنة ١٥٢٧ فأمرت بمحاكمة سامبلانسى بتهمة اختلاس ملفقة ، أمام لفيف من القضاة انتخبهم ، بتحيز ظاهر ، المستشار دوبرا . وحكم عليه بالاعدام ونفذفيه الحكم بالرغم من أنه برىء ثبتت براءته بعد ذلك عندما ماتت الملكة الوالدة وعثر فى خزائنها على مليون وخمسمائة ألف من الكورونات ذهبا من بينها الربعمائة ألف التى كانت مخصصة للوترس .

وفى ١٥٢٧ اتهم جان دى بوورشيه الذى كان يدير أموال الملك بالاختلاس وحكم عليه بالشنق ، كما حكم بنفس العقوبة أيضا على رينيه جنتيل رئيس محكمة الاستئناف فى ١٥٣٦ . وفى نفس السنة حوكم الأميرال شابو لتبديده أموال الملك ونزعت عنه رتبه وغُرِّم ونفى . وصدر ديكريتو فى ٢٣ ابريل ١٥٤٥ يدين المستشار ثوجيه بجريمة الاختلاس والسرقة ويوقع عليه غرامة قدرها مائة

ألف من الفرنكات وحرمانه من وظيفته ونفيه خمس سنين . واتهم المارشال دى بيز بأنه اختص نفسه بجزء من مرتبات فرقته ، واعتبر غير أهل لشغل وظيفته ، وحكم عليه بدكريتو من برلمان تولوز برد ما اغتصب وبايقافه خمس سنوات عن وظيفة مارشال فرنسا ، وباقصائه عن القصر . وفى ١٥٦٥ حكم على فرنسوا ا كان رئيس مجلس المحاسبة بتهمة الاختلاس وغرم ستين ألف من الفرنكات . وبتاريخ ٢٩ مايو ١٥٨٣ صدر دكريتو من برلمان باريس يدين جان بواسل مستشار البرلمان بالاختلاس والرشوة والغدر وابتزاز الأموال والقسوة .

وفى القرن السادس عشر أطلق على اللجان المنشأة لمحاكمة المتهمين بالاختلاس اسم « دوائر العدل » ووضعت لوائح دقيقة فى السنوات ١٥٣٢ و١٥٤٥ و١٥٥٧ و١٥٥٩ لوضع حد لهذه الجريمة الشائعة ، كما تألفت دوائر عدل فى سنوات ١٥٦٦ و١٥٧٨ و١٥٨٤ و١٥٩٣ و١٦٠١ و١٦٠٧ و١٦٢٤ و١٦٤٥ و١٦٥٢

وعند ما كان لوبيتال حاضرا فى بوردو مع شارل التاسع اعترض فى المحكمة المعقودة هناك على قبول بعض القضاة للمال وحب السماسرة له وقال لهم : « أيها السادة إننى أخشى أن يكون الجشع مقيما بيننا ، فلقد علمت أن هناك من يأخذون أموالا ليسمحوا بعقد جلسة ، فاذا وجه اليهم لوم أجابوا بأن الحالة فى القصر أسوأ لأن مجال الفساد هناك أوسع . ولكن هذا العمل لا يرضى ، لا هنا ولا هناك . »

ولما أصبح سولى وزيراً ، وجد الخلل والنهب فى كل مكان . . وكان أصدقاء الملك يأخذون نصيبهم من محصول الالتزامات من العقود المحررة مع الموردين . وكان يدير الخزانة أفراد غير أمناء ، ولم يكن الذين يتحتم عليهم الاحتفاظ بالحسابات يحتفظون بشيء منها مطلقا . ويقول هنرى مارتن أن فرانسوا دو مدير المالية فى عهد هنرى الثالث ، كان اللص الأكبر بل زعيم اللصوص جميعا . وقد أعاد سولى النظام لادارة الأموال ووضع حداً لابتزاز الحكام العسكريين .

ولما حكم فى عهد ريشيليو على مارشال دى مارياك بالاعدام لاختلاسات نسبت إليه لم يستطع أن يدرك الباعث على هذه الشدة وتساءل بدهشة : «رجل فى مقامى يحكم عليه بالاعدام لاختلاس ؟» ولكن ريشيلو لم يبد أى شفقة لأنه كان يعتبر « أن فن المالية هو دعامة السياسة العامة وان لا سبيل لقيام الدولة بغيره لأن المال هو عصب كل عمل ، وانما تقاس قوة الدولة بنسبة ما فى خزائنها من أموال . »

وكان مازاران أقل منه قسوة على المختلسين ، والمعروف أنه لم يكن هو نفسه بمعزل عن كل لوم ، وأنه ترك بعد موته خمسين مليوناً من الفرنكات أى ما يساوى مائتى مليون فى أيامنا .

وافتتح حكم لويس الرابع عشر سنة ١٦٦١ بدائرة عدل حاكمت فوكيه وعدداً كبيرا من الماليين الذين ارتكبوا الاختلاسات

وادين أكثر من خمسمائة شخص ، وبلغ مجموع الغرامات والمصادرات بحسب تقدير النائب العام بتى جان مائة وعشرة مليوناً .

ويقول كوزان : « إن ثروة كولبير لم تجمع بطريقة أشرف من ثروة فوكيه لأن الظواهر كلها تدل على انه لم يستطع أن يجمع دوطات بناته الثلاث ، اللائى اصبحن دوقات ، وان يبنى بيته الفخم فى (سو) مما اقتصده من مرتبه » . ولكن كوزان ينسى مع ذلك ان الملوك كانوا يجذلون العطاء لوزرائهم وانه ، كما يشعر الذين يبقون طويلا فى الشمس بدفء حرارتها على حد قول نوديه ، كذلك يجب أن يشعر خدام الملوك بأثر قوتهم وصداقتهم على هيأة مكافآت ينالونها نظير خدماتهم وكأن الملك يقول لوزرائه : « اهتموا بمصالحى وأنا أهتم بمصالحكم » حتى اذا ما ضمن الوزراء الخلاص من الفقر — ذلك الوحش الكاسر — استطاعوا أن يتفرغوا لأعمال الدولة بعقل خال من المتاعب والشهوات .

ومع ذلك فمذكرات لويس الرابع عشر تبعث على الاعتقاد بأن فوكيه لم يكن الوزير الوحيد الذى لم تكفه هبات الملك . فهو ، فى نصيحته لابنه ، يلح عليه فى أن يراقب وزراءه بصفة خاصة ، « لأنه يجب أن لا يقنع المرء بدراسة الرجال قبل تعيينهم فى الوظائف إذ من السهل على أغلبهم أن يتظاهروا فترة من الزمن بما ليس فيهم رغبة فى الوصول إلى السلطة التى هى مطمحهم ، بل الواجب ، على

بالعكس ، ملاحظة الرجال ملاحظة أدق وهم يتولون ادارة الأعمال ، لأنهم ، وقد نالوا مايطلبون ، لايعوقهم عائق عن اتباع ميولهم الشريرة . »

وقد يبدو أن الطريق الوحيدة الواجب اتباعها مع الوزير الذى تثبت عليه الخيانة هى الطرد والعقاب ، ولكن لويس الرابع عشر كان أقل قسوة فهو يشير على ابنه «بأن يقوم اخطاء وزيره بالنصيحة الطيبة ويحتفظ به إذا كانت عنده صفات تؤهله للعمل مع التحرز من الاخطاء التى قد تدفعه إليها ميوله الشريرة وأن لايطرده إلا إذا لم تكن هناك وسيلة لأصلاحه . »

وتدلنا يوميات ومذكرات لويس الرابع عشر على أن الشعب فى بعض المقاطعات كان فريسة لبعض الأشخاص الذين يستغلون مراكز الحكام ليبتزوا أمواله وهو يقول : « إننى أعين رجالا من قبلى فى كل مكان ليزوودنى بالأخبار الصادقة عن غدر الحكام لأعاقبهم حين يستحقون العقاب » .

ونطقت محاكم « الأيام الكبرى » التى عقدت فى أوفرنيا سنة ١٦٦٥ بعقوبات كثيرة لاختلاسات . ويقول فلشييه فى كتابه عن تلك الأيام إن المحاكم فى حماسها كانت تُخطر بالجرائم فلا يكاد يتسع لها الوقت لتعرف حالة المتهمين حتى انها قضت ، فى الدرجة الأولى ، على مسيو دلاتور بالأعدام شنقاً ، فلما تبين طيب عنصره مُنح الميزة التى هى حقه وهى أن تفصل رأسه ذبحا . وحكم على أحد

أقارب تورين الماركيز دى مالوز بغرامة كبيرة وبرد مبلغ ثمانمائة وعشرة آلاف من الفرنكات. ولقد قال بوردالو بعد ذلك فى موعظة له عن الدين والنزاهة: « إن الرجل الذى يتولى الأموال العامة بغير أن يستحق اللوم، والذى يترك بعض الوظائف نظيف اليدين، يكاديكون فى أيامنا هذه إحدى المعجزات ».

ولقد أعلن الملك فى مقدمة الديكريتو المنشىء لدائرة العدالة فى سنة ١٦٦١ : «لقد جمع بعض الناس فى هذه الايام ثروات طائلة بسرعة مدهشة وسبل غير مشروعة، فممتلكاتهم الواسعة، ومظاهر ترفهم الوقحة، وغناهم غير المحدود، أمثلة قائمة لافساد كل مبادىء النزاهة العامة». وتشير هذه المقدمة الى الماليين الذين كانوا يشغلون مراكز ممتازة فى الهيئة الاجتماعية فى القرن السابع عشر والذين وصفهم لابروبير وهم يشترون الألقاب الشرف ويزوجون بناتهم بالسماسرة: « اذا فشل رجل المال قال عنه السماسرة إنه من عامة الناس، لايساوى شيئا وإنه من الغوغاء. فان نجح، فهم يطلبون يد ابنته. إن الرجل الواسع الثراء يستطيع بماله أن يضم دوقا الى اسرته، وأن يرفع ابنه الى مرتبة الأشراف. فقد استطاع سلفان بفضل نقوده أن يكتسب حسبا واسعا جديدا، فاصبح لوردا فى الابراشية التى كان أجداده يدفعون فيها العشور، وكان لايستطيع فى الماضى أن يدخل بيت كليوبول ولو كخادم، فاذا به يتزوج بابنته. واستطاع سوزى، بعد أن ارتدى ملابس الخدم، أن يشق

طريقه من وظيفة حقيرة فى ادارة المال الى وظيفة كبيرة ذات نفوذ ، كما استطاع بالاختلاس والقسوة واستغلال النفوذ ، أن يصل الى الصف الأول على انقاض خراب الكثير من الاسر ، فاصبح نبيلا بما شغل من وظائف ، ولم ينقصه الا الظهور بمظهر الرجل التقى الورع فأذا هو رسول من رسل الكنيسة . وهكذا تحققت المعجزة ! »

وليس مظهر النبلاء وهم يعملون لينالوا حظوة الدعوة الى قصور رجال المال بالامر الجديد ، فقدشوهدت أضخم اسماء النبلاء تجتمع تحت سقف ساموبل برنار ملتزم الضرائب الشهير الذى كان يشغل مركزا ممتازا فى عهد لويس الرابع عشر . وكان الذى يغريهم بذلك العشاء والميسر والحفلات . وقد وصف الرئيس هينو مسكن الملتزم فقال : « كانت دارا فسيحة يستطيع الانسان أن يأكل فيها ويلعب ، وكانت مجمعا لخيرة أفراد المجتمع . كنت ترى فيها الكاردينال دى روهان ، الذى وهبته الطبيعة كل المؤهلات ، وأخاه الأمير دى روهان ، ومدام دى مونتيسون التى كان الاخوان يتنافسان عليها ، وديسورتس المراقب العام ، ومدام تورجو ، ومسيو دومون ومدام مارتل ، والمارشال فيلروا الذى كان يجذبه اليها وجود مدام دى ساجون ابنة برنار ، وكان المارشال يحاط بالمزيد من العناية والاهتمام ليغمض عينيه عما حدث فى ليون حيث أفلس برنار فى نحو اثنين وثلاثين مليونا .

وصدر فى سنة ١٧٠١ ديكريتو جديد يعاقب على الاختلاس بشدة وينص على إعدام من تثبت عليه تلك التهمة ، ومع ذلك فلم ينقطع سيل اختلاسات رجال المال .

ولما مات لويس الرابع عشر طالب الرأى العام مرة أخرى بعقاب الجرائم التى ارتكبها رجال المال ، فألفت دائرة عدل جديدة فى مارس سنة ١٧١٦ (١) ومنح قضاتها حق الحكم بالأعدام والأشغال الشاقة والغرامة وصرح لهم أن يحاكموا أفرادا من جميع الطبقات أيا كان مولدهم أو مركزهم متى اتهموا بالاختلاس . ولم يطل أجل هذه الاجراءات الشديدة اذ صدر ديكريتو فى ١٨ سبتمبر من نفس السنة يسمح بابدال عقوبة الاعدام والأشغال الشاقة بالغرامة . وأخيرا حصرت دائرة العدل اختصاصها فى اصدار الضرائب . ويقول النائب العام بتى جان : «إنها ، من ممتلكات قيمتها ٨١٢ مليونا ، أبقت لأصحابها ٤١٢ مليونا تخصم منها ٢١٩ مليونا ضرائب لم تدفع مع ذلك ابدا . وفى مارس سنة ١٧١٧ الغى داجيسو الذى حل محل المستشار فوازن دائرة العدل وهى آخر

---

(١) وهى التى يشير اليها مونتسكيو فى رسائله الفارسية فيقول : «لقد تألفت ما يطلق عليها دائرة العدالة وهى تسمى كذلك لان مهمتها أن تسترد من رجال المال كل ما اغتصبوه . ويستحيل عليهم أن يهربوا ممتلكاتهم أو يخفوها لان عليهم أن يبينوها بوضوح والا تعرضوا للاعدام . وهم لذلك وضعوا فى مازق ضيق وهو أن يتخيروا بين الحياة والمال . » (الكتاب السابع والاربعين)

ما عرف من نوعها وأبدى المستشار الجديد بتلك المناسبة ملاحظة عن خلق الشعب الفرنسي حققت الأيام صحتها ، وهي أنه شعب ينتقل بسرعة من الاستياء إلى الفتور التام ومن الحقـــد إلى الشفقة» . ويقول داجيسو : «إن الشعب ، القليل الثبات ، يجب أن يشهد معاقبة سريعة وقاسية ، أما إذا تركت الأمور تطول فان اشمئزازه من المجرم يفتر ويعوّد نفسه على اعتباره بريئا لطول رؤياه له وهو يتألم » .

إلى هنا ينتهي تاريخ دوائر العدل ولـكن جرائم الفساد لاتنتهي بانتهائها ، بل هي على العكس تشيع في أيام الوصي ، بما ارتـكبه لاس والـكردينال دوبوا . وفي عهد لويس الخامس عشر اشترك الملك نفسه في المضاربة على القمح وكان أحد حملة الأسهم في شركة « اتحاد المجاعة » الشهيرة التي سببت المجاعات المصطنعة في سنتي ١٧٦٨ و١٧٩٦ . وهذه الطرق الفاسدة التي كانت شائعة في تلك الفترة معروفة لدرجة انني أعد من تحصيل الحاصل إعادة ذكرها .

وانه لأيسر على الشعب أن يقوم بثورة سياسية من أن يقوم بثورة أخلاقية ، وأن يغير نظام حكمه من أن يبدل ضمائر أبنائه . ففي إبان الثورة أخذ رجال السياسة يجمعون المـال واشترك رجال المـال مع رجال السياسة ، وجمع أكثر الدعاة تطرفا بين الأعمال والسياسة . وكان هيبير على صلات وثيقة مع المـالي كوك الذي

كان متهما بأنه أجير للأجانب . ويقول موريس ، ممثل الولايات المتحدة فى باريس سنة ١٧٨٩ ، عن ناربون ودى شوازيل والقس دى بريجور: « إنهم ثلاثة شبان من أسرطيبة ، ولهم مؤهلات عظيمة يعيشون عيشة الملذات ، ولقد كانوا ثلاثتهم أصدقاء حميمين ، وحاولوا ، بدافع من أطماعهم ، أن يستردوا ثرواتهم المبددة . »
واعترف مونمران لالكسندر دى لامث أنه صرف فى فترة وجيزة سبعة ملايين فى شراء يعقوبيين ورشوة الكتاب والخطباء . وذهب تيودور دى لامث لمقابلة دانتون أملا فى انقاذ لويس السادس عشر فاجابه دانتون : « إننى أوافق على محاولة انقاذ الملك ولكننى أطلب مليونا لشراء الأصوات اللازمة .. وأنذرك من الآن اننى إذا لم أنجح فى انقاذ حياته فسأقترع على إعدامه ، فاننى أريد أن أنقذ رأسه ولكن لا أريد أن أضحى برأسى . » وأراد ميرابو أن يخفف من دناءة الاتفاق الذى تم بينه وبين القصر فاعترف بانه أخذ مالا ... ولكنه لم يبع نفسه . وفى تلك الفترة بدأ فوكيه يضع ؛ بوسائل ملتوية ، أساس ثروته الضخمة . وحاول نواب آخرون أن يرسو عليهم مزاد ممتلكات غنية نظير مبالغ ضئيلة . واستولى البعض الآخر على الأموال التى جمعوها من أعمال عهد اليهم بها فنهب رونسان وأصدقاؤه الفانديه ، وحكم على النائب بيران بالسجن لسرقاته ، وأغتنى شابو الراهب السابق فجأة وتزوج بابنة أحد أصحاب المصارف . واعترف شابو فى محاكمة فابر ديجلانتين بتهمة التزوير لمصلحة شركة

الهند الفرنسية الشرقية ، ان مبلغ مائة ألف من الفرنكات ذفع له ليرشى به فابر ، ولكنه أضاف بانه لم يجرأ على أن يتحدث اليه فى الأمر ، فاحتفظ بالمبلغ لنفسه .

وشاعت الاختلاسات بوزارة الحربية حين كان باش مسيطرا عليها ، فاشترك كثير من أعضاء لجنة الخلاص العام فى أعمال مالية لا تشرف ولم يقدم كومون باريس حسابا عن المبالغ التى صرفها بالرغم من أن كامبون طالبه بذلك أكثر من مرة . ولم يستطع المؤتمر أن يطلع على بيان الحساب أو أن يعاقب المختلس لأن له حماة أقوياء فى المجمع .

وفى ٢٥ سبتمبر سنة ١٧٩٣ أخذ توريو يندب أمام المؤتمر مصير الجمهورية التى أصبحت فريسة لأحط الناس ، فهو يقول « أيمكن أن نكون قد جاهدنا هذا الجهاد لنعهد بالسلطة إلى اللصوص والملوثين بالدماء ؟ لقد أنزلنا الملكية من فوق عرشها لنقيم مكانها الخسة والدناءة » . وكان عدد من النواب اليعاقبة فاسدين لاقيمة لهم مغامرين ، يضاربون فى سندات الحكومة وأملاك الدولة ، وكان بينهم أفراد وزعوا أوقاتهم بين الاغتيال والتهتك . فمنهم مثلا روسينيول وكاريير اللذان كانا يأمران بالمذابح دون أن يقطعا ماهم فيه من حفلات فاجرة . وطلب هنريو أن يعطى ثمانية آلاف فرنك « لتغطية المصاريف التى تكلفها وهو يراقب المذابح الثورية » كما طلب بعد ذلك مبلغ ثلثمائة ألف من الفرنكات « لاهباط

المؤامرات وضمان انتصار الحرية » . وهنريو هذا هو الذى دعا أصدقاءه إلى الانضمام فى طلب الغنائم ببيان قال فيه « يسرنى أن أبلغ زملائى فى الجهاد أن كل الوظائف فى قبضة الحكومة . . والحكومة الحالية ، هى حكومة ثورية . . . فهى تفتش الخبايا بحثا وراء الأفاضل . . . ووراء عديمى القمصان الأطهار الفقراء . » على أن عديمى القمصان الأطهار الفقراء لم يكونوا ينتظرون حتى تبحث الحكومة عنهم فى مخابئهم فقد هجروها لتصيد الوظائف ، وانضموا للجان الثورة التى وضعت أيديها على مبالغ جسيمة . ويقول تين « إن الثلاثة أو الأربعة ملايين . . . ذهبا وفضة التى ابتزت قبل نهاية سنة ١٧٨٣ ، ومئات الملايين التى جمعت فى سنتى ١٧٩٣ و ١٧٩٤ ، وبالاختصار جميع محصول الضرائب الشاذة ابتلعها لساعتهم عديمو القمصان » .

ولقد قيل فى محاولة رد اعتبار هؤلاء الدعاة ، إن أغلبهم مات فقيرا ، ولكن ذلك الفقر لا ينهض دليلا على نزاهتهم . لقد ماتوا فقراء لأنهم بددوا المال المكتسب بغير حق ، كانت أيديهم خاوية حقا ولكنها لم تكن نظيفة ، فقد كانت جيوبهم تفرغ كلما امتلأت .

وانتشر الفساد فى عهد الديركتوار أكثر من ذلك . وكان باراس البخيل ، العديم المبادىء ، الذى اتصل بجميع الأحزاب ووضع أصبعه فى كل مؤامرة ، هو المثال النموذجى لسياسى ذلك العهد ، وكان بونابارت يسميه أفسد الفاسدين . وعقب انقلاب

١٨ فركتيدورجي. بالمحكوم عليهم بالنفي إلى الموانى التي سيرحلون منها ، في أقفصة حديدية ، يحرسهم الجنرال دوترتر الذي كان قد حكم عليه قبل ذلك بالحبس عامين لجرائم غدر ارتكبها في الفانديه .

وخطت الأخلاق السياسية المتينة في عهد الامبراطورية وعودة الملكية خطوات واسعة لأن الانتصارات العسكرية واستيقاظ العواطف الدينية وحب الحرية السياسية ساعدت على رفع مستوى الأخلاق ، كما كبت الاخلاص للواء الوطن الاندفاع في طلب الثروة .

وساد حب الشجاعة والاقدام وتقـــدير الشرف جنود الامبراطورية ، اكتسبت الفضائل العسكرية التقدير والاحترام . وكان نابليون الأول ، كما لاحظ المسيوتيير ، يحب المستقيمين من الرجال ، على أن ذلك لم يمنعه ، في أكثر من مرة ، من محاولة إفساد الرجال (١) ولم يحل دون تعيينه رجالا مريبين ، من أمثال

---

(١) وهاهي حادثة شهدتها مدام ستايل بشخصها ، فقد أراد نابليون في سنة ١٨٠٥ أن يقضي على شهرة الدوق دي ميلزي وكيل رئيس جمهورية الالب ، فتقدم بنفسه أمام المجمع التشريعي اللومباردي وأعلن عن عزمه على تقديم ضيعة كبيرة الى دوق ميلزي مكافأة له على خدماته . وتقول مدام ستايل « ولما كنت في ميلان في ذلك الوقت قابلت الدوق في المساء ووجدته حانقا على الدسيسة الدنيئة التي عملها فيه نابليون بغير اخطار ، ولكن ، لعلي أن نابليون قديسنا . اذا رفضت منحته ، صحت للدوق أن يخصص ايراد الضيعة الممنوحة له برغمه الى احدى الأعمال العامة . وقبل الدوق نصيحتي ، وفي الغد وهو يسير بجانب نابليون أخبره بعزمه فأمسك نابليون بذراعه وقال « اني أراهن على أن ما قلته الآن هو من إيحاء مدام ستايل ، ولكن صدقني

فوشيه وتاليران ، وزراء له . وعندختام حكمه أسف لما عمل وقال : « أريد من الآن أن لا أحيط نفسى إلا بالرجال النزيهين » .

ولقد اثبتت كتابات الحاكم موريس وزير الولايات المتحدة فى باريس عام ١٧٨٩ ، والكونت دى سنفت الوزير السكسونى فى باريس ١٨٠٦ ان شهوة جامحة لجمع المال كانت تسيطر على تاليران الذى كان يحاول دائما أن يضيف إلى ثروته بالمضاربة وقبول المنح من الدول . ويقول الوزير السكسونى إنه فى أثناء المفاوضات التى سبقت معاهدة بوزن فى عام ١٨٠٦ قدم مفوض سكسونيا الى تاليران مليونا ، كما استطاع كثير من الأمراء الألمان أن يدخلوا اتحاد الرين بقوة المال الذى دفعوه الى تاليران عن طريق جاجرن وزير دوق ناسو وأيدت مذكرات باسكييه صحة تهمة حب المال المنسوبة الى تاليران ، فهى تثبت أنه كان يستفيد من المعاهدات التى يعدها ليثرى . فمعاهدة لونيفيل ، التى نص فيها على أن تسترد النمسا الأوراق المالية التى أصدرتها فى بلجيكا ، مكنته من اكتساب مبالغ جسيمة بشرائه تلك الأوراق قبل أن يحاط أحد علما بذلك الاتفاق . وكانت حكومة النمسا سخية مع تاليران بصفة خاصة لتضمن ممالأته لها فى المعاهدات التى كان يتفاوض فيها . فتحويل ألمانيا إلى حكومة مدنية ، وجميع الاتفاقات التى تمت فى

أن الافضل لك أن تترك مثل هذه العواطف البالية . فليس هناك الا شىء واحد يجب أن يعمل فى هذا العالم هو أن تجمع باستمرار مالا ونفوذاً وكل ما عدا ذلك وهم وأحلام »

تلك البلاد عن تقسيم الأراضى ، كانت منبعا جديدا لأرباح طائلة فاقت كل ماسبقها . ويقول المستشار باسكييه إنه سمع أشخاصا من العارفين ببواطن الأمور يقدرون تلك الأرباح بعشرة ملايين على الأقل . ويجب أن نعترف للمسيو تاليران بأنه لم يكن يحتفظ بكل الأرباح لنفسه ، بل كان يشعر بالحاجة لاشراك عدد كبير من معاونيه فى الغنيمة ، وكانت طريقته ناجحة فى جمع أعوان نافعين مخلصين حوله (١)

ولم يكن نابليون يجهل الوسائل التى يتبعها وزيره لجمع المال وسأله يوما لجأة عن مصدر ثروته : « يامسيو تاليران ، من أين جئت بكل هذه الثروة » فأجابه الوزير بدهاء : «مولاى ، إن الطريقة فى غاية البساطة ، لقد اشتريت سندات الحكومة فى الليلة السابقة على ١٨ بروميير وبعتها عقب ذلك مباشرة » . ولما طلب تاليران فى ١٨٠٧ مكافأة له على خدماته أن يمنح لقب وكيل الناخب العام ويستقيل من الوزارة ، تضايق نابليون من هذا الطلب وقال له حانقا : « لست أفهم تعجلك للحصول على لقب وترك وظيفة أنت مدين لها بشهرتك وقد جمعت منها فيما أعلم فوائد جمة ؟» وجاء

(١) وكانت حكومة فينا ، بشرائها مساعدة تاليران ، تنسج على منوال السياسة القديمة التى كانت تحاول دائما رشوة وزراء الحكومات الأجنبية . وكثيرا ما دفعت حكومة فرسايل مرتبات إلى وزراء انجليز ونمساويين وغيرهم . فتوجوت الذى خلف كونتز فى النمسا والذى سبق مترنيخ فى أيام الثورة كان يتناول راتبا من فرنسا منذ سنة ١٧٦٨ .

بعد تاليران دى شامبانى الذى امتدح نابليون نزاهتـه بقوله :
«إننى متأكد من اننى لن أجده مشتركا فى مسائل مالية » . واخيراً
عند ما علم نابليون بما تم من الصلح بين تاليران وفوشيه ، وتآمرهما
عليه ، عاد من أسبانيا ليخزيهم ووجه إلى تاليران بحضور كثير
من الوزراء ألفاظا قاسية وسبه ونعته باللص .

وجاء لويس الثامن عشر فترك عددا كبيرا من سماسرة نابليون
يشغلون كراسيهم فى مجلس الشيوخ ، كما اتخذ فوشيه وزيراً . ورأى
شاتوبريان تاليران يدخل مكتب الملك مرتكزا على ذراع فوشيه
فقال : « ها هى الرذيلة تستند إلى الجريمة » . ومع ذلك فقد كان
وزراء عودة الملكية أمناء وحكموا بنزاهة ، إلا النادر منهم .

ويقول البارون دوسيز ، وزير البحرية فى وزارة بولينياك ، فى
مذكراته : «كانت حكومة عودة الملكية نزيهة جداً ولم تسقط إلا
لأنها أبت أن تكوّن لنفسها أغلبية بالرشوة وبشراء عدد قليل من
الأصوات كانت معروضة فعلا للبيع ، ومع ذلك فقد كان
المطلوب مجهوداً بسيطا لفصل عدد الأصوات القليلة المكونة للأغلبية
عن المعارضة . فبضع وظائف أو قليل من المال كانت تكفى . . . .
وكانت تعريفة الضمائر بين أيدينا ، ولم تكن الأسعار باهظة ، فلم
يوضع لأى عضو سعر أكثر مما يستحق . وحتى بين الرجال الذين
دفعهم حبهم للشعب إلى مقاومة عودة الملكية لم يكن يعوزنا

المضاربون المستعدون للمساومة ، ولو أنهم كان قدجيء بهم وجها لوجه ، لأمكننا بلا شك أن تخفض المطالب ولكن الملك وولى العهد رفضا الفكرة ولم ينتظرا سماع رأى مجلس الوزراء فيها . »
واقترح البارون دوسيز عليهما الالتجاء إلى مخصصاتهما الملكية لأخذ المبلغ اللازم لشراء العشرين صوتا المطلوبة ، ولكن ولى العهد رفض . فلم يمض شهران حتى كان الملك فى طريقه إلى شربورج

وفى غداة ثورة ١٨٣٠ دفع طمع منتصرى يوليو باربييه إلى كتابة أشعاره المشهورة بعنوان « المحجر » و« الشهرة » وبعد ذلك ببضع سنين مثل على المرسح الفرنسى مسرحية فكاهية عنوانها الشهرة ينتقد فيها مر الانتقاد الفساد السياسى الذى كان فى ذلك الوقت آخذا فى النمو بشكل مقلق . ويقول أحد أشخاص الرواية ، هذه الأشعار :

« إلى أى مدى وصل الفساد ، إن كل أعمالى ظاهرة وحياتى معروفة ، ومع ذلك فقد زارنى فى هذا الصباح رجلان : أحدهما يعرض نفسه على والثانى يريد شرائى . أنت تقول إنك تريد إقامة جمهورية ولكن على أى أساس ؟ وعلى أى أخلاق ؟ أين أخلاقنا الرومانية ؟ إن هذا الرجل الذى يشكو من الاستغلال يسمن ويترعرع بفضل استغلال أكبر . وأصبحت أصوات النواب ، التى صارت تستغل فى أحقر الأمور ، تباع بأسعار محددة ، واكتسى

العار ، بفضل الذهب . شرفا وغدا من يبنى هنا كمن يبنى على شفا جرف هار ».

ومن قبل فى عام ١٨٣٨ أظهر المسيو دى توكفيل استنكاره لمنظر الرجال العموميين وهم يتجرون بنفوذهم . وبدأت الشركات فى ذلك الوقت تدخل الأمراء وذوى الألقاب والساسة بين أعضاء مجالس ادارتها (١) . وقد انتقد النائب العام دوپان بشدة اشتراك الرجال العموميين فى مشاريع يطلب اقتراع البرلمان عليها وقال إن الاسهم تعطى للنواب لتمنع ضمائرهم من التأثر بالاعتبارات العامة وفكرة الحق والعدل . ويشير تيير فى خطبة له فى ١٧ مارس سنة ١٨٤٦ وفى خطاب بعث به فى يوليو من نفس السنة لناخبيه إلى نمو الفساد ويندب منظر الأخذ والعطاء فى نفوذ الناخبين . ولما طلب محل روتشيلد أخذ امتياز شركة سكك حديد الشمال ، وكان مركز الشركة قد توطد ، تقدم كثير من النواب إلى مكاتب الشركة يطلبون شراء أسهم بسعر الاصدار ، مع أن سعرها كان قد زاد بضع مئات من الفرنكات عن سعر الاصدار ، والواقع أن محل روتشيلد وهو يجيب طلب أولئك النواب إنما كان يقدم لهم رشوة . وكتب هايني فى ذلك الوقت أن جميع الأيدى تمتد الآن اليهم . وهبط مستوى الأخلاق

(١) ولاحظ هايني كثرة عدد الضباط البحريين الاعضاء فى مجالس ادارة الشركات فتساءل فى سخرية هل المقصود بهذا الاحتياط من جانب الشركات هو توقع اليوم الذى تقدم الشركات الى العدالة ويحكم على أعضائها بالحبس فى المراكب

السياسية قبل عام ١٨٤٧ بعدة سنوات حتى أن توكفيل وهاينى وبعض الكتاب المستنيرين قد رأوا فى ذلك مقدمات ثورة جديدة (١)

وفى عام ١٧٤٧ ثبت على الجنرال ديبان كوبيير من اشراف فرنسا ووزير سابق للحربية انه بالاشتراك مع مدير مناجم جوهنام دفع مائة ألف من الفرنكات إلى تست وزير الأشغال العمومية للحصول على امتياز ، كما ثبتت اختلاسات فى ترسانات طولون وروشفور وشربورج . وهذه الفضائح ، بما سوأت من سمعة الحكم ، ساعدت على اسقاط لويس فيليب ، وهذا العار ، الذى كان يجب أن يصيب المجرم وحده ، التصق فى النهاية بملك نزيه كان من سوء حظه ان أحيط بخدام خادعين ووزراء مجردين من كل شرف .

أسباب الفساد السياسى

من الممكن أن يقال عن السياسيين خاصة ذلك القول المأثور « فتش عن المرأة وأنت تعرف سبب فسادهم » . أنهم كثيرا ما يفضلون ألواج راقصات الأوبرا على فراشهم (٢) . ففى الأيام الأخيرة

---

(١) وكان هاينى كأغلب الشعراء أصدق حدسا من السياسيين فكتب عام ١٨٤١ يتوقع الثورة الجديدة « إن اليوم ليس ببعيد حيث ينتهى تمثيل رواية الطبقة الوسطى الفرنسية بين السخرية والاستهزاء ثم تتبعها خاتمة عنوانها « حكم الشيوعية »

(٢) كان ميرابو يفضل الراقصة كولون على زوجته وكان الجيروندين واليعاقبة يترددون على راقصات المسارح حتى فى أثناء المنازعات الثورية

للجمهورية الرومانية كان السياسيون يتقربون إلى نساء من ذوات السمعة السيئة فكثر عددهن كثرة فاحشة واندفعت النساء عند ذلك ، كما هو الحال اليوم ، فى تيار حب الترف والملذات . فكانت الرومانيات من أعرق الأسر يعشن عيشة الفاسقات ويترددن على مياه (بايا) ويقمن الحفلات الفخمة ويدعون اليها الندماء والكتاب والساسة . ولقد رأينا فى مسرحيات كثيرة حديثة ، ساسة أو رجال مال عصاميين يضيفون إلى ملذاتهم لذة الغرور ، فيدفعون أموالا طائلة ليحظوا بكبار السيدات اللائى تدفعهن الحاجة والرغبة فى الترف إلى السقوط بين أيدى العامة . هذا الجنون كان شائعا فى روما . ولهذا السبب كانت فوستا ، ابنة سيلا وزوجة ميلو ، موضعا لتقرب الكثيرين من الرجال الذين كانوا يتصلون بها لأنه مما يرضى غرورهم أن تكون لهم علاقات بامرأة هذه مكانتها ، وان يكون لهم شرف الاتصال بابنة الدكتاتور . وضبطها زوجها ميلو مع سالوست ، المؤرخ الذى كان يكتب التاريخ ويتشدد فى الناحية الخلقية ، فضربها وشريكها بكرباج من الجلد . وأضعفت هذه المغامرة من اهتمام سالوست بالنساء العظيمات وجعلته يقنع ببنات الطبقة الدنيا اللائى لا يتعرض معهن لمثل هذا الخطر .

وتشبه حالة سالوست حالة الكثيرين من مواطنيه . كان مدمنا الملذات ، يصرف الليالى الطوال على موائد الطعام ، يحب المال حبا جما ، ما دخل الحياة العامة إلا لاشباع تلك المطالب ، وهو يقول « لقد سعيت كغيرى لصعود سلم وظائف الدولة ،

فتعرضت لأخطار جمة واستعنت بالفجر والدس والفساد بدل الاعتدال والجدارة والنزاهة ، وكنت فى دخيلة نفسى أزدرى هذه الوسائل الدنيئة ولكن الشباب جسور ، و« طامع لا يحمل نفسه على ترك الجهاد » . والواقع أن سالوست كان مدفوعا بظمأه للنقود والغنى ، الذى يلوم الآخرين عليه ، لذلك مثل كل دور بحسب ما يدره عليه من فائدة ، فهو تارة يتملق الشعب ، وتارة سمسار لقيصر . وقد وصل إلى المراكز بالدس والافساد واستغلها ليثرى ، فنهب نوميديا عندما عين حاكما عليها ، وعاد إلى روما فشيد لنفسه قصرا فخماً تحيطه الحدائق الغناء واحواض السباحة العظيمة ، واستمر مع ذلك يسلق بلسان حاد الأعمال الدنيئة التى يندفع اليها السياسيون بباعث من الطمع والجشع . وما كان ليصبح المثل الكامل للسياسى الفاسد إذا لم يضف الرياء إلى قائمة نقائصه .

وكان الطلاق فى ذلك الوقت — كما هو الحال اليوم — يساعد على أن يستبدل الواحد زوجته بزوجة الآخر . وكثيرا ما لجأ الساسة لهذه الوسيلة . فبعد أن طلق بومبي زوجته انتوستيا ليتزوج أمليا ثم موتيا التى طلقها بدورها ليتزوج جوليا . وتزوج لوكولوس كوديا ثم سرفيليا أخت كاتو (١) ثم طلقها . وتزوج

(١) وكان لكاتو أختان أحداهما التى طلقها لوكولوس والثانية خدعها قيصر . وكان سلوك زوجته معيبا لدرجة أنه اضطر الى تطليقها بالرغم من أن لها ولدين . ثم تزوج مارتيا التى أقرضها بعد ذلك لصديقه هرتنسيوس (بلوتارك - حياة كاتو) ويذكر بلوتارك حالة ليليوس صديق شيشرون الذى كانت له زوجة واحدة باعتبارها حالة شاذة .

قيصر وهو دون جوان أصلى أربع زوجات على التوالى ، من غير أن نحسب عشيقاته اللائى كان من بينهن نساء من المقاطعات وملكات . وسوء سلوك أنطونى أشهر من أن يذكر فقد ساح إيطاليا وبرفقته زوجته والممثلة سيتاريس ، التى تعشى معها شيشرون واتيكوس فى إحدى المناسبات . وطلق شيشرون نفسه زوجته وتزوج وهو فى الثالثة والستين من عمره فتاة غنية ليسدد ديونه ، كما اتصل بامرأة سيئة السمعة تدعى سيريليا . (١) وبعد طلاقها ، تزوجت زوجته شيشرون سالوست .

وكثيرا مايرجع النقل فى ترقى ذوى الاطماع الى النساء . فعندما كان نفوذ كتيموس عظيما فى روما كانت السلطة الحقيقة فى الواقع

---

(٢) ويقول منتسكيو إن شيشرون كان نابغـــة النفس ، أفسدت السياسة مشاعره . فقد أيد القضايا السيئة تحقيقا لاطماعه وشهرته وفائدته وارضاء لحلفائه السياسيين ، وهو يعترف بذلك فى خطابه الثانى والعشرين الى اتيكوس وفيه يشير الى طلب التاء عطاء قدمه بعض الأشخاص عن الضرائب الاسيوية ويقول « الحقيقة أن الطلب كان عما لايمكن الدفاع عنه ومع ذلك فقد أيدته ونجحت فى اعطائه مظهرا من المشروعية » وفى الخطاب السادس والعشرين يقول «ان طلب ملتزمى الضرائب التاء تعهدهم عمل قذر يدل على منتهى الفجور ولكنى أيدته مع ذلك . وفى مناسبة أخرى نرى شيشرون يدفع امام مجلس الشيوخ عن شكوى قدمها الفرسان لانهم اعتبروا أن فى محاكمة القضاة الذين قلوا الرشاوى اهانة لهم . وكان فى مرافعاته لا يعلق أية أهمية على الصدق ولايأنف عن ذر التراب فى أعين القضاة . ولقد برأ موناتيوس ورفع هذا الاخير دعوى على أحد أصدقاء شيشرون فلامه على جحوده بقوله «انك تعرف تماما ، ياموناتيوس انك فى مناسبة قريبة لم تبرأ لانك برىء بل لانى رميت التراب فى أعين القضاة لدرجة جعلتهم يعجزون عن تبين حقيقة أعمالك السيئة »

بين يدى عشيقته پروسيا التى يرجع إلى سيطرتها على كتيجوس ان لوكولوس عين جا كا على سيليسيا وعهد اليه بقيادة الحملة ضد متريداتس. فانه ، لما ذهبت عبثا كل محاولات لوكولوس ، اجتهد فى ان يكسبها لصفه ونال رضاها بالهدايا وبالتملق فضلا عما تجده امرأة طموحة من تحقيق لغرورها حين ترى نفسها محط آمال رجل عظيم من طراز لوكولوس .

وكان لنساء أثينا تأثير كبير على السياسيين . فى عهد بيركليس ، أوقعت اسبازيا فى شباكها رجالا معهودا اليهم بالأعمال العامة . وكان بيركليس من زوارها الدائمين . ومن أجلها هجر زوجته الشرعية ، وكان من تأثيرها عليه أنه ، بطلب منها ، فصل فى الحرب السامية لصالح ميليتيوس . وكان ملوك العجم ، لعلمهم بتأثير الغانيات اليونانيات على رجال السياسة ، يستعينون بهن ليكسبوهم لقضيتهم . (١)

وأظن أنى قلت ما يكفى لأثبت أنه عند ما يرتكب الساسة أمورا معيبة فهم يفعلون ذلك غالبا إشباعا لرغبة نسائهم أو عشيقاتهم فى الترف . ومع ذلك فللفساد السياسى أسباب أخرى . فلكم رأينا سياسيين يختلسون حبا فى جمع الكنوز الفنية والعاديات والتماثيل

---

(١) بلوتارك حياة بركليس . وقد ألقى أبا مينونداس برجل مسكين فى غياهب السجن لخطأ ارتكبه فرجاه صديقه پلوپيداس أن يرد له حريته فرفض ولكن بعد قليل رجته فى ذلك امرأة لها به صلة وثيقة فلم يسعه إلا أن يقبل رجاءها قائلا « إن مثل هذه الخدمات هى التى تقدم للصديقات والعشيقات لا للقواد »

والصور . وكان الحاكم ليسينيوس يحمل فى الطرقات على سرير مغطى بالورود عند بحثه عن الكنوز الفنية . وكان فيريس ذلك الرجل الفاسق يحب التماثيل حبا جما . و « التماثيل » هى عنوان خطاب شيشرون التاسع ضدفيريس ، وهو عبارة عن تعداد للكنوز الفنية التى اختلسها ذلك القنصل غير النزيه . وليس من المستحيل أن يعشق الانسان التماثيل ويعيش حياة منظمة ومع ذلك فقد قيل « التماثيل والأخلاق الطيبة لايجتمعان » . والواقع ان الذوق الفنى والفساد يسيران جنبا لجنب . وقد يظن أن حب الملذات يهبط من حرارة النزاع السياسى وان الطمع يقمع الشهوات ومع ذلك فالتاريخ يرينا أن السياسيين يطلبون ملذاتهم فى بينما يخفقون التبذل اطاعهم الجديدة لا يتنازلون عن متابعة ملذاتهم حتى إبان الحروب الأهلية ، وان التبذل كثيرا مايساير الاضطهادات وان الحرب ، أهلية كانت أو أجنبية مشجعة لهم فى طلب الملذات وبينما كان انطونى يعد الحرب على قيصر كان منهمكا فى كل أنواع التبذل فى جزيرة ساموس بينما كانت بقية العالم المسكون فى العويل والبكاء والدموع . وعاد انطونى إلى حياة الفجور حتى بعـــد هزيمته فى اكسيوم . وكانت الفترة بين معركتى فارساليا واكسيوم مشغولة بحفلات وأعياد تذكرنا بالحفلات التى أقيمت فى باريس عقب حرب السبعين وبجرائم الكومون . وفى تلك الأعياد بدا الرجال من أصحاب المكانة والجاه متنكرين بملابس حيوانات

ويقول المسيو بواسيه إن سياسيا عظيما هو القنصل بلانكوس روى مثبتا بظهره ذيل سمكة ، وقد لون نفسه بلون أزرق ووضع الغاب بشكل تاج على رأسه ليرقص رقصة (جلوكوس) إله البحر فى عشاء اقامته كليوبترا . ويذكر مونتانى حالة ملك من ملوك نابولى اتخذ من تحقيق شهواته الغرض الأول لأطماعه . ويمكن أن يقال كثير مثل هذا عن السياسيين الذين ينظرون الى السياسة كوسيلة للحصول على الملذات التى هى مطلبهم الأول والاخير .

ولا تردّ المصائب العامة ـ الحروب والنزعات الأهلية ـ الفاسدين والفسقة إلى تفكير أدق ، بل هى على العكس كثيرا ماتدفعهم إلى الرغبة فى اطفاء ظمأهم للملذات . ففى أثناء انتشار الطاعون اندفع الآثنيون خلف شهواتهم بشكل جنونى ، فقد فقدوا كل تقدير لشىء سوى الملذات السريعة واعتبروا أرواحهم وأملاكهم زائلة فوجهوا أفكارهم شطر الملذات . وكانت المسارح فى أيام الارهاب مزدحمة كالمجازر وساحات الاعدام وكان الرقص يدور فى بلاط الملك شارل السادس بينما أصدقاؤه يذبحون . وفى بلاط هنرى الثالث كانت المبارزات والاغتيالات تتناوب مع الحفلات والمراقص . وفى عهد شارل الثانى ملك انجلترا كانت الأعياد تتبع تنفيذ الاعدام ، وفى ابان الحروب الدينية عادت القسوة والفجور سيرتها . وكانت كاترين دى مـــدسيس تحيط نفسها بالوصيفات لتضم زعماء الاحزاب اليها .

وكان اسراف الساسة فى الملذات شائعا فى جميع عهود الفساد السياسى ، ويقول تاسيتوس « إن الاسراف فى الطعام كان يدفع لاسراف لامثيل له ابان المائة سنة التى مرت بين معركة اكسيوم والنزاع الذى سلم الامبراطورية إلى جالبا » . وكان الشره غير المكبوت يسعى بغير انقطاع لايجاد أصناف جديدة وأنواع طازجة تلذ الحلق . وكان الطاهى الماهر يتقاضى أجرا باهظا ، فقد دفع سالوست مائة ألف سسترس الى طاه ، وأهدى أنطونى منزلا لأحد الطهاة لأنه أعد له عشاء كما يبغى ، وكانت داره تعج دائما بالمضحكين والندماء ، والظرفاء يضحكون ويمزحون . ولما كان بومبى قنصلا كان يسلى نفسه بالولائم والحفلات . وفى ذات يوم وهو يغتسل استعدادا للجلوس على المائدة ، اقترب منه هيبتيوس وهو رجل كبير المقام ليطلب منه عونا . ولكن بومبى مر من جواره بعظمة ولم يعره أقل التفات الا قوله له « لقد أفسدت على طعامى !! » . وظلت ولائم لوكولوس مشهورة . ولقد كلفته اكلة عرضية اقامها لشيشرون وبومبى خمسين ألف درهم من الفضة . وكان سيلا مسرفا للغاية ، فلما ماتت امرأته ميتيلا صار يعزى نفسه باقامة حفلات كانت تحوى جميع أنواع الملذات والفجور . وبعد وفاة زوجته ببضعة أشهر قابل فاليريا زوجة الخطيب هورتنسيوس فى المسرح وتزوجها ، ولكنه استمر مع ذلك يحتفظ فى داره بالنساء والموسيقيين والراقصات والندماء والمغنين

والشعراء ، الذين كان يحتسى الخمر بحضرتهم : ويصرف وقته فى الترهات طول اليوم على أسرة وثيرة .

ويقول بلوتارك إن كريتيس الفيلسوف اعتبر أن المنازعات الأهلية والطغيان يسببها فى المدن الترف والملذات كما تسببها أمور أخرى فهو لذلك يقول « اياكم ان تسببوا الحروب الأهلية بزيادة اللحوم بدل العــدس ، أى بالصرف أكثر مايبيحه إيرادكم ، وعلى كل شخص أن يراقب نفسه » وأبدى المستشار لوبيتال نفس النصيحة اثناء الحروب الدينية فقد لاحظ أن حب الملذات والاسراف فى الصرف والترف فيما يختص بالمائدة يدفعان الى الحروب الأهلية فسن قوانين ضد الترف ذهبت كغيرها من القوانين المماثلة بغير جدوى . ولقد ضرب من نفسه مثلا طيبا فى بساطة المأكل . ويروى برانتوم انه تعشى عند لوبيتال بلحم مسلوق وقدّم لهم ، بدل الطعام ، حديث شهى ولفظ رقيق وأحيانا نكتة تثير الضحك .

ان المطالب البسيطة المعتدلة والحياة المنتظمة والقناعة هى أكبر ضمان ضد الفساد السياسى . فعندما بحث رسل السامين عن ماركوس كوريوس ليعرضوا عليه مبلغاً كبيرا من الذهب وجدوه يأكل طعاما بسيطا ، فلما حاولوا إقناعه بقبول هدايا هم أجابهم بقوله : « إن الرجل القانع بمثل هذا الطعام ليس فى حاجة الى الذهب » . وتحدث ايامنندياس عن مائدة طعامه ، وكانت بسيطة ، فقال « إن مثل هذا الطعام لا تزوره الخيانة قط » . وأرسل الاسكندر خمسين تالنتا الى اكزينوكراتس

فدعا هذا الأخير الرسل وقدم لهم عشاء بسيطا ، فلما أرادوا فى الغد أن يقدموا له المنحة قال لهم «ماذا ؟ ألم يتضح لكم أمس من بساطة مائدتى أن لا حاجة لرجل مثلى للمال ؟ » ويروى هلفيسيوس ان وزيرا انجليزيا زار أحد نواب المعارضة بقصد شراء صوته فوجده يتناول طعامه وهو عبارة عن اللحم والماء ، فقال له عضو مجلس العموم « كنت أحسب ان بساطة أكلى تدفع عنى الاهانة التى ينطوى عليها عرضك ؟ » ولقد صدق القديس بولس حين قال « كن قنوعا » فالقناعة وان بدت فضيلة صغيرة فأن لها تأثيرا عظيما فى سلوك الناس . فلو ان ميرابو كان قنوعا وكان أقل تراميا على الملذات ، بما فيها ملذات الطعام ، لما قبل من الملك أربع كمبيالات كل منها بمبلغ ٢٥٠٫٠٠٠ من الفرنكات ومرتبا شهريا قدره ٦٠٠٠ فرنك ، وسداد جميع ديونه أيضاً . ولكنه لسوء الحظ ، عند ما تراكمت عليه الديون ، لم يستطع ان يقلع عن الطاهى والخادم والسائق والخيول والعشيقات المتعددات [١] .

ودفع دانتون ديونه من مبلغ ال ٥٣٠٠٠ فرنك التى دفعتها له مارى انطوانت لأنه كان يحب الملذات والنساء وحياة الترف . وكلنا يعرف الدور الذى لعبته ملذات المائدة فى حياة تاليران وغيره من الساسة المعاصرين .

(١) لقد قتل ميرابو نفسه بالافراط فى الملذات وكان يستطيع ان يقول كما قال دانتون : « لقد اشبعت شهواتى واستطيع الان أن أستريح »

و لثيرا ما يمكن البحث عن أسباب الفساد السياسى فى الشره وحب الترف والملذات . ولقد ألف مكيافلى كتابه « الأمير » لاسرة ميديسيس التى سجنته وعذبته ، ظنامنه انه يستطيع الحصول على وظيفة بالالتجاء الى التملق الدنىء وبانكار مبادئه السابقة وذلك لتبذله واحتياجه . ولقد اعترف هو نفسه بانه اعتاد البذخ فلم يعد يستطيع ان يعوّد نفسه الاقتصاد . ولم يدفع لويس الخامس عشر على الاشتراك فى (تحالف المجاعة) الا رغبته فى الصرف على ملذاته ومباذله . وكذلك كان دياتس كوبير وتست من رجال الملذات .

الفساد الانتخابى

كانت نصيحة مكيافلى للبابا ليو العاشر : «دع للشعب انتخاباته فى الظاهر ، فاذا لم تحقق رغباتك تصرف بالنتيجة كما تهوى ، إما بشراء الأصوات أو بابدالها أثناء الفرز» . ما أكثر الأمراء والوزراء وصغار المكيافليين الذين طبقوا تلك النصيحة ليصلوا عن طريقها إلى السلطان أو ليحتفظوا به ! !

ولما كان فرانسوا الأول وشارل الخامس يتنازعان لقب امبراطور جرمانيا ، كانت أسلحة الحرب بينهما أكياساً مملوءة ذهباً . وطال بينهما الأخذ والرد لأن أربعة من الناخبين من رؤساء الدول كانوا يبيعون أصواتهم على التوالى ، لهذا مرة ولذاك أخرى . هذا مع أن العرش الامبراطورى كان بين يدى سبعة ناخبين كل منهم كبير بين اشراف الامبراطورية . وكسب شارل الخامس المعركة لأنه وزع ، فى اللحظة الأخيرة ، ثلثمائة الف من الكورونات .

ولما كان عرش بولندا بالانتخاب ، كان المال هو قوام انتخاب الملك . ويقول فردريك الثانى : « كان العرش يباع ويشترى بكثرة حتى خيل للجمهور أنه سلعة معروضة فى السوق العامة »

وأدهش الفساد والفوضى السائدان بولندا فى القرن الثامن عشر كوندياك حتى تنبأ بأن هذه الحال سوف تقضى حتما على المملكة .

وكان المظنون ، قبل تجربة الانتخاب العام ، أن الفساد لن يتطرق اليه ، وكان القائلون بذلك يستندون إلى هذه الفقرة من أقوال ارسطاليس : « إن الجموع الكثيرة ككمية الماء الكبيرة أقل تعرضاً للفساد . فالأغلبية أقل تعرضاً للفساد من الأقلية » ويقول مكيافلى : « القليل يكفى لافساد القليل » . وفى الوقت الذى كان من الميسور فيه التأثير على الانتخاب المقيد بالارهاب أو الرشوة كان يبدو أن الانتخاب العام يكفل استقلال الناخبين ، لذلك كتب توكفيل يقول « إنه لا بد من شراء عدد كبير جداً من الأصوات للوصول إلى الغرض المطلوب » .

تلك كانت أمان طيبة ولكنها مع الأسف لم تتحقق ، فالانتخاب العام ، كالانتخاب المقيد ، كلاهما ميسور إفساده . فليس من المحتم شراء أصوات جميع الناخبين بل يكفى شراء أصوات زعمائهم الذين يتبعهم الناخبون كما يتبع قطيع الغنم راعيه .

والحكومات التى تكثر من الاشادة بفضل الانتخاب العام هى

أول من يفسده . ولو أنها كانت مقتنعة بحكمة الشعب لما حاولت التأثير عليه ولتركته يبدى رغباته حراً . ولكن الواقع أن الحكومات ، بالرغم من اشادتها دائماً بفطنة الشعب وقوة ادراكه تعامله معـــاملة القاصر ، وتحمله على انتخاب مرشحيها بالوعود والتهديد واستغلال النفوذ . ونتيجة مثل هـذه الانتخابات تدعو إلى السخرية .

فلا تكاد حكومة تستولى على الحكم بقوة انقلاب تحدثه إلا وتطلب إلى الانتخاب العام أن يقر دستورها الجديد فيبادر الناخبون إلى إقراره . والانتخاب ، فى مثل هذه الأحوال ، هو مجرد استمساك بالشكل . إذ ماقيمة انتخاب يطلب من الجنود ، تحت سمع قوادهم وبصرهم ؟ ويشير المـارشال سان سير إلى الأصوات التى أخذت تأييداً لدستور السنة الثالثة من الجيش وهو تحت السلاح ويقول بحق : « لقد كانت إحـــدى الحيل السياسية التى ينخدع لهـا الشعب الفرنسى !! »

وتشترى الحكومات أصوات المدن بوعود بالمساعدة وبتنفيذ أعمال عامة ، كما تشترى أصوات الناخبين أصحاب النفوذ والتأثير بالتلويح بالوظائف والأوسمة ، وأصوات الموظفين بالوعد بالترقية أو التهديد بالعزل . وهى تشعر الناخبين المستقلين بأن لاينتظروا من الادارة مساعدة .. بل ولا عدلا . فمعابد الدوائر المستقلة تهمل كما تهمل الطرق الموصلة اليها ، وماعلى الدوائر

الانتخابية التى تأبى انتخاب المرشح الحكومى إلا أن تتحمل عداء الحكومة .

ويقول لابروبير : «لايمانع الناس فى أن يصبحوا عبيداً لشخص واحدليستطيعوا بدورهم أن يسودوا الآخرين !! » فقدكان الأشراف فى أيامه يقنعون بأن يستعبدهم الملك ليكسبوا من مكانتهم بالبلاط الحق فى التظاهر بالأبهة والاستبداد بالآخرين . وفى أيامنا يحنى الرجال السياسيون ذوى المطامع رؤسهم أمام الشعب واللجان الانتخابية لينالوا ، بذلك الذل والخنوع ، تحقيق أغراضهم .

وسمع ماكسيم دوكان سفيراً سابقاً يعرّف السياسة بأنها ابتزاز المال بطريق الرشوة والاتجار بالنفوذ والسرقة غالبا ، فقال « إنه لكتاب طريف يمكن أن يؤلف بعنوان : المختصر المفيد فى المرشح الكامل» . ولكن المختصر موجود ، وقدألفه من عهدطويل وبطريقة جدية تزيده سخرية ، كنتوس شقيق شيشيرون بعنوان « مرشح القنصلية » وهو بحث طريف مختصر عن الرجل ذى النفوذ الخفى يشرح فيه كنتوس جميع الحيل التى يجب أن يلجأ إليها المرشح ، ويشير على أخيه باستعمالها .

ويقول كنتوس « إنه يجب على المرشح أن يكون ظريفا مسرفا فى إظهار محبته وتعلقه ، وأن يحضر الموالد والأسواق ، ويدعو كل ناخب باسمه مراعيا لتحقيق ذلك أن يصطحب معه ناخبا ملما بأسماء أهل الجهة يسر اليــــه اسم الناخب بطريقة غير

محسوسة ، فان سكان المدن والقرى يظنون أنهم أصبحوا أصدقاءنا لمجرد أننا نعرف أسماءهم » . واتبع شيشيرون نصيحة أخيه وكتب له يقول إنه كان أكثر لينا من الشعرة . ويروى لنا بلوتارك أنه حمل نفسه عبئا ثقيلا باستظهاره أسماء جميع ناخبيه ، فعود نفسه أن يعرف ، لا أسماء الناخبين ذوى المكانة فحسب ، بل الحى الذى يقطنونه من المدينة ، والممتلكات التى لهم بالأرياف ، والأصدقاء الذين يخالطونهم ، والجيران الذين يتزاورون معهم »

فالظهور مع الناخبين والتحدث إليهم وهز أيديهم كل هذه أمور ذات أهمية عظمى ويقول شيشيرون : « لقد تصرفت بطريقة جعلت مواطنىّ يروننى كل يوم وأكثرت التردد على الملعب . » ويرسم شيشيرون صورة المرشح فى دفاعه عن مورينا فيقول : « إنه كان يظهر فى الملعب ، وفى ميدان مارس إله الحرب ، ويتظاهر بأنه مطمئن ، ممتلىء أملا ، ويحيط نفسه بحاشية كبيرة لأن الناخبين لا يمنحون أصواتهم من لاثقة له بنفسه فى الفوز فهم يقولون لأنفسهم « سأمنح صوتى للآخر مادام هو نفسه يائسا من فوزه »

ويجب على المرشح فى المدن الكبيرة أن لا يقنع بأن يستصحب أصدقاءه بل يحسن صنعا لو جمع حوله نفراً من الأنصار المأجورين يصفقون له ويهتفون باسمه ويسبون خصومه .

وعلى المرشح بصفة خاصة أن يعنى بأن لا يخلق له أعداء وأن لا يفضح الاستغلالات أو على الأقل أن ينتظر انتهاء الحملة

الانتخابية قبل أن يقدم على ذلك . وقد أهمل أحد اصدقاء شيشيرون ذلك الاحتياط فقال له : « إنك يا سرفيوس لا تعرف كيف ترشح نفسك . ولقد قلت لك ذلك مرارا وكنت كلما رأيتك تتحدث أو تعمل بنشاط أقول فى نفسى إنه يبدى من الشجاعة ما هو جدير بعضو فى الشيوخ لا بمرشح . . . فهل معنى ذلك أن فضح المظالم محرم ؟ لا ، بل هو واجب ، ولكن فترة الترشيح ليست الفترة التى يجوز فيها الاتهام . »

ويقول شقيق شيشيرون بدوره : « إذا اضطر المرشح أن يتصنع فان ذلك التصنع الدنىء والمدل ، فى أى وقت آخر ، يصبح ضروريا حين يرشح الانسان نفسه . . . وليس للمرشح خيار ما دام يرى أن نظراته وملامحه وألفاظه يجب أن تنطبق على آراء وأذواق جميع الذين يتصل بهم »

وأهم ما فى الأمر هو أن يجعل المرشح كل طبقة من الناس تعتقد انه معتزم خدمة مصالحها ، « فاعمل بحيث يظن السناتو إنه سوف يجد فيك نصيرا لسلطته ، والفرسان والأغنياء ومحبو القانون يحكمون عليك بأعمالك ويرون فيك صديقاً للنظام والهدوء العام ، وأن ترى الجموع فيك (من اللهجة الشعبية لخطاباتك فقط) . . . قاضيا لن يخاصم مصالحهم . »

ولما كان نفوذ النبلاء لا يزال كبيراً نصح كنتوس لأخيه أن يطلب تأييدهم باقناعهم انهما ، هو وأخوه ، فى قرارة نفسيهما ،

أقرب إلى الأخذ بمبادىء النبلاء والبعد عن آراء الشعب ، وأنه إذا كانت على خطبهما مسحة شعبية فذلك رغبة منهما فى اكتساب تأييد يومى . وكان شيشيرون لا يتحرج فى علاقاته السياسية ، يطلب تأييد العظماء والشعب والأشراف والسفلة . وكسب بتملقه رضاء الأحزاب جميعا . وقد كتب الى اتيكوس يقول « لم أفقد احترام المواطنين الأشراف وازددت مكانة فى نظر الأوغاد » .

ويرى شيشيرون أن على المرشح أن يقدم الوعود دائما ، فلا أهمية لأن يعجز بعد ذلك عن تحقيق تلك الوعود ! انه يتعرض حقا للعتاب وعدم الرضا بعد انتخابه ، ولكنها مضايقة تاتى متأخرة ولا خطر منها ، اما وعوده فتضمن له عدداً كبيراً من الأصوات . وليس المرشحون ، فى هذه الأيام ، أقل اسرافا بالوعود . فهم يعدون البعض بوظائف حكومية ، والبعض الآخر باصلاحات يعلمون انها غير عملية . فاذا انتهت الانتخابات نسيت تلك الوعود ، وتضايق الشعب لعدم تحقيقها فيصغى إلى الدعاة ، الذين يبنون مجدهم على مجموع هذه الخيبات ، ويقولون له : « إن المعوزين لا يمكن أن يجدوا نصيراً لهم الا معوزا مثلهم ، فالمواطنون الفقراء والمساكين لا يمكن أن يثقوا بوعود الأغنياء ذوى السلطان . إن المعوزين فى حاجة إلى زعيم جرىء يشعر بشعورهم ويمشى فى طليعتهم . » (١)

ولقد كان هناك فى العهود القديمة أمراء يتنزلون إلى تمثيل

(١) شيشيرون : (الدفاع عن مورينا بند ٢٥)

أدوار المغامرين ، وزعماء عصابات يستأجرون لكل حزب بغير فارق . وللسياسة اليوم زعماء عصاباتها الذين يبيعون نفوذهم الانتخابى لمن يدفع اكبر ثمن . انهم متعهدو انتخابات حقيقيون ، يبذل المرشح كل جهده ليكونوا فى صفه ، لأنه إذا ضمن تأييدهم فان الناخبين يتبعونهم كالقطيع من الغنم . وكان أصحاب النفوذ الخفى هؤلاء موجودين فى روما ، وكان كنتوس يلح على أخيه شيشيرون بالحصول على خدماتهم واكتسابهم لقضيته « بأية وسيلة كانت » وكان وكلاء الانتخابات فى روما من الكثرة بدرجة أنهم كانوا مقسمين إلى عدة أقسام ، فقسم تخصص فى شراء الأصوات ، وآخرون تخصصوا فى دفع الثمن ، وقسم ثالث يحتفظ بالمال الموعود للناخبين لأنهم أصبحوا يشكون ولا يثقون بالوعود ، ويصرون على ان تدفع النقود الى يد أمينة . ويروى شيشيرون ان فيريس ، ليضمن نجاحه ، أودع عشرة اقفصة مليئة بالذهب عند أحد أعضاء السناتو لاستعمالها فى اللجنة ، وأن موزعا تعهد بضمان النتيجة نظير خمسمائة ألف من السيسترسات أودعت سلفا .

ولا يزال أكثر المرشحين ثراء وكرماً يفضل فى أيامنا هذه . فالرجل الثرى يبحث له عن دائرة انتخابية فقيرة ويفوز بأصوات ناخبين لم يسبق لهم أن سمعوا باسمه قبل افتتاح الحملة الانتخابيـة .

ولقد انتخب نائب فى جنوب فرنسا فلما سئل عما اذا كانت حملته الانتخابية كلفته مليونا من الفرنكات أجاب ، دون تردد ، انها لم تزد

على مائة الف من الفرنكات . فاذا كان فى استطاعـــة المرشح أن يصرف مائة الف من الفرنكات فى دائرة فقيرة فان نجاحه مضمون .

وسلطان المال فى الانتخاب ملموس فى انجلترا كما هو فى فرنسا . ولقد لفت الأمر اهتمام البرلمان الانجليزى بصفة جدية لحاول أن يضع حداً للمصاريف الانتخابية بتحديد اقصاها . وحاول كاتو قبل ذلك أن يقضى على الفساد فى روما ولـكن دون جدوى . وقد لاحظ أن أشخاصا يمرون فيشترون الأصوات ويدفعون ثمنها فوبخ الشعب لهذه التجارة الدنيئة المخجلة ، ورفع دعوى على مورينا الذى انتخب قنصلا برشوة الناخبين ولـكن شيشيرون نجح مع ذلك فى الحصول على براءة مورينا وأخذ يسخر من تشدد كاتو وأنصاره .

وقديما كان يتحتم ـ للوصول الى السلطة ـ أن يكون الانسان جنديا أو قسيسا . اما الان فبفضل تقدم فن الخطابة صار يكفى أن يكون الانسان قادرا على الكلام ليتزعم الشعب ، وهذا يفسر كثرة المرشحين من المحامين . وقدم كنتوس شيشيرون نصائح خاصة لهذا النوع من المرشحين لأنه « لما كان المحامون يكسبون عداوة خصوم موكليهم بمرافعاتهم ضدهم فهو يشير عليهم بأن يعتذروا اليهم بضرورات المهنة ويعدوهم فى المستقبل بالاخلاص لمصالحهم ووضع قوة بيانهم فى خدمتهم » .

وعلى المرشح أن لا يقنع بأن يكون كريما ، بل عليه ، كلما أدى

خدمة ، أن يدل مظهره وملامحه على شدة الاخلاص والحماس ، فان الناخبين لا يكفيهم أن يحاول المرشح إرضاءهم بل يريدونه فوق ذلك أن يبدى نشاطا وهمة ويظهر لهم الاحترام . . ، فان الناس يهتمون بالكلمات والمظاهر أكثر من اهتمامهم بالخدمات والحقائق .

وعام الانتخابات عند ناخبي الريف عام مزدوج المحصول ، كثير المآدب ، يعدهم المرشحون فيه بالشراب وأحيانا بالطعام . وترجع عادة المآدب هذه إلى أزمنة قديمة جدا ، فقد كانت معروفة فى اثينا وروما . (١) وساعدت هذه العادات الفاسدة على سقوط الجمهورية فقـــد كان الرجال الطامحون الذين يريدون استعباد الشعب الرومانى بقصد اكتساب الشهرة يلجأون الى هذه الوسائل ويولمون المـآدب ثم لمندوبى الشعب ويجتهدون فى كسب هذه الحثالة التى يسهل التأثير عليها متى كانت حلوقها قد تذوقت الطعام والشراب . وفى مسرحية اريستوفان المسماة «الفرسان» يجرى هذا الحوار بين الشعب والمرشحين :

يقول المرشح الأول : «خذ هذا الشراب» ، فيجيب الشعب «ماألذ هذه الخمور» ويقول المرشح الثانى : «جرب هذه القطعة من الكعك الدسم واحكم من الذى يعاملك أفضل معاملة ، أيها الشعب ، انت ومعدتك» ويتلذذ الشعب بالخمر وبالكعك ويقف

---

(١) يقرشيشيرون الموائد التى يعدها المرشحون لناخبيهم فى مصلحة انتخابهم. ويتهم كاتو بالتشدد لاعتراضه عليها .

حائراً لا يدرى ماذا يختار من بين الأشياء الطيبة المعروضة عليه ، فيفحص بعناية مزايا كل مرشح من حيث أطعمته ويتركهما ، بقدر الامكان ، فى شك ، ليدفعهما الى مزيد من الكرم .

ولقد كان يرضينا أن يقنع المرشحون بتقديم الخمور والكعك الى الشعب ولكنهم يقدمون اليهم فوق ذلك سفسطة ووعودا كاذبة ويستعينون بالآذان استعانتهم بالبطون .

ويؤدى الفساد الانتخابى غالبا إلى الغش . فتؤخذ أصوات الغائبين والأموات ، وتدس أوراق فى صناديق الفرز قبل بداية الانتخاب ، وتعد أحيانا اوراق انتخابية لتدس مكان الأوراق الموجودة بعد اخراج الجمهور من غرفة الانتخاب باحدى الحجج . وتكوين اللجان الانتخابية ، ذلك الأمر العظيم الأهمية ، يتم غالبا بطريق الخداع . فقد ينجح الحزب المتولى السلطة ، بالاتفاق مع العمدة ، على احضار بعض أنصاره الموثوق بهم يمضون الليل بطوله فى غرفة الانتخاب أو يدخلون تلك الغرفة قبل فتح دار البلدية وبذلك يضمنون أن تكون اللجان من أنصارهم . ومن الأمثلة السائرة فى الريف أن من يسيطر على اللجان الانتخابية يسيطر على الانتخابات ، وذلك لسهولة تزوير النتيجة . ولقد مرت علىّ ، أثناء تجربتى القضائية ، جميع أنواع التزوير التى ذكرتها ، ورأيت أقليات تضمن لنفسها الأغلبية بالغش وتبقى فى الحكم عدة سنوات .

ومادام فى مقدور المرشحين أن ينجحوا بالغش والتملق والفساد ،

فلاغرابة فى ان يهبط المستوى الخلق و الثقافى للمجتمعات السياسية إلى ذلك الدرك المنحط وأن يصبح السياسيون من ذلك الطراز الصغير الحقير . اذ يكفى أن يكون الانسان منهم جهورى الصوت مرن الضمير ، وإن تجرد من حب العمل أو الذكاء أو الأمانة ، ليمثل الشعب وينال شهرة ويهاجم الوزارة ويتناقش داخل البرلمان فى أخطر المسائل وأن لم يفقهها ، ويغير التشريع ويعين الموظفين ويفصلهم . ومادام الأمر كذلك ، فقد رؤى أشخاص مريبون يلقون بأنفسهم فى أحضان المعمعة السياسية التى يتجنبها النزيهون المتواضعون والتى يضمن رجال من أمثال هيربنيوس (١) أن يصلوا فيها إلى الذروة وهكذا يغتصب الأدعياء السلطة من العقلاء فيعملون « كبحارة سفينة يقصون الربان عن محرك القيادة ويقبضون عليها ، فينهبون المؤن والشراب ، ويفرطون فى الأكل ويقودون السفينة كما ينتظر من أمثال هؤلاء أن يقودوها » . (٢)

ولا نزال نجد بين رجال السياسة أفراداً من ذوى الادراك والتمييز ، ولكن أصواتهم لا تسمع ونصائحهم لا تتبع ، لأن الكبرياء والحسد والجشع هى العوامل الوحيدة المحركة لقلوب الرجال .

وكان من رأى أرسطاليس أن الجمهور فى أغلب الأحوال أحسن وزناً للأمور من أى فرد كان ، وأنه يحسن أن يعهد إلى

(١) خطيب الشعب الذى نعته شيشيرون بالضعف

(٢) أفلاطون ـ الجمهورية ـ الكتاب السادس

الشعب حق مناقشة الأمور العامة وتوزيع العدالة . كذلك قال مونتسكيو « إن الشعب يختار ممثليه بادراك يدعو إلى الاعجاب» . ولكن التاريخ وتجاربى لا يسمحان لى باقرار وجهة النظر هذه ، فلطالما افتقرت الديمقراطية الآثينية ، التى لم تكن إلا أرستقراطية مثقفة ، إلى حسن الادراك . ولكم اضطهدت أفاضل الرجال ونفتهم وحكمت عليهم بالاعدام على حين أغدقت التكريم على من لاقيمة لهم من الرجال . فقد حكم على سقراط وفوسيون بأن يشربا السم ونفى أرستيدس ، وألقى بملتيادس فى غياهب السجن ومات تيموستكل منفيا وهكذا . وحقدت الديمقراطية الآثينية على الرجال الذين ميزتهم كفاياتهم ونزاهتهم وأقصتهم من المجتمع . ويرى مونتسكيو فى هذا الاقصاء ، بقرار من الشعب ، ما يدعو إلى الاعجاب وأنه دليل على اعتدال الحكومات التى لجأت اليه . ومع ذلك ، فقد كانت الأحكام تصدر بالنفى عشر سنوات دون أن يسمح للمتهم بالدفاع عن نفسه .

وكثيراً مارفعت الديمقراطية الآثينية رجالا عجزة لاقيمة لهم إلى مراتب الشرف . فقد حكم آثينا ، بعد بيريكليس ، يوكراتس المعداوى وليسيدس تاجر الغنم . واشتهر هيبربولس تاجر الفوانيس فترة من الزمن . وقد أشار اريستوفان ، فى كثير من السخرية ، إلى ميل الشعب إلى العاجزين من الرجال الذين يتملقونه . فنى مسرحيته الفكاهية « الفرسان » عند ما يريد القائدان ديموستين

ونسياس أن يتخلصا من أحد خطباء الشعب ، وكان رجلا سافلا ، مفتريا ... يلعق الأيدى كالكلب ويتملق الشعب ، ويداهنه ويخدعه ، عرضا السلطة على جزار وقالا له « أنت اليوم لاشيء ، وستصبح غداً كل شيء ، على رأس آثينا المغتبطة » . فيسألهما الجزار : « كيف يمكن لجزار أن يصبح رجلا عظيما ؟ » فيجيبه القائد ديموستين « هذا هو سر الموضوع . إنك ستصبح عظيما لأنك رجل دنيء سافل ورببب أسواق » .

ولقد خُلق الناس بحيث يشعرون بالغيرة والحقد على الذين يمتازون عليهم . فكفاية ميرابو أكسبته خصوماعديدين . وأقصى الجمهوريون أثناء الثورة من إحزابهم ، لالأنهم حاولوا الدفاع عن الحرية التي عرضتها الروح اليعقوبية للخطر ، بل لأن تفوقهم العقلى لم يكن ليسمح بالتجاوزعنهم . وكم أحاطت الريبة بقوادمنتصرين بدافع من الحسد !! فلم يكن يشتهر سياسى فى آثينا بالاستقامة والكفاية حتى يتهمه خصومه بأنه يسعى إلى الطغيان . فالحسد هو الذى جعل تيموستكل يتهم إريستيدس ، ولما امتد نفوذ بطل سالاميس أثار الغيرة ونفى . واتهم سيمون وهو من خيرة قواد آثينا ، بالاختلاس ظلما وأقصى ، وتسبب بيريكليس فى نفى توسيديد وهكذا

وكثيراً ما كان شعب الجمهوريات الآثينية عند انتخاب قضاته يفضل العجز على الكفاية ، ويمنح الوظائف لمن لا يستحقونها . وقد رأينـــا الشعب فى فرنسا يفضل مدرساً على المسيو شارل

دى ريموزا والمسيو تين . ورأينا مارا ، أثناء الثورة الفرنسية ، معبود الفرنسيين . ولقد أحب الشعب الدجالين والسفلة ، ولم يحب الملوك المقتصدين الذين خلت حياتهم الخاصة من كل شائبة كلويس الثالث عشر ولويس السادس عشر ولويس فيليب مثلا ، بينما كان الرأى العام على العكس يتساهل مع السفهاء غواة الحروب والفساد . ويفضل الشعب الدجال الذى يعده المستحيلات ويستبقى الفوائد لنفسه ، على الرجل المخلص الذى ينصح له بالعمل والاقتصاد والاعتدال ، ويقصى عن إدارة دفة الأمور الرجال الممتازين عقلا وخلقاً لأنه يغار منهم ويفضل عليهم رجالا عجزة على شاكلته ، اذ كل قرين بالمقارن يقتدى . ولا تزال الملاحظة التى قالها بلوتارك صحيحة « إن الشعب . الذى أراد أن تكون الأمور كلها معلقة به وبارادته لم يكن ليرضيه أن يرى رجالا يبزون سواهم بالسمعة الطيبة والأحدوثة الحسنة » .

فاذا أزمت الأمور وجد الجدنسى الشعب غيرته ولجأ الى الأكفاء من الرجال لحاجته اليهم ، ولكنه ، متى هدأت الأمور ، عاد سيرته الأولى . ويقول شيشيرون « إنه لاشىء أكثر خداعا من الانتخابات . فمن كان يظن أن فيليبوس ، برغم نبوغه وخدماته وشهرته وطيب عنصره يهزم امام هيرينيوس وأن كاتولوس مثال الدعة والادراك والاستقامة يفوز عليه مانتيوس ، وأن سكوروس ذلك الرجل العظيم ، الخطير ، المحترم الشجاع ، لايستطيع أن يفوز على

ما كسيموس؟ » . ففى عهـــد الملكيات المطلقة كان السياسيون المجربون يقصون عن إدارة دفة الحكم بفعل دسائس القصر أو مزاج عشيقات الملوك . فقد أقصى أفضل وزراء لويس الخامس عشر (دارجنسون وشوازول) لغضب مدام دى بامبادور ومدام دى بارى عليهما ، واليوم يقصى أمثال هؤلاء الرجال عن الحكم بفعل دسائس متملقى الشعب وجهل الجموع .

وربما كان اختيار الشعب أفضل لو استطاع الرجال المستقيمون من جميع الاحزاب أن يلموا شملهم وينشطوا ولكنهم فى العادة خاملون فاترون زاهدون يؤثرون الراحة وينزلون على مقتضيات الحذر الكاذب : « يا للبسطاء المساكين ، انهم يحسبون أنهم محتفظون ببركة الصيد التى يملكونها على حين تحترق البلد (١) » ويتصورون أن السياسة تدعهم فى حالهم ما داموا لا يتعرضون لها . وكان يجب أن يفهموا أن الاخطار التى تتعرض لها الهيئة الاجتماعية آتية من جهل الشعب وعجزه وان كان مصدر السلطات ، وأن واجب المواطنين الافاضل أن ينيروا الطريق أمامه ويحبوه ويخدموه ، ويبددوا أوهامه وينموا عواطفه الطيبة ، وخير من كل ذلك ... أن يفضحوا المتملقين . ذلك أن الشعب انما يقع فريسة للدجالين لأنه لم يتنور التنور الكافى ولا بد ، لخلاصه من قبضة الادعياء ، أن يتعلم . وليس يقع عبء تعليمه على الحكومة وحدها ، بل على كل

(١) شيشيرون الخطاب ٢٣ لا تيكوس

صاحب علم وثروة وفراغ . يجب ان تعتبر الأعمال العامة فى الوطن أعمالا خاصة لـكل مواطن يحب وطنه .

لقد كان افلاطون مقتنعا بأن السياسة والفضيلة لا يجتمعان ، لذلك نصح للرجل العاقل بالابتعاد عن الأعمال العامة . وقدم له أبقراط نفس النصيحة ، اذا شاء أن يعيش سعيدا . ولست أرى أنهما أصابا ، فالرجل الذى يشغل نفسه بالسياسة باعتبارها واجبا ، يجب ألا يرى فى ذلك ما يشينه بل هو واجد فى الخير الذى يؤديه ، والضرر الذى يمنعه ، ارضاء لضميره يفوق ما يحتمله من جهد .

ان الابتعاد عن السياسة خطأ جسيم لانه يترك الميدان خاليا للأمعات والعجزة . ويظن كثير من الناس أن الفساد اذا زاد عن حده يؤدى الى الخير(١) وهم لذلك لا يحركون سا كنا لوضع حد للفساد انتظاراً للخير الذى يؤدى إليه ، وهو تصرف لا يدعو للاعجاب ولا هو بالماهر ، فتقويم المنكر من أوجب الأمور .

وعندما حاول يوماً أن يقصى كاتو عن مجلس الشيوخ اجابه كاتو بأنه « لا يعنى باعمال الوطن طلبا للثراء كما يفعل البعض ، ولا ليكسب شهرة ... ولـكنه اختار الاشتراك فى حكومة البلاد بعد طول التفكير لأنه وجده عملا جديرا بالرجل الشريف ، فهو يرى لزاما عليه ، أن يحضر وأن يعنى بالامر أكثر مما تعنى النحلة ببناء الخلية التى تفرز فيها العسل » . ولو أن الرجال المحترمين يشعرون بواجبهم ، كما كان يشعر به كاتو ، لبذلوا كل جهد للاشتراك فى الحياة

---

(١) هذه الفكرة الخاطئة هى التى اقنع ميرابو البلاط بها والتى جعلت المجمع التأسيسى يمعن فى الاخطاء والشرور .

العامة ، وبدلا من أن ينظروا للديمقراطية نظرة ازدراء ، يحسنون صنعا لو أحبوها وأرشدوها وأخذوا بيدها . ولكن محبي أنفسهم ، المشغولين باعمالهم وملاذهم ، كلما رأوا فيضان الهمجية يهدد باكتساح الهيئة الاجتماعية ، يقولون ، كما قال لويس الخامس عشر : « من بعدى الطوفان » ويظنون أن النظام القائم سوف يبقى على الأقل بقدر ما يعيشون ، وينسون أنهم ، بتركهم الشهوات الضارة تنمو بغير عائق ، يسمحون للطوفان بأن يدركهم بأسرع مما يظنون .

وبعض النفوس المريرة تقول مع لابروبير : « إن الرجل الذى يحترمه أكثر من السياسى العظيم هو ذلك الذى أبى أن يكونه والذى قوّى فى نفسه الاعتقاد بأن العالم ليس أهلا بأن يعنى بأمره » . وكان على لابروبير أن يذكر ، وهو الرجل المتدين ، أن العالم جدير دائما بعنايتنا لأنه من صنع الله ، وأن ازدراء الانسانية ليس شعورا دينيا . وأنا أسلم بأن الانسانيـــة لا تسر دائما وأن لها نواحى كريهة كما أن لها دائما نواحى نبيلة . ومع ذلك ، فاذا كانت الانسانية تذنب احيانا فهى دائما تعيسة ومصائبها ، بما تثيره من اشفاق ، يجب أن تحيى فينا روح الاخلاص . لقد عارض المستشار لو بيتال ، الذى عاش فى عهد مظالم واحتمل الكثير من المحن ، روح اليأس التى كادت تستولى على الرجال الطيبين ونصح لهم بالاشتراك فى الحياة العامة قائلا « إننا مطالبون بالاخلاص ، بعد الله ، للوطن . فمتى قدمت نفسك قربانا للوطن ، فثابر ، وتألم فى خدمته الى آخر عمرك ، الى باب قبرك ، طالما كان فى حاجة الى معونتك . »

افساد السياسة للقانون

حولت السياسة القانون إلى أداة اضطهاد ونهب . فالشعوب المتوحشة تستعمل السلاح للقتل والنهب بينما تلجأ الشعوب التى تظن نفسها متمدينة فى تحقيق ذلك إلى القوانين . فالقانون يفتك كما تفتك الأسلحة ، وهو أداة قوية للهدم كالفأس ، ويجرى السلب والنهب تحت ستره كما يستتر قطاع الطرق بالغابات . وهكذا أصبح القتل والنهب جزءاً متصلا بالقانون ، وأخذ الاضطهاد والسلب شكلا مشروعا .

والاضطهاد القانونى أولى بالكره من القوة الوحشية ، لأنه يضيف إلى الظلم الرياء . ورجال القانون ، الذين يعيرون الاضطهاد ستراً مشروعا ، أضر بالانسانية من الذين يذبحون مواطنيهم .

ولقد غمرت السياسة التشريع بالاباطيل والقسوة والرياء . فليس هناك مثلا ما هو أشد فظاعة من القوانين الانجليزية لالغاء الكثلكة من ارلندا ؟ لقد تفنن المشترعون الانجليز فى سن قوانين يقول عنها برك « إنها أدهى وأقوى وسيلة للاضطهاد يستطيع

النبوغ البشرى المؤذى أن يصل إليها ليخرب ويذل ويفسد أمة ويقضى فيها على صفات الانسان الطبيعية ». ويقول كانتج: « إن هـــذه القوانين الفظيعة تبدو كأنها نتيجة أقسى المحاولات ضد الطبيعة الانسانية ، وأفظع التدابير ضد مخلوقات الله. فلقد أرادوا أن يستبقوا الكاثوليك فى حالة ذل ومهانة وجهل ، فحرم عليهم القانون شراء الاراضى أو احتراف مهنة حرة. ولم يجعل القانون تعليم البروتستانتية لزاماً ، ولكنه نفى المدرسين الكاثوليك ، ولم يحرم القانون التعبد على سنن الكاثوليك، ولكنه نفى الاساقفة وقضى عليهم بالاعدام لكى لا يعودوا ، وهكذا وهكذا. »

وكانت هـــذه القوانين ترمى إلى سلب أموال الكاثوليك واضطهادهم . ويقول والتر سكوت إن البرلمان الانجليزى أعطى نفسه حق سن قوانين لارلندا واستعمل ذلك الحق بطريقة تعوق تجارة تلك المملكة بقدر الطاقة وتجعلها تابعة لانجلترا فى تجارتها ، وتخضعها لها . وأدى التشريع الانجليزى إلى القضاء على صناعة الصوف الارلندية ، فلما اعترضت ارلندا ، قدم مجلس العموم رسالة إلى الملكة يقول فيها : « بالرغم من أن صناعة الصوف فرع من تجارة انجلترا يحرص التشريع على حمايتها فان ارلندا ، التى تعتمد على انجلترا وتستفيد بحمايتها ، لم تقنع بالحرية المعطاة لها بأن تكون بها صناعات قطنية ، وخصصت رأس مالها وما استطاعت الحصول عليه عن طريق الاقتراض ، لغزل الصوف ونسجه ،

رغبة فى الاضرار بانجلترا » . وأبدى سويفت تألمه من جشع انجلترا ونصح الارلنديين ، فى منشور وزعه عليهم ، بأن يقتصروا على منتجات ارلندا ولا يلبسوا المنسوجات الواردة من انجلترا ، فاستعدى القضاء على محرر ذلك المنشور .

ولقد ضربت المثل بالقوانين الانجليزية ضد ارلندا لاظهار كيف يتخذ الاضطهاد والسلب ثوب رياء يسدل عليه شكلا قانونيا . ومن الممكن العثور على أمثلة من هذا القبيل فى جميع تشاريع العالم .

فالسياسة المعادية للمساواة تحاول إيجاد الفروق وخلق طبقات مميزة ، وجمعيات وأنواع من الناس لاتدفع ضرائب ، وتحتكر أهم الوظائف ، ولقد منح الخالق الناس جميعاً نفس الحقوق ولكن السياسة بما تحاول من التفرقة فى الحقوق المدنية والسياسية ، تهدم ماصنعه الخالق وتقضى على التعاون الصحيح المتبادل بين الناس وتقيم الفروق حتى فيما يختص بالعدالة ذاتها . وكان الأشراف فى العهد القديم يتمتعون بميزات خاصة حتى حين يجرمون ، فلم يكن يقضى على الشريف بنفس العقوبة كبقية أفراد الناس .

والأصل فى القانون أن يحمى حرية المواطنين وممتلكاتهم ولكن السياسة كثيراً ما نجحت فى سن قوانين لمصلحة أصحاب السلطان . فحين يكون الحكم للارستقراطيين تصدر القوانين لمصلحتهم ، وحين يتولاه الديمقراطيون تتحيز القوانين للديمقراطية . وكان أفراد الشعب فى العهود السابقة محرومين فى الغالب من الوظائف

العامة ، على حين كان الاشراف يحرمون منها فى كثير من الجمهوريات الايطالية .

والأصل فى القوانين أن تكون عامة لا تمييز فيها ، ولكن السياسة تخصصها وتجعلها شاذة متحيزة .

ولقد أفسدت السياسة التشريع إلى حد أن السير توماس مور ، وهو الخبير بأمور القانون بحكم مكانته ، يقول : « كلما أطلت النظر فى قوانين هذا العالم وحكوماته لم أجد فيها ظلا للعدل والانصاف ، يا إلهى ! أى عدالتنا وأى إنصاف هذا الانصاف ؟ »

إن الاعتبارات السياسية مسئولة عن وجود قوانين مجحفة فى جميع تشاريع العالم . فالقوانين الاستثنائية هى قوانين سياسية دائما وهى الأسلحة التى تشهرها الأحزاب فى وجه خصومها . وفى سنة ١٨١٦ لم يخجل نائب من أن يقول : « لقد اقترعت فى العام الماضى على قوانين تتعلق بالأمن العام لأنه كان مزمعا استعمالها ضد المعارضة . أما الآن ، وقد أصبح من الجائز استعمالها ضدنا ، فلا أريد أن أسمع شيئا عنها » .

وفى أثناء الاقتراع على قانون المهاجرين (١) الذى يعاقب بالاعدام على جريمة الهجرة ، حاول أحد النواب أن يدافع عن الخدم الذين تبعوا مخدوميهم ، ولكن مقرر القانون أجابه « إن

---

(١) الاشراف الذين فروا أثناء الثورة

القانون المقترح قانون تقتضيه المناسبات ، فهو سلاح هجوم فما بالنا نهتم بظلم قد ينتج عنه ؟»

وكلما دعت الشهوات السياسية إلى سن قوانين مجحفة أمكننا أن نجد فى شهوات الساعة عند المشترعين ، لا أقول ما يبرر تلك القوانين ، ولكن ما يفسرها أو يخفف من وقعها . ولكن الذى يؤلم حقا ويدعو إلى اليأس أكثر من سن القوانين المجحفة ، هو محاولة رجال القانون تبريرها ، وهم يدرسونها بعد سنها بزمن وليس لهم عذر الشهوة السياسية التى تغلبت على المشترعين . فما من قانون ظالم لم يعلق عليه كتاب بالتأييد . فقد أيد جروسيوس الرق ، وبرر بلاكستون اعتبار الاخلاص للبابا خيانة وطنية عظمى ، ووضع ميرلان، الذى كان نائبا عاما لدى محكمة الاستئناف ، علمه القضائى الواسع ومهارته الفائقة كمحام ، فى تحضير ذلك الأنموذج الفذ للطغيان الماكر وأعنى به « قانون المشبوهين » .

ويقول المستشار باسكييه عن ميرلان هذا إنه لم ير فى حياته رجلا تنقصه روح النصفة مثل هذا الرجل ، فقد كان يرى كل شىء حسنا وسائغا مادام يستند إلى نص قانونى ، ولقد عمل مع رؤساء انقلاب فركتيدور على أعداد القانون الذى قضى بنفى عدد كبير من أعضاء مجمع الخمسمائة ومجلس القدماء وعضوين معتدلين من أعضاء الديركتوار هما كارنو وبارتلمى وعند ما كان وزيراً للحقانية أيام الديركتوار ، استفتته محكمة عسكرية فيما إذا كان يصح لها أن تسمح لأحد المهاجرين الذين تحاكمهم بأن يستعين بمحام، فأجابها

بأن روح القانون منصرفة إلى حرمان المهاجرين من مدافعين . وهو رد يتفق مع كلمة روبسبيير حين قال : « الوطنيون وحدهم هم الذين يحق لهم أن يكون لهم مدافع» . ولقد صاغ كامباسيريس الديكريتات التى أنشأت المحكمة الثورية ، وهذا الرجل الذى أصبح وزير حقانية الامبراطورية ، هو الذى طلب إلى المؤتمر أن يعين وزارة ثورية ، وأن يضع السلطة كلها بين يديها . وما أكثر الفقهاء الذين قبلوا مأمورية اسباغ مظاهر العدالة على إجراءات استثنائية وتبرير انتهاك الاجراءات القضائية فى المحاكمات السياسية ، فلقد أقر المحامون من أعضاء مجلس الشيوخ فى الامبراطورية الثانية قانون السلامة العامة على حين أن جنديا ، هو المارشال ما كماهون ، رفض أن يقره .

يجب أن يصاحب العلم القانونى ذكاء عاليا وروحا فلسفية فقد امتاز بورتاليس وتروبلنج ورنوار وفوستان هيلى بروح فلسفية ، ولكن رجال القانون فى الغالب عبيد للنصوص لا يفسرونها بروح انتقادية . لذلك فان الفلاسفة ، لا رجال القانون ، هم الذين وصلوا بالتشريع إلى هذا الحد من الرقى .

ولقد عمل فولتير وبكاريا ، فى القرن الثامن عشر على تعديل القانون الجنائى أكثر مما عمله رجال القانون مجتمعين .

ولقد قبلت البرلمانات والمجتمعات السياسية أكثر القوانين اجحافا بخنوع تام . وحصل أباطرة الرومان وهنرى الثامن ملك

انجلترا وروبسبيير والديركتوار ونابليون الأول. وبالاختصار جميع مستبدى العالم، على تأييد الهيئات السياسية للقوانين التى اقترحوها تأييدا لا تردد فيه. فحين أراد هنرى الثامن أن يتخلص من زوجاته، أقره البرلمان على ذلك، ولما اراد اعدام وزرائه، اعدمهم البرلمان بغير محاكمة. وأخيراً، عندما نبتت عنده الرغبة فى إصدار قوانين بمحض إرادته، حقق البرلمان رغبته. ولما عرض على البرلمان الفرنسى الديكريتو الأول ضد المهاجرين لم يرتفع صوت واحد بالاعتراض على مافيه من اجحاف. وصادق المؤتمر، الذى كان يرتعد فرقاً امام روبسبيير، بغير مناقشة، على الاثنتين والعشرين مادة المكونة لقانون ٢٢ بريريال ذلك القانون الذى جر فى ذيوله مجموعة من الاغتيالات القضائية والذى حاول الاعضاء بعد ذلك عبثا العدول عنه. ولما عرض الديركتوار على مجلس الخمسمائة، فى ١٨ فروكتيدور، قوانين التشريد لم يعترض أحد عليها. وعقب انفجار الآلة الجهنمية، صـــادق مجلس الشيوخ بنفس السهولة على نفى ١٣٠ ديمقراطيا اتهموا زوراً بالتآمر وأعلن أن قرار القنصل الأول قصد به سلامة الدستور (١).

وفى سنة ١٨١٤ أقر هـــذا المجلس بنفس الخنوع إنزال

---

(١) اتهم فوشيه ١٣٠ ديمقراطيا مع علمه ببراءتهم، لينقذ موقفه. وعلم القنصل الاول بالحقيقة بعد ذلك ولكنه لم يبد أى أسف وكان يرى أن ما عمل كان فى محله من جميع الوجوه لانه تخلص ممن كان يسميهم جماعة اليعاقبة.

الامبراطور عن العرش وعودة الملك لويس الثامن عشر واستهل قراره باتهام وجهه إلى الامبراطور وأصدر الاقتراح الدستورى المذكور باجماع الآراء ، وكان بين الذين أقروه بعض الذين اقترعوا على اعدام لويس السادس عشر .

وتصم الشهوات التى تحرك المجتمعات آذانها عن صوت العقل حين تقترع على قانون معروض عليها . فالهدوء وضبط النفس وعدم التحيز لازمة لسن القوانين لزومها لتوزيع العدالة ، ولكن المجتمعات ، مع ذلك ، لا تطيق صبراً . ويتجسم الخوف والغرور والغضب والحقـــد بقوة فى كل اجتماع للرجال . ويبدو لى أن أرسططاليس كان مخطئاً حين أكد أن الرجال المجتمعين أرجح عقلا من الرجل الفرد ، وانه كلما ازداد عددهم ازدادوا حكمة وروية فهو يقول : « اذا انساق الرجل وراء الغضب أو أية شهوة اخرى فان حكمه لا شك يفسد ، ولكن يصعب جداً على الأغلبية أن تفقد اتزانها وتخطىء فى مثـــل هذه الاحوال . ونستطيع أن نقول إن الأغلبية ، وان لم يكن كل فرد من أفرادها نابغا ، تفضل أى رجل ممتاز ، لا كافراد ولكن على الأقل كمجموعة ، كما أن الوليمة ، إذا وزعت تكاليفها على الجميع تكون أفخم مما لو تكفل بمصاريفها شخص واحد » . ويرى سبينوزا أيضا أنه « يستحيل على الأغلبية فى مجتمع كبير أن تتفق على الباطل » .

ولو صح أن إدراك هيئة من الهيئات يزيد بزيادة عددها

لازدادت قدرتها على العمل كلما ازداد عددها ، مع أن المشاهد أنه كلما زاد عدد أفراد هيئة من الهيئات قلت مقدرتها على الانتاج(١)

ولقد سبق اريستوفان علماء النفس الحاليين فى الملاحظات التى يبدونها عن أخلاق المجتمعات السياسية فهو يقول ، معارضا وجهة نظر أرسطاليس : « إن الرجال حين يجتمعون يكونون أقل تفكيرا من الرجال المنفردين فازدياد عددهم يقوى جموح شهواتهم ويضعف منطقهم وتفكيرهم لأنهم يصبحون جزءاً من كل ».
وعند ما كان كليون والجزار يتنازعان رضاء الشعب طلب كليون إلى الشعب أن يعقد المجمع ليقرر أى الاثنين أصدق محبة ، فأجابه الجزار : «فليكن ، طالما أن ذلك ليس فى البنكس (محل انعقاد الشعب) » الشعب : « ولكننى لاأستطيع الانعقاد فى محل آخر فلابد لك من الظهور أمامى فى البنكس» . الجزار : « ياللآلهة لقد قُضى على . إن هذا الشعب ، فى داره ، أعقل الناس ولكنه لايكاد يجلس على تلك المقاعد الصخرية اللعينـــة حتى يفقد رشده !! »
وشبه كاتو الرومانيين حين يجتمعون ، بقطيع من الغنم . وأبدى سولون عن المجتمعات نفس الملاحظة التى أبداها اريستوفان فقد قال للاثينيين : « كل واحد منكم فى أعماله الخاصة حذر وماكر كالثعلب ولكنكم حين تجتمعون ، تصبحون بهلوانات محدودة الادراك »

---

(١) الأخلاق أيضا لاتزداد متانة بازدياد عدد الرجال فان الرجال يفسدون بعضهم البعض . وهناك فساد معروف خاص بمجتمعات الرجال كالمستشفيات والسجون .

وفى كثير من المجتمعات يرهب المتطرفون المعتدلين ويستعينون بهم لسن قوانين اضطهاد وسلب . ألم يقترع الجيرونديون بباعث من الخوف والضعف وخشية اساءة سمعتهم على اعدام لويس السادس عشر الذى أرادوا خلاصه كما اقترعوا على إنشاء المحكمة الثورية ولجنة الخلاص العام وهما أداتان من أدوات الطغيان الكريهة ؟

وانقلب أعضاء السهل والوسط مختالى ملوك وثوريين بفعل الخوف أيضاً . لقد كانوا آلات خاضعة بين يدى روبسبير الذى كان يدافع عنهم أحياناً (١) .

وما كان المتطرفون لينجحوا فى سن قوانين الاضطهاد والنهب لو لم يساعدهم المعتدلون الذين تعوزهم متانة الخلق فيقترعون على قوانين لاتقرها ضمائرهم .

---

(١) يقول دوران دى مايالك أحد نواب اليمين ان روبسبير كان دائما يدافع عنهم ؛ ولا شك أنه قصد بذلك أن يتخذ منهم درعا لنفسه عند الحاجة . ولقد تردد هؤلاء النواب طويلا قبل أن ينضموا لخصوم روبسبير . ولما هوجم فى التاسع من ترميدور التفت روبسبير الى نواب اليمين وقال لهم : «يانواب اليمين ، ايها الرجال الاشراف الفضلاء اعطونى أنتم حق الكلام الذى يحرمنى منه السفاكون» . ويقول دوران دى مايالك إن روبسبير كان يأمل فى ذلك نظير الحماية التى طالما منحها لنا ولكننا كنا قد كونا رأينا .

إن مُناقشة الأعمال فى اجتماع كبير مناقشة صورية غير منتجة ، فانما تدرس المسائل بطريق أجدى فى لجنة صغيرة لا فى اجتماع عام . وتتولى العمل المجدى اللجان المكونة من رجال متخصصين مجردين من المنافع والشهوات .

وللخطباء نفوذ كبير فى المجتمعات الكبيرة بينما لا يشغل الرجال ذوى الخبرة والضمائر الحية المكان اللائق بهم ، إما لأنهم يتحدثون بغير شهوة ، أو لأنهم ينشدون الحقيقة والعدل . وعند ما اجتمع زعماء الكاثوليك والبروتستانت فى بواسى التمس المستشار لوبيتال من الملكة أن تفض الاجتماع لكثرة عدد المجتمعين وتحمسهم ، وطلب منها أن تكتفى بخمسة مندوبين عن كل حزب .

فالمجتمع الكبير معرض لنزوات الجماهير ، يحب الخطب الطويلة الجهورية ، ويستمع للخطباء الذين يتملقونه ، ويفضل من بينهم الخطيب الذى يعرف كيف يسترضيه ، على الرجل الخبير الذى يتعبه . ويقول ريفارول : «إن الخطباء وباء المجتمعات » . «وليست هبة الكلام ضمانا لصواب الحكم على الأشياء ، فكثيراً ما يوجه الخطباء عنايتهم إلى الأثر الذى يحدثونه لا إلى لب الموضوع الذى يناقشونه . ويقول نابليون الأول عنهم « إنهم فقراء فى المنطق لايحسنون المناقشة » . والخطيب ، إذ يتكلم تتملكه نشوة كبيرة ويتذوق الحيل الخطابية ، كما يتلذذ الجندى بالمعركة للتأثيرات التى

يشعر بها ، فالسرور بهزيمة خصم أو باسقاط وزارة والحلول محلها يطيب للخطيب ، أما الحق وأما الصدق ، فما أحراه بأن لا يأبه بهما .

وللنظام البرلمانى ميزاته ، ولكن من عيوبه الجسيمة أنه يميز بدرجة كبيرة الخطباء والمحامين والأساتذة ، فرجال الكلام يطغون على رجال الأعمال والمفكرين ، والخطابة هى التى تبنى الشهرة . إن حق الكلام فى الاجتماعات البرلمانية إحدى ضمانات الحرية السياسية ، وهو ، حين يتولاه رجال ممتازون حقاً ، يؤدى إلى تهذيب الشعب وتنويره . ولكن بجانب الخطباء الممتازين الذين يجمعون إلى قوة التفكير والخبرة بالأعمال العامة هبة الخطابة ، ما أكثر الثراثرة والببغاوات الذين شغلوا أكثر من مرة منابر المجالس ، كم من الخطباء المغرورين ، الممتلئين اخطاء ، يطالبون الحكومة ببيانات تخلق أكبر الصعوبات ؟ كم من النواب المصابين بمرض الكلام ، يتكلمون لمجرد الكلام ويحاولون أن يتظرفوا حين تطالبهم المناسبات بأن يكونوا جادين ؟ يقول أحد أشخاص مسرحية سانت افريمون (Sir Politik) : « مذ كان لى شرف الانتساب إلى مجلس الشيوخ لاحظت أن الرغبة فى أن نبدوا ظرفاء ومؤثرين كثيراً ما تجعلنا نشط عن موضوع المناقشة لنتحدث عن المسائل العامة التى لا دخل لها بالموضوع المعروض » . ولاحظت مدام ستايل بمناسبة محاكمة لويس الثامن عشر ذلك السيل الجارف

من الألفاظ النابية التى كان النواب يقحمونها فى مثل هذه المناقشة الخطيرة مما لا يتصوره العقل ، وقالت « كيف يمكن تصور أن ينفذ الغرور الانسانى إلى مثل هذه المحن ؟ »

أى قوانين يمكن أن ننتظرها من مجمع كبير لم يُعَدّ أعضاؤه الاعداد الكافى لدور المشترعين الذى يمثلونه والذين يحصرون أخص اهتمامهم فى مصالحهم الانتخابية ؟ انهم يكدسون القوانين فوق القوانين ، يسنونها ويلغونها وفق ضرورات الساعة . فلم تعد القوانين تنقش كما فى الأزمنة الماضية على الصخور أو البرونز ، بل أصبحت تخط على الشمع أو الرمل ، لقصر الوقت الذى تبقى نافذة فيه . وكثرة التبديل فى القوانين مؤدية حتما الى اضعاف سلطانها .

وأصبحت القوانين تسن من قبل أن تدرس الدراسة الكافية ومن غير أن تقارن بالقوانين السابقة لها . ومما يؤلم حقاً أن نرى مشترعين لاتجربة لهم ، لم تنبت لحاهم بعد ، ولايحسنون الاملاء أحياناً ، يلعبون بالقوانين فيلغون القوانين النافعة ، ويسنون قوانين ضارة لافائدة منها وذلك بعد أن يتراشقوا بالسباب فى مناقشات حامية ، ويؤيدون أو يحاربون قوانين لبواعث سياسية محضة . لماذا لاتعرض القوانين التى يقترحها البرلمان على مجلس الدولة ؟ لماذا لايدرسها رجال درسوا التشريع دراسة تامة ؟ أن تفصيل حذاء يحتاج لمران خاص ، وكذلك إنشاء صيغ قانونية . فلو أن

صانعي الأحذية خاطوا ملابسنا بينما تولى الخياطون.صنع أحذيتنا لساءت ملابسنا وأحذيتنا على السواء .

وعدم الاستقرار التشريعي من أخطار الديمقراطية . فالولايات المتحدة تشكو منه كما لاحظ ذلك هاملتون وجفرسون وماديسون ، وادعى للألم من كل ذلك الوسائل الملتوية التي تستعمل لسن القوانين ، فالأصوات اللازمة لتكوين الأغلبيه كثيرا ماتنـــال بالرشوة والغش والتزوير .

افساد السياسة للقضاء

يقول كاميل ديمولان « إن النواب الذين يلجاون الى حراب الجنود مخطئون ، فان فن الطغيان ينحصر فى الوصول الى نفس الغرض عن طريق القضاة » . والواقع أن القضاة السياسيين يستطيعون أن يؤدوا من الخدمات مالا تؤديه الحراب ، فالخصوم الذين يُذبحون يمكن أيضا أن يُفترى عليهم وأن يُثلم شرفهم . وهياج الجموع واقدامها على القتل أقل فظاعة من القتل القضائى المصحوب دائما برياء يسدل على القسوة ثوبا كاذبا من العدل .

فالجلادون يتظاهرون بأنهم الضحايا ويحيلون الضحايا الى مجرمين على طريقة الذئب الذى اتهم الحمل بأنه عكر عليه الماء . ولقد قال اليهود الى بيلاطس حين جاءوه بالمسيح « لقد وجدنا هذا الرجل يفسد الناس » ، واتهم سقراط بافساد الشبيبة ، واضطهد أباطرة الرومان المسيحيين بدعوى أنهم يعكرون السلم العام . وعقب مذابح سانت بارتلى اتخذت إجراءات قانونية ضـــد الضحايا . واتهم الهجنوتيون بأنهم كانوا قد اعتزموا ذبح الكاثوليك ، وكان هنرى

الثامن يفترى على خصومه قبل أن يعدمهم ، فحاول أن يلطخ شرف السير توماس مور واتهمه بقبول الرشوة . وحصل موريس دى تاسو على ادانة بارتفلدت باتهامه كذبا بأنه اعتزم أن يخون الوطن لمصلحة اسبانيا . وبعث شارل الثامن الى المشنقة بكل من سدنى ولورد رسل واتهمهما كذبا بالاشتراك فى مؤامرة . ولما قبض على الكولونيل هاتشنسون فى عهد شارل الثامن ، وبالرغم من أنه خصم سابق لكرومويل ، اكتشف أن امرا وزاريا أرسل لحاكم المقاطعة التى يقيم فيها باشراكه فى مؤامرة أو ماشابهها . وحاكم اليعاقبة الجيرونديين ، أنصار الجمهورية الصادقين ، واتهموهم بانهم يريدون خيانة الدستور . وفى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه مذابح سبتمبر اتهم المسجونون — وهم الضحايا — بأنهم يتآمرون على الجمهورية . وفى أيام الفروند أرادت جماعة الاورمية أن ترتكب جرائمها تحت ستر العدالة فأنشأت فى بوردو محكمة ، تولى وظيفة الاتهام فيها صيدلى ، وكان قضاتها من الصناع والاسكافة وبائعى الحلوى .

وتنشىء الحكومات محاكم استثنائية لتسدل على اضطهادها ثوبا من العدالة . وكما قال كومينس : «إنهم يثأرون لأنفسهم تحت ظل العدالة وعندهم رجال اختصاصيون مستعدون دائما لتحقيق أغراضهم ولتحويل الهفوة البسيطة الى جريمة لا تغتفر . » وكثرة المحاكمات السياسية العديدة أيام الاباطرة الرومان معروفة . ويقول تاسيتوس: «لم يعد عندى ما اكتبه لك الا الأوامر الوحشية وسيل

الاتهامات الجارف ، والأحكام الظالمة والمحاكمات التى تنتهى جميعها الى نفس النتيجة . » وفى عهد الجمهوريه الرومانية سن قانون يعاقب على الأفعال ولا يتعرض للأقوال وأول من طبقه على جرائم القذف هو أغسطس . وأكثر تيبريوس من تطبيق هذا القانون فزاد الاتهام بالخيانة العظمى زيادة كبرى ، وفتح امام المبلغين بابا لاقتناء الثروة . وكان تيبيروس يجد القضاة مستعدين دائما لادانة كل من يتهمهم . وكان من عادته أن يحضر المحاكمات . وفى احـــدى المناسبات ، وكان متحمسا ضد حاكم متهم بأنه تحدث عنه بالفاظ مهينة ، أعلن فى صوت جهورى أنه يريد أن يبدى رأيه فى هذه القضية ، بعد حلف اليمين . لكن أحد الشيوخ ، بيزو ، وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يقول له : « متى تبدى رأيك ياقيصر ؟ انك ان ابديته قبلى فلم يعد أمامى الا أن اتبع رأيك ، وان ابديته بعدى فانى أخشى أن لا يجيء رأيي مطابقا لرأيك ولو عن غير قصد . » وكان لهذا الكلام وقعه فى نفس تيبيروس فترك المحاكمة وسمح بتبرئة المتهم . ولكن استقلال بيزو لم يجد من ينسج على منواله ، بل كان الشيوخ جميعا يتبارون فى اظهار خضوعهم . وأتهم مؤرخ بأنه الف كتابا امتدح فيه بروتوس ، ونعت كاسيوس بأنه أكثر الرومانيين دناءة ، فاضطهده محاسيب سيجانوس حتى فضل الموت جوعا ، وأمر مجلس الشيوخ بحرق مؤلفاته كلها . وكان الشيوخ فى عهد نيرون يحكمون على أكثر المواطنين استقامة ، باشارة من

الامبراطور ، ويبنون حكمهم على أنهم ان لم يكونوا فى الواقع اعداء فمظهرهم يدل على العداوة . وكانوا يرتعدون خوفا على أنفسهم ويلتمسون النجاة فى الذلة والخضوع . وبعد قتل اجريبينا تظاهروا بأنهم يصدقون أن نيرون لم يقتلها الا لينجو من مؤامرة ، وأمروا بأن تقام الصلوات فى جميع المعابد وأن تجرى الالعاب السنوية احتفالا باكتشاف تلك المؤامرة المزعومة ، وارتدوا ملابس الافراح ، وخرجوا لمقابلة قاتل أمه وهو يصعد درجات الكابتول ليقدم الشكر للآلهة على نجاته . وفى كل مرة أمر الامبراطور بنفى شخص أو قتله كان الشيوخ يأمرون باقامة صلوات الشكر .

وكانت محاكم انجلترا قبل ثورة ١٦٨٨ لا تقل قسوة وخضوعا عن السناتو الرومانى . وكان ماكولى يشبهها بسلخانة قذرة يجر اليها كل حزب بدوره خصومه ، حيث يجد نفس الجزارين العتاة عبدة المال فى انتظار مايقدم لهم ، وأنشأ كروموبل ، بعد مذابحه فى ارلندا ، محكمة استمرت تقضى على الكاثوليك بالاعدام ، وهى معروفة فى التاريخ بمحكمة المذابح .

ولقد أظهر المحلفون فى عهد شارل الأول استقلالا أتم . فحين أراد لورد استرادفور أن يضم مقاطعة كونوت الى أملاك الملك ، لم يدع مجهودا لم يبذله ليحصل على حكم فى مصلحته ، ولكن دون جدوى . وقاوم المحلفون أيضا كروموبل الذى اغتاظ من استقلالهم فاسس محاكم استثنائية بدعوى أن نظام المحلفين يعوق

سير العدالة ، ويخضع قدسية الأحكام الى نزعات الجهلة والسفلة ، ويترك تقدير أهم المسائل القانونية الى خزعبلات أشخاص جمعت بينهم الصدفة يعوزهم التميز وأحيانا حسن التقدير . وإذا كانت لاعتراضات كروموبل على نظام المحلفين قيمتها ، وهى اعتراضات تتفق مع مايقول به رجال القانون اليوم ، فان هذا لا يمنع من القول بأن للمحلفين صفة (١) تجعل بقاءهم لازما وأعنى بها الاستقلال . فالسياسة لا تستطيع افساد المحلفين الموكول اختيارهم للصدفة وهذا الاستقلال هو أقوى ضمانة للحرية الشخصية والسياسية . فالمحلفون هم الذين دافعوا عن الجمهورية ضد انتقام كروموبل ، ضمنوا النجاة لأكثر من ملكى ، ولذلك كان كروموبل لا يحب نظامهم .

ولم يكن لنظام المحلفين وجود فى فرنسا فى العهود السابقة ، ولكن القضاء فى مجموعه كان مستقيما ومستقلا بالرغم من ضغط الحكومة عليه . ويقول كوزان : « لم ير الناس فى أى زمان أو مكان منظر قضاء مهيب باستقلاله وعلمه ومتانة خلقه وعيشة الزهد التى يعيشها أفراده كمنظر هذا القضاء . » وقال روييه كولار عنه قولا مشابها : « إن الذى خفف من وقع الطريقة المخجلة المبنية على شراء وظائف القضاء هو تكوين قضاء عجيب كان مفخرة القرون الأخيرة للملكية

---

(١) تحاول السياسة التدخل فى اختيار المحلفين باقصاء من لا يؤيدون الحكومة من قائمة المحلفين .

وسندها » . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر على الأخص كانت هيئة القضاء تضم رجالا من الطراز الأول ذوى الذكاء العالى والخلق النبيل . فعند ما قابل هنرى دى جيز ، بعد أن أقصى هنرى الثالث من باريس ، الرئيس اشيل دى هارلى ، عنفه ذلك القاضى الشجاع على أطماعه حتى أن جيز وهو يروى تلك المقابلة فيما بعد ، لم يسعه إلا أن يقول : « لقد حضرت معارك واعتداءات وشهدت أخطر المبارزات فى العالم ، ولكننى لم أشده بقدر ما شهدت عند مقابلتى لهذا الرجل العظيم » . وكان لوبيتال بعلو ذكائه وسمو أخلاقه مثال القاضى العظيم فلن تجد خلقا أنبل من خلقه ولا عقلا أرجح من عقله . ويقول دى رتز ممتدحا خلق الرئيس موليه : « لو لم يكن من التهجم القول بأن وطننا يستطيع أن ينجب رجلا أشجع من جوستاف العظيم ومسيو لويس لقلت إن ذلك الرجل هو الرئيس موليه . » وقد قال لويس السادس عشر عن لاموانون « إنه لا يعرف فى مملكته من هو أجدر بالاحترام منه . » وقد عجز كولبير ، بالرغم من الوسائل الخادعة التى كان يلجأ اليها ، عن حمل القضاة على الحكم على فوكيه بالاعدام ، فقد وقف القضاة فى وجهه . وكان لتفشى الفساد فى القرن الثانى عشر تأثيره على القضاة ، فتخلوا عن تشددهم الخلقى ، ولكنهم احتفظوا باستقامتهم واستقلالهم . وترجع الاخطاء التى ينسبها المؤرخون الى البرلمان الى الخلط بين اختصاصات البرلمان السياسية واختصاصاته القضائية . فحين تحول البرلمان الى مجتمع سياسى كثر اقبال النبلاء عليه فبدلوا من أخلاقه .

وينظر الساسة دائماً نظرة الريبة إلى استقلال القضاء ، كما تشكو الحكومات من ذلك الاستقلال . فني ابان عودة الملكية كان القضاة المستقلون يتهمون بأنهم أحرار ومن أنصار بونابرت ، وفى عهد لويس فيليب بأنهم من أنصار شارل ، وفى أيام نابليون الثالث بأنهم أورليانيون وفى أوائل الجمهورية الثالثة باعتبارهم محافظين وأنصاراً للحزب الاكليركي . وفى مجرد اتهام الأحزاب التى وليت الحكم جميعها للقضاة بأنهم من أنصار الحكم البائد ، لدليل غير منقوض على استقلالهم .

والتصفيات المختلفة التى أجرتها الحكومات المتعاقبة فى المحيط القضائى هى الضريبة التى تقاضتها منه ثمنا لاستقلاله . فقد رأينا نواباً عموميين يحالون الى المعاش ، لمجرد انهم اتخذوا ، فى قضايا مدنية ، مواقف لاترضى بعض الساسة ممن لهم صالح فى الموضوع . وفى العهود السابقة كان النفى ، وأحيانا الاعدام ، من نصيب القضاة المستقلين فى فرنسا . فنى عهد هنرى الثامن مثلا ، عند ما طلب بعض أعضاء البرلمان أن يلتمس من الملك وضع حد لاعدام الزنادقة ، زار الملك البرلمان بشخصه ليخيف القضاة . ودافع كثير منهم عن رأيه بحضرة الملك فأمر بالقبض عليهم . وكان من بينهم آن دوبورج الذى شنق وحرق . وفى ١٥ نوفمبر سنة ١٥٨٩ استاء الملك من حكم بالبراءة أصدره البرلمان فأمر بالقبض على الرئيس واثنين من المستشارين واعدامهم ، وكانت

التهمة التى وجهت إليهم أنهم خونة وأنصار للزندقة . وفى مناسبات عدة شرد البرلمان ، وقبض على أعضائه ، وسجنوا وذلك إلى ما قبل أيام لويس السادس عشر ، لاصدارهم قرارات لم توافق رغبات الوزراء . . . . فقد أقصى ريشيليو عن باريس عدداً من أعضاء على البرلمان لأنه كان لا يرضيه استقلال رأيهم ، وأجبر عدداً من القضاة على أن ينتظروه فى قصر اللوفر ، فى غرفة الملك نفسه ، ليحملهم على اعدام دوق ديبرنون ، وأنشأ محاكم غير نظامية ، بل والزم القضاة ، ليضمن الحكم على المارشال دى ماریاك ، بعقد جلساتهم فى رويل مقره الصيفى . وطلب المارشال أن يحاكم أمام البرلمان ، وأفتى ماتيوموليه ، الذى كان نائبا عموميا اذ ذاك ، أن ذلك من حقه ولكن ريشليو ألغى الفتوى بقرار من مجلس الدولة .

ومع أن مازاران كان أقل تطرفا من ريشيليو فانه أساء معاملة القضاة فى بعض الاحيان ، فقد أمر بحبس رئيس محكمة الاستئناف باريون فى سجن بنيرول ، حيث وافته منيته ، لأنه لم يكن راضيا عن لهجته .

وحذا نابليون الأول حذو لويس الرابع عشر فى محاكمة فوكيه فحاول أن يؤثر فى ضمائر قضاة الجنرال مورو . حقا ان الامبراطور أظهر فطنة حين رفض أن يحاكم الجنرال أمام مجلس عسكرى منتخب خصيصا قائلا « إنه قد يقال إننى أردت التخلص من مورو بالحصول على حكم قضائى باغتياله بواسطة مخلوقاتى . »

ومع ذلك فقد حاول أن يملى الحـــكم على القضاة ، ولكنهم قاوموه بشدة .

وعين نابليون الأول أعضاء المجلس العسكرى الذى حاكم دوق دنجين . وانتهكت فى تلك المحاكمة جميع القواعد القانونية . وبعد صدور الحكم ، قرر الأعضاء أن يكتبوا للقنصـــل الأول ليبلغوه رغبة الدوق فى أن يمثل أمامه . وبينما كان الجنرال هولين يكتب ذلك الخطاب دخل سافارى إلى غرفة انعقاد المحكمة وأمسك بقلم الجنرال وانتزعه من يده ، وقال : « أيهـا السادة لقد انتهت مهمتكم ، ومابقى فهو من اختصاصى » : وكان سافارى قد أعد المقبرة قبل النطق بالحكم بساعات عديدة لأنه كان واثقاً منه . (١)

ولقد خضع نابليون الأول للاعتبارات السياسية وقلد أعمال العهد القديم فنفى عدداً من الرجال والنســاء بغير محاكمة نخص بالذكر منهم مدام دى ستايـــل ومدام دى شفروز ومدام ريكامييه .

---

(١) وفى التاريخ الرومانى حادث كهذا الحادث . فقد كاف نيرون الخطيب فليانوس نيجر باعدام الخطيب فلافيوس الذى كان قد قال له : « لم يخلص لك جندى بقدر ما أخلصت لك طالما كنت أهلا لمحبتنا . ولكنى بدأت أكرهك حين رأيتك تقتل أمك ، وتقتل زوجك ، ورأيتك قائد عربة وبهلوان وموقد النيران » . ويروى تاسيتوس ان فليانوس أمر بحفر مقبرة فى حقل مجاور ووجد فلافيوس أنها ليست بالسعة الكافية ولا العمق الكافى فقال لمن حوله : « حتى فى هذه المسألة لم يسترشدوا بالحق » .

ولما كانت الحكومات تحاول فى بعض الأحيان أن تؤثر فى سير العدالة ، فان متانة الخلق هى أهم صفات القضاة . فأوسع رجال القانون علما لا يصلح للقضاء إذا كان ينقصه الاستقلال . ولقد صدق نوسيه حين قال : « من المستحيل أن نوجد قضاء طيبا إذا لم نبدأ بتكوين رجال طيبين ... فالرجل فى حاجة لتكوين خلقه قبل أن يفكر فى المكانة التى يشغلها بين بقية الرجال . والقاضى فى أمس الحاجة الى متانة خلقية تقيه الضغط الذى تحاول السياسة أن تؤثر به فى أحكامه . » ولقد دخل پومپى يوما قاعة الجلسة معتزما أن يمتدح علنا صديقه بلانكوس الذى كان يحاكم ، ولكن كاتو أحد القضاة ، وضع أصابعه فى أذنيه ، ولم يتردد فى ادانة الرجل الذى كان پومپى يحميه .

وما المحاكم الثورية واللجان القضائية واللجان العسكرية واللجان المختلطة إلا مجرد مهازل قضائية لأن أعضاء اللجان ليسوا قضاة . لقد كان لويس الحادى عشر يعهد بالنظر فى المحاكمات السياسية إلى أعضاء لجان يوزع عليهم ممتلكات الذين يدينونهم . فكان هؤلاء الأعضاء ، لما لهم من مصلحة فى الادانة ، يزجون بالأبرياء فى مؤامرات وهمية ، كما حصل للكونت دى برشى ، بغية الاستيلاء على ممتلكاتهم .

والمحاكم غير النظامية ، المسئولة عن أفظع الاجراءات ، هى المحاكم الثورية . لقد أنشئت أولى تلك المحاكم بطلب من روبسيير

لمحاكمة متآمرى ١٠ أغسطس ، وهم الذين قاوموا الهياج . ويقول روبسبير : « من ١٠ أغسطس وانتقام الشعب لايزال معلقا . . . إنه يطالب بقضاة من نوع جديد لمواجهة الأحوال الجديدة . اننا نطلب أن يحاكم المذنبون ، حكما نهائيا لاينقض ، بواسطة أعضاء لجان ينتخبون من كل قسم . » وألغيت أول محكمة غير عادية ، وهى المعروفة بمحكمة ١٧ أغسطس ، فى ٢٩ نوفمبر . ولكن ، فى ١٠ مارس التالى ، استطاع دانتون ، بدعوى سلامة الشعب ومحاكمة معارضى الثورة ، أن ينشىء أشهر محكمة ثورية عرفت . وقال كوتون الذى كتب التقرير عن انشائها « يجب تخطى جميع قواعد التحقيق لمصلحة الشعب ، فكل من يقترح تعليق سلامة الشعب على الدفوع القانونية وحيل المحامين مأفون أو سافل يرمى إلى خراب الوطن والانسانية » . وقال دانتون « يجب أن تحل المحكمة الثورية محل المحكمة العليا لتحقيق الانتقام الشعبى » ، أى انها يجب أن تحل محل مذابح سبتمبر ، والواقع ان المحكمة الثورية كانت عبارة عن مذابح ذات صبغة شرعية .

وزيادة على مافى المذابح القضائية من فظاعة تفوق الذبح بالقوة ، فان ضحاياها فى العادة اكثر عددا ، لأنه اذا اجتمعت عصابة من الأشرار ، وأخذت تذبح الناس ، فسرعان ما يفتر هياجها أو يؤدى الى رد فعل ناجح من القوى الشعبية ، أما إذا أنشئت محكمة دموية فقد تستمر فى عملها الأشهر الطوال ، تبعث ، فى كل يوم ، بالعربات المحملة الى المشانق .

وكان المؤتمر يعين قضاة المحاكم الثورية ومحلفيها (١) من بين المتعصبين وينقدهم الأجور العالية (١٨ فرنكا فى اليوم) ، لذلك كانوا بمجرد آلات فى أيدى اليعاقبة . فكان هرمان رئيس المحكمة الثورية ، كما كان فوكييه تانفيل ، من مخلوقات روبسبيير . وكان دوبلاى النجار ، الذى كان روبسبيير يقطن معه ، أحد المحلفين ، وكان بعض الأعضاء الآخرين لتلك المحكمة من العمال والمزارعين . ولكى يجردوا المحلفين من كل استقلال ، كانوا يكلفونهم بالمداولة فى حضرة القضاة . وفى أثناء محاكمة دانتون أحاط أعضاء لجنة السلامة العامة بالقضاة والمحلفين حتى أثناء المداولة . ولقد ثبت أن بريور كان على اتصال مستمر مع رؤساء المحاكم الثورية ، وانه كان ذا نفوذ كبير على المحكمة عن طريقهم . وكان كولو دربوا يصـــدر الأوامر للمحكمة . وحين

---

(١) عين روبسبيير ، بتوصية من كاميل ديمولان ، فوكييه تانفيل مدعيا عوميا وهو الذى كتب الى كاميل ديمولان يقول : « إننى فقير وعائل ونحن نموت جوعا » . وتتخلص السياسة الثورية ، قبل كل شىء ، من القضاة المستقلين باخلاقهم وثروتهم وتفضل عليهم القضاة الخانعين ، الذين يموتون جوعا من أمثال فوكييه تانفيل . ولقد حول فوكييه تانفيل ، ككثير من قضاة ذلك العهد ، وظيفته الى وسيلة لدر المغانم وجعل حياة المتهمين وحريتهم موضع مساومة . فكم من قاض من قضاة المحاكم الثورية يشبه الصورة التى رسمها النائب الير أحد قضاة ريمس « مستقيم مبدئيا ، ولكن الحرمان والفقر اغرقاه فى كل أنواع الاسراف فبدلت الأحوال أخلاقه ليحصل على وظيفة ، واستعان بأصحاب النفوذ الخفى ليحتفظ بها » . . .

أخبره أحد القضاة أنه لم يجد ما يثير الشبهة فى تصرفات شاب كان قد عهد اليه باستجوابه قال له كولو : « لقد أمرتك ان تعاقب الرجل واريد ان يموت قبل نهاية هذا النهار . فلو أننا أبقينا على الأبرياء لأفلت كثير من المذنبين ، فسر فى عملك » .

وتقضى نصوص المادة العاشرة من ديكريتو ١٠ مارس سنة ١٨٩٣ بتكليف لجنة من ستة أعضاء من أعضاء المؤتمر بتحرير صحف الاتهام ، ومراقبة التحقيقات الأولية ، والاتصال الدائم بالمدعى العام والقضاة . فاذا برأ القاضى المتهمين ، صفّيت المحكمة وحوكم المتهمون من جديد . وقد سجن بريور ولوبون قضاة امتنعوا عن اصدار أحكام إعدام على الدوام . وقبض باراس وفرينون على المدعى العام ورئيس محكمة مارسيليا الثورية واحضراهما إلى باريس لأنهما لم يعدما من بين ٥٢٨ الا ١٦٢ متهما .

وكانت مهمة هؤلاء القضاة منفرة لدرجة ان أحدهم اعترف انه ، لكى يتغلب على هذا النفور ، اعتاد أن يبتلع كأسا كبيراً من الكحول ليقوى نفسه على حضور الجلسات . وأعلن فوكييه تانفيل انه يفضل ان يحفر الأرض على أن يكون مدعيا عموميا ، ولو استطاع لاستقال .

ومع ان الديركتوار كان أقل وحشية من المؤتمر فانه لم يكن أكثر منه احتراما لاستقلال القضـــاء . فحين اختارت الدوائر الانتخابية فى باريس قضاة معتدلين أبطلت السلطة الجديدة تلك

الانتخابات . وفى سنة ١٧٩٧ فى أيام الديركتوار قرر وزير الحقانية أن يحاكم الملكيون المتهمون فى مؤامرة عديمة الأهمية أمام مجلس عسكرى . وحمل المتهمون قضيتهم إلى محكمة الاستئناف ، ففصلت فى مصلحتهم ، ومع ذلك أمر الوزير المجلس العسكرى بأن لايعبأ بحكم محكمة الاستئناف ، وبذل أقصى جهده لحمل القضاة العسكريين على إصدار حكم بالاعدام ، ولكنهم اكتفوا بالحكم بالسجن . وليعاقب محكمة الاستئناف على استقلالها ، جدد الديركتوار جزءاً من أعضائها . ولابد للقضاء ، لارضاء السياسة ، أن يكون متساهلا ، فلا يعبأ بالأخطاء القضائية ، ويلغى حق الاستئناف ، وينفذ الأحكام بغير ابطاء (١) .

وفى عهد الامبراطورية الأولى والثانية ، أنشئت محاكم خاصة ولجان مختلطة مكونة من قضاة وضباط ، فى أكثر من مناسبة . وبرغم الوعد الذى نص عليه فى الدستور عند عودة الملكية بأن لا تقام محاكم غير عادية ، تأسست لجان عليا يشترك فيها ضباط مع القضاة ، ومثل هذه المحاكم الخاصة محل لاعتراضات جدية ، لأن التكوين الفعلى للضباط ، وان كان يؤدى إلى اكسابهم الصفات

---

(١) تنص المادة ١٣ فى ديكريتو ١٠ مارس سنة ١٧٩٧ ، المؤسس للمحكمة الثورية ، على أن الأحكام تنفذ بغير انتظار نتيجة الاستئناف . ولذلك كانت أحكام اللجان العسكرية ضد المهاجرين المتهمين بحمل السلاح تنفذ فى خلال أربع وعشرين ساعة .

التى تؤهلهم لوظائفهم ، قلما يجعلهم أهلا للفصل فى القضايا السياسية والجنائية .

وتفسد السياسة كل ما تشترك فيه . ولقد أظهرت كيف حاولت أن تتلاعب بتكوين المحلفين . ففى خلال السنوات القليلة الماضية حاولت السياسة تغيير انتخابات لجان التحكيم بين العمال وأصحاب العمل . فاللجنة الانتخابية المركزية ولجنة الرقابة لمندوبى العمال الباريسيين تحتمان على المرشحين برنامجا مادته الأولى نصها : « كل مرشح لوظيفة مندوب للعمال فى لجنة التحكيم يجب أن يعلن ان غرضه هو القضاء على أصحاب الأعمال . ولبلوغ هذه الغاية يجب أن يعلن انه من أنصار تنازع الطبقات » . وإذاً فالمرشح لوظيفة قضائية بدلا من ان يتولى فحص المسائل المعروضة عليه بروح الانصاف ، يتعهد بالعكس أن يدرسها بروح التحيز والحقد على أصحاب الأعمال .

ولطالما انقلب البوليس بتأثير السياسة الى محاكم تفتيش . ويقول تاليران : « إن رئيس البوليس هو رجل يشغل نفسه أولا بما يعنيه وثانياً بما لا يعنيه » والبوليس السياسى هو الذى اخترع البوليس المحرض Agent provocateur وشاهد الملك . وأدخل روبسبيير مرشدين من رجال البوليس إلى سجون باريس ليقدم ضحايا إلى المحكمة الثورية .

ويجب على القاضى أن لا ينتسب إلى أى حزب سياسى ، لأن

الروح الحزبية ضيقة ، متحيزة ، متأثرة شديدة المطالب . فأمثال الكاردينال دى رتز ، وتاليران الأسقف ، وفوشيه القسيس ، وشابو الراهب ، تدلنا على ماينقلب إليه رجال الدين اذا ماأدركتهم حرفة السياسة . كذلك تدلنا أمثال ديموريز وبيشيجرو ومورو وبازين ، وبولانجيه على مايحدث للقواد الذين ينغمسون فى الدسائس السياسية . وللسياسة تأثيرها فى القضاة أيضا فان ماقاله فينلون عن وظيفة السماسرة يمكن أن يقال بحق عن السياسيين : «إن هذه المهنة تفسد كل المهن الأخرى » فان الانسان ليأمن على نفسه أن يعيش فى أرض المتوحشين من أن يعيش فى بلاد متمدنة تخضع فيها العدالة لتأثير السياسة . ان سهم المتوحش المسمم وأنياب الليث وسم الرقطاء أقل ارهابا من خنوع انسان كجفرى أو لوباردمونت أو توكيه تانفيل . ان الحيوان المفترس يقتل فريسته ، أما القاضى السياسى فقد يحرمها الحياة والشرف .

افساد السياسة للاخلاق العامة

الناس على دين ملوكهم والأمم تتشبه ، من حيث الأخلاق ، بحكامها . فالقصر المستهتر ينشر الاستهتار ، والحكومة القاسية تعلم الشعب القسوة ، والنواب الفاسدون ينشرون الفساد بين الناخبين ، والادارة المرتشية تشجع الناس على الرشوة . وهكذا تؤدى حكومة السوء حتما الى هبوط المستوى العام للاخلاق ، بينما تتحسن أخلاق الناس اذا أحسنت سياستهم لأن الأمثال الطيبة التى يضربها من بيدهم السلطان تحبب الى الناس الأمانة والاستقامة . فالحكومة العادلة تبث روح العدل ، والحكومة التى تتخذ الغش والخديعة ديدنا تدعو الى الخداع والرياء ، والحكومة الظالمة الباطشة تجعل أبناء الوطن قلقين خاملين ، مرتابين خانعين .

فلقد أفسد عهد التفتيش بالبندقية الشعب بنظام الارهاب والجواسيس والمرشدين ، وانبثت جواسيسه فى كل مكان ، ووضعت صناديق من النحاس فى جميع أركان الشوارع لتلقى البلاغات . وهكذا تحط السياسة ، بما تدعو اليه من اتهامات

باطلة ، من أخلاق الرجال . لقد وجـــد فى انجلترا قانون يمنح مكافأة لكل من يبلّغ عن أسقف كاثوليكى ، ونصت مراسيم مختلفة لملوك اسبانيا بحرمان أبناء الزنادقة من شغل الوظائف العامة ، الا اذا كانوا قد بلّغوا عن آبائهم . فهل يعقل أن هـذه القوانين وأمثالها لم تفسد الضمير العام بما تمنح من مكافآت للمبلغين والمرشدين ؟

كيف يمكن تعليم الشعب احترام ما هو حق ، وحب ما هو عدل ، إذا كان أولو الأمر ينتهكون حرمة الحق ويقيمون من أنفسهم أسوء الأمثلة على الأجحاف ؟ كيف يستطيع المغامرون ، وهم يهدمون الدساتير التى أقسموا على الدفاع عنها ، أن يعلّموا الناس احترام العدالة والعهد المأخوذ ؟ ان الأمم تربّى باحتذاء حذو العظماء وباعتناق الأفكار والمبادىء والعادات التى تراهم يطبقونها .

وإن الأخلاق السياسية الفاسدة تتسرب إلى الشعب فتعوّده الخداع والقسوة والظلم ، وتضعف مقاومته للشر ، وتنتقل عدوى فساد الخلق ، عاجلا أو آجلا ، من الحاكمين إلى المحكومين .

فالقصور المترفة الفاجرة نشرت حب الترف والملذات ونقلت رذائلها إلى أوطانها . ولقد ساعد تقلب صغار الأمراء الايطاليين فى سياستهم على انتشار المذابح بين مواطنى مكيـــافلى . كما أن

الحكومات التى تكثر من الأوسمة والنياشين تساعد على انتشار الغرور .

لماذا يفتقر الفرنسيون إلى الابتكار ويركنون فى كل أمورهم إلى الحكومة ؟ لقد أضعف من قوة ابتكارهم وارادتهم ما للسلطة المركزية من رقابة لا تعارض على الأعمال العامة . ولو أن الفرنسيين قد نالوا حريتهم السياسية من عهد طويل ، لنمت روح الابتكار فيهم وازدهرت .

لقد كانت أخلاق التسكانيين حادة وماكرة فى عهد مكيافلى فأصبحت أكثر هدوءاً وصراحة ، بفضل تولى حكومة رفيقة شئونهم ، حتى أمكن إلغاء عقوبة الاعدام دون أن يتعرض الأمن لأى خطر .

ويرجع تبدل أخلاق سكان كورسيكا إلى سياسة أهالى جنوا القاسية المفترسة فقد كان سكان تلك الجزيرة فى العهود السابقة ، كما يشهد بذلك ديودور الصقلى أهدأ الناس طباعا ، وأميلهم للسلام ، وأكثرهم خضوعاً للقانون .

فبعد أن تنازل بيزوعن كورسيكا لأهالى جنوا ، اضطهد السادة الجدد سكانها ونهبوهم حتى أنهم ثاروا لنيل استقلالهم . وأخمدت الثوره بقسوة شديدة جعلت المضطهدين يضمرون الأخذ بثأرهم . ولأن جنوا كانت تمنح جميع الوظائف الحكومية لأشرافها المفلسين ، الذين أداروا الحكومة بغير إنصاف ونزاهة ، لم يبق

أمام الكورسيكيين من سبيل للوصول الى العدل إلا الالتجاء إلى الانتقام الشخصى (١)

وها قد أصبح الشعب الانجليزى ، بعد طول قلقه ، هادئاً ثابتاً ، من يوم تمتعه بحكومة طيبة .

ولقد جرد لويس الرابع عشر النبلاء من كل خلق كريم مذ صار يجذبهم لقصره ، ويتخذمنهم سماسرته . لقد صغّر من شان أولئك الذين كانوا ينعتون بالعظماء ، فكانوا فى مقاطعاتهم يتفاخرون ويتظاهرون بالاستقلال ، وهم فى البلاط ادعياء مغرورون ، تأكلهم المطامع ، ويعيشون عيشة الكسالى المترفين . وحمل لويس الرابع عشر الرأى العام على أن يغضى عن جريمة الزنا باعترافه بالأبناء غير الشرعيين الذين ولدوا له من غير زوجة . وأدخل الارهاب القسوة قلوب الذين يحاربونه أنفسهم ، كما دمغ بطابعه أولاد الطبقات الغنية . وأنقلب المعتدلون ، بفضل تعاليمه ، متطرفين .

وتنمّى كثرة التغيير فى الحكومات روح الالحاد والثورة . فان الناس تفقد الاعتقاد فى أى شىء وتتقبل كل شىء ، فى بلاد كل حدث فيها جائز ، وليس لشىء فيها حرمة ، يعدم فيها رجل من طراز ماليشرب ، ويصبح فوشيه قاتل الملك دوقا فى عهـــد

(١) vendetta

الامبراطورية ، ووزيرا عند عودة الملكية . ومتى فقدت الأمة عقيدتها حصرت ثقتها فى سلطان القوة والمال .

ولقد تعاقبت الثورات والانقلابات ، فى القرن الأخير فى فرنسا ، حتى أفسدت البلاد . ومتى افقد انتصار القوة الناس كل ثقة فى الحق وهدم اعتقادهم فى العدالة ، تشجع الطامعون والمغامرون وكل من فقد مكانته الاجتماعية

ولقد انتقلت فرنسا من حكم لويس الرابع عشر الى الجيروندين ومن الجيروندين الى دانتون وروبسبيير ، ومن رجال الارهاب الى رجال الديركتوار ، ومن باراس إلى بونابرت ، ومن نابليون الى آل بوربون ، ومن فرعها الكبير الى فرعها الصغير ، ومن الاورليانيين إلى الجمهورية ، ومن الجمهورية الى الامبراطورية ، ومن الامبراطورية الى الجمهورية ، وهى تنتقل دائما من نظام الى نظام ، تبدل دستورها ومبادئها ، وتقطع صلتها بالاحزاب التى تتنازع السلطة ، حتى أصبحت أشبه بمريض يلتمس الراحة فى رقدته فيحاول أن يجدها فى تبديل وضعه ، تنطبق عليها كلمات دانت التى قالها عن فلورانس « كم من مرة ، تتذكرين انك ابدلت قوانينك ونقودك وقضاءك وعاداتك وغيرت رؤساءك . »

وفى وسط هـــذا التبدل المستمر للحكومات تضيع كرامة الموظفين ، الذين يحترمون النظام الذى حاربوه ، ويحاربون النظام الذى أيدوه !! لقد وصل الى النائب العام فى إحدى محا كم استئناف

جنوب فرنسا فى عهد الامبراطورية مرسوما مجلس الشيوخ المؤرخان فى ٣ و ٤ إبريل سنة ١٨١٤ القاضيان بانزال نابليون الأول عن العرش ودعوة لويس الثامن عشر اليه ، فأرسل منشوراً إلى النيابات التابعة له يبلغها المرسومين المذكورين ويدعوها لاتباعهما بالصيغة الآتية : « انكم ، اذ تفعلون ذلك ، تحذون حذو فرنسا بأكملها ، وتشعرون ولاشك بشعور الغبطة التامة باظهار عواطف كانت لاريب تملأ قلوبكم . » فلما عاد نابليون من جزيرة إلبا ، كتب هذا النائب العام الامبراطورى نفسه وقد أصبح نائبا عاما متحمسا للملكية ، منشوراً جديداً فى ٢٥ مارس سنة ١٨١٥ ينصح فيه بالولاء للملك الشرعى : « إن عدو سلام العالم قد دخل أرض فرنسا ، ومشعل الشقاق فى يده ، معتزما بغير شك أن يضل السكان ويثير حربا أهلية . . . فليكن نداء الجميع « الملك والدستور والوطن » . وليس يتحتم على كل فرد — لكى يعود مرعب فرنسا وأوروبا إلى العدم — أن يسارع إلى ميدان الشرف ، والسلاح فى يده ، ليدفع ويهزم العدو المشترك ، فأن لرجال القضاء أكاليل نصر يستطيعون جمعها . . فيا لعظم المصائب التى تهددنا لو انتصرت الجرأة على الاخلاص للملك وبزت الجريمة الفضيلة . وهاهى فرصة عظيمة تسنح لكم لاظهار تعلقكم بالملك والوطن . . . إن العدو يسير الى قبره وان ظن انه يسير الى عاصمة ملكه » فلما أصبح (العدو) سيد باريس وفرنسا ، انقلب النائب العام

الملكى المتحمس نائباعاما امبراطوريا لايقل حماسة وبعث للنيابات التابعة له بمنشورين ثوريين فى ١٨ و ٢٢ ابريل سنة ١٨١٥ يبلغها رغبات الامبراطور . (١)

وتؤدى كثرة التغيير فى الحكومات الى قيام طبقة من الناس متاهبة دائما للانضمام الى جانب الحزب القوى ومهاجمة الحزب المغلوب الذى كانوا يخدمونه وهى ترتبط فى توقع التقلبات السياسية بمختلف الاحزاب ، وتوفق دائما بين آرائها والمناسبات القائمة . بل ان هناك رجالا ، من أمثال تاليران وفوشيه ، لايكاد النظام الذى يخدمونه يسقط حتى يتباهوا بأن لهم يداً فى اسقاطه بالدس والتصرفات المجرمة . ولكى لايكون اخلاصهم الجديد للنظام الجديد مثار شك ، تراهم يطعنون النظام البائد بنفس الخسة التى كانوا يتملقونه بها حين كان له الأمر : والواقع أن الذين استغلوا النظام البائد الى أقصى حدود الاستغلال هم أول من يهجره ، ويدير وجهه شطر الشمس المشرقة . والحكومات الجديدة ، وان احتقرت أمثال هؤلاء الرجال ، تتقبل خدماتهم ، لأنها تقدر لهم خضوعهم ، بينما تستبعد من الحكم الرجال المستقلين . يقول بوسويه : « الواقع أن الرجل المعوج يستطيع أن يعتنق جميع المذاهب ويقدم على

---

(١) لم يسمح لرجال القضاء الذين عينهم لويس الثامن عشر بأن يتولوا وظائفهم الا اذا أقر تعيينهم الامبراطور ولذلك طلب الى رؤساء المحاكم والنيابات أن يقدموا معلومات عن سلوكهم السياسى ، كما أمروا أن يجمعوا المحاكم ليقسم أعضاؤها يمين الطاعة للنظم الامبراطورية وللامبراطور .

كل الوسائل ويحقق مختلف المصالح ، أما الرجل المستقيم ، الذى لاحديث له الا الواجب ، فأية فائدة ترجى منه ؟ انه يمثل المبادىء التى لاتحيد ، والصلابة التى لاتلين ، وهناك أمور عدة لايستطيع أن يشترك فيها ، فسرعان ماينظر اليه فى نهاية الأمر كمخلوق لايصلح لشىء ولاتعود منه فائدة» .

وأنه لمما يفسد الضمير العام حقـا منظر تقلب السياسيين ، سماسرة كل نظام ، فالذين كانوا يعشقون الحرية بالأمس هم اليوم خدام الديكتاتورية ، وهم مرة راديكاليون ومرة دعاة القوة والسلطان ، وقبلا حماة العرش والكنيسة والآن متملقو الشعب وسبابو الدين .

وكذلك يفسد منظر الثروات ، التى يقتنيها السياسيون بسرعة ، الجزء العامل من أبناء الوطن . فقد رؤى سياسيون يقفزون طفرة من الفقر الى الغنى ، كانوا بالأمس مثقلين بالديون فاصبحوا اليوم «يملكون الحدائق الغناء ـ التى قلبوا للحصول عليها سطح الأرض باجمعه ـ والفساقى والتماثيل والمتنزهات الواسعة والدور التى تتطلب صيانتها أموالا طائلة تزيد بمراحل على إيرادهم . فما مصدر هـذه الممتلكات ؟ » (فنلون ـ نصائح لتكوين ضمير ملك)

والثورات ، بقلبهـا الهيئة الاجتماعية رأسا على عقب ، تذل الكرام وترفع الدهماء . فلقد قيل عن أحد الملوك «هو اليوم على العرش وغدا فى السلاسل» كذلك النائب فى المعارضة ، طريح السجون اليوم وعلى كراسى الحكم غدا . فاذا كان يكفى ، ليصبح

الانسان نائبا أو وزيرا ، أن يكون قد دخل السجن ، فما أ كبره إغراء للمغامرين من حثالة الانسانية الذين يريدون تشييد ثرواتهم لكى يحاولوا قلب النظام القائم ، ويدخلوا السجن . ألم نر مدرسا هو بوشو (١) تعينه لجنة الخلاص العام وزيرا للخارجية ، كما رأينا مدرسين فى كليات صغيرة يصبحون وزراء للمعارف ، ومحامين من أصغر طراز يتولون وزارات الحقانية والزراعة والتجارة والأشغال العامة . كم من الرجال المعدومى الكفاءة يرتفعون فى الحياة ، وكم من الموظفين الكبار والوزراء ينبتون طفرة على مرسح السياسة ، حتى أدار الطمع الرءوس ودفع المغامرين وطلاب المنافع الى إلقاء انفسهم فى احضان المعمعة السياسية !!

ولقد لام بوردالو فى القرن السابع عشر ، فى موعظته البديعة عن الطمع ، أولئك الذين يتولون بغير كفاية واستعداد وظائف الدولة الكبرى بدعوى حقوق الوراثة . واليوم ، تعرّض اطماع السياسيين الدولة الى نفس الاخطار التى كانت تعرّضها لها اطماع العظماء فقد حلت فضائح التعيينات السياسية محل فضائح انتقال الوظائف بالوراثة . كان سويفت وبومارشيه يهزآن بهذه الطريقة

(١) يقول عنه تين إنه كان عضوا غبياً من أعضاء الاندية مدمنا على لعب البليارد ، ومن معتادى الجلوس على المقاهى ، أمياً يكاد لايعرف كيف يقرأ المستندات التى كان يؤتى اليه بها فى المقاهى حيث كان يمضى حياته لتوقيعها والذى طلب حين غادر الوزارة من خليفته أن يعينه كاتبا فلما رفض طلبه التمس وظيفة ساع باحدى المكاتب

المخجلة للحصول على الوظائف الكبرى ، ويسميانها رقصة الحبل ، واليوم ، وقد أصبحت الوظائف الكبرى تنال بالرقص على حبل السياسة ، لايزال من الممكن أن يقال : « كان مطلوبا أن يشغل هذه الوظيفة رجل كفء ، ولكن بهلوانا سياسيا انتزعها »

وكانت أغلبية أعضاء كومون باريس فى سنة ١٧٩٣ من العمال . واستطاع رجال ملوثو السمعة ، ومحضرون وموظفون صغار مفصولون من وظائفهم أن يعينوا أعضاء فى لجان الثورة ، وذلك بالتظاهر بأنهم يعاقبة ووطنيون . واليوم يتظاهر زملاء أولئك بأنهم اشتراكيون أو راديكاليون لينتخبوا أعضاء فى مجالس المديريات أو المجالس البلدية أو نوابا . ولقـــد رأينا سقاة المقاهى « جارسونات » واساكفة وتجارا صغارا ينتخبون ، بفضل مايبدون من آراء ثورية ، أعضاء فى المجالس البلدية بالمدن الكبرى ومجالس ادارة المستشفيات والجمعيات الخيرية ، وهى وظائف تمكنهم من أن يخصوا انفسهم بالمبالغ المعدة للفقراء والمعوزين .

وتأتى الثروة المكتسبة عن طريق السياسة بسرعة تجعل الناس لايقنعون بصعود سلم المراكز الاجتماعية درجة درجة بل يودون أن يقفزوا دفعة واحدة إلى القمة ، فكل مواطن يريد أن يكون سياسيا ، وكل سياسى يطلب أن يصبح نائبا ، وكل نائب يرغب فى أن يصير وزيراً أو على الأقل وكيل وزارة ، وكل وزير يتطلع إلى رياســـة الوزارة ، وكل رئيس وزارة إلى رياسة

الجمهورية . والطمع مشروع ، ولكن على أن يقصد به المصلحة العامة ، وأن يكون معتدلا أساسه الكفاية والاستعداد ، وسبله مشروعة محترمة .

ومن الاطماع ما هو نبيل ، كالرغبة فى الوصول بالوطن الى العدل والحرية ومنع الظلم وتنوير الشعب . هـذه كلها مطامع تستحق الثناء ، بل هى الى الواجبات أقرب . ولو تجرد الرجال العموميون من الطموح ، لكن ذلك فى الواقع شراً وبيلا لأنه يدع السلطة بين أيدى من لا يحسنون القيام بها ، فاذا كان الجديرون بأشغال وظائف النيابة لا يسعون اليها ، فان غير الجديرين هم الذين يستولون عليها . واذاً فالطموح المعقول ، الذى يتخذ له هدفا عاليا ، مفيد للهيئة الاجتماعية ، وهو فى الدول الخاضعة للنظام البرلمانى ضرورى لحسن ادارة الآلة الحكومية . وقد قال أحد رجال الانجليز : « إن الرجال الأكفاء الأذكياء العالى الهمة ينقسمون فى بلادنا الى قسمين : قسم يتولى الحكم وقسم يسعى إليه ، ولكن المهم ، على كل حال ، هو أن يكون النزاع فى الوصول إلى الحكم بوسائل شريفة ، لخدمة الوطن وتحسين أنظمته وقوانينه . أما الاطماع السياسية التى لا تحد ، الإطماع السابقة لأوانها ، الأطماع التى ترمى لمجرد المصلحة الذاتية ، فلا تؤدى إلا الى الفتنة والاخلال بالنظام ، وهى أس التحزب ومنبع المنافسات والدسائس .

كيف تتحقق المصلحة العامة اذا كان المستوزرون فى سبيل الوصول إلى الحكم يوزعون الوظائف الوزارية على أنفسهم ، لا على اساس التجربة والاستعداد ، بل بنسبة أهمية هذا الحزب أوذاك ، وماشابه ذلك من اعتبارات حزبية ومناورات برلمانية ؟ وما الظن برجال خابت أطماعهم ، لايكادون يسقطون من الحكم حتى يسعون للعودة إليه ، فلا يقنعون بمصيرهم بل يجمعون العدة لتكوين محالفات غير مشروعة مع خصومهم السابقين ، ويهاجمون ما كانوا يدافعون عنه وشيكا ، ويدافعون عما كانوا يهاجمونه .

وليس الوزراء وحدهم هم الذين يندفعون فى هذا التيار . فالمحرومون والعجزة والطامعون وصغار الموظفين يقذفون بانفسهم فى المعمعان السياسى ، ولكيما يضمنوا سرعة الوصول ، يعتنقون أكثر المبادىء تطرفا .

فالمدرسون وصغار الأساتذة المجردون من كل تجربة يهجرون أوساطهم ليصبحوا زعماء فى الأحزاب الثورية ، ويسعون لتمثيل الوطن حين أنهم لا يمثلون الا الغرور والادعاء ، ومحامون لاتجارب لهم ، يجهلون القانون ، يقيمون أنفسهم مشترعين ، وأطباء لا يستطيعون علاج مرضاهم يأخذون على أنفسهم أن يعالجوا الجسم السياسى الذى لم يسبق لهم أن فحصوه . والناس جميعاً يولون منهم الأدبار حتى لا يبقى أحد فى مهنته . فيأبى الأسكاف

ان يلازم نعاله ، ويهجر الطاهى مطبخه ، وكل فرد يريد أن يعمل فى الميدان السياسى وأن يمتزج به .

ويكاد يبدو أن السياسة تعفى طلاب الوظائف العالية من ضرورة الدرس ، فلا أحد يقدر كفايته الخاصة ولا أحد يتخذ من استعداده مقياساً لاطماعه . إنه لا يزال لدينا ، بحمد الله ، اسكافيون يصنعون الأحذية ، وخبازون يعجنون الدقيق ، وبيطاريون يحدون الخيل ، وبدالون يبيعون البدالة ، ولكن ما أكثر الصناع الذين يحلمون ، فى مصانعهم أو مخابزهم ، باليوم الذى يهجرون فيه العجن والدباغة وحدو الخيل والطهى وبيع أصناف البدالة ؟ وما هم فى ذلك بالواهمين ، فانهم يصلون فعلا إلى وظائف هامة إذا استطاعوا أن يؤدوا خدمات انتخابية . فلقد أصبح الحكم كعكة يطلب كل منها نصيبه ، وأصبحت الوظائف العامة غنيمة يحاول كل أن يأخذها لنفسه بغير نظر لكفايته أو استعداده . ولقد رأينا أيام المؤتمر عمالا عينوا قضاة ، وارتكن على وطنيتهم وحقدهم على النبلاء لاعتبارهم أهلا لشغل هذه الوظائف الخطيرة . ورأينا فى سنة ١٧٩٣ جزارين وأساكفة وباعة صغاراً أصبحوا من الشخصيات الهامة ، يتصرفون فى أرواح مواطنيهم وحرياتهم . ويذكر شيشيرون حالة كاتب فى المحكمة أصبح قاضيا ، ومواطنين مجهولين ارتفعوا إلى أكبر الوظائف ويقول : « لاشك انه أمام مثل هذه الأمثلة من الحظوظ ، لامفر من الحروب الأهلية » .

والسياسة ، إذ تكافئ الحماس الانتخابي بتعيينات لايمكن تبريرها ، تضر الوطن . فان من أوجب واجبات الحكومة أن تضع السلطة بين أيدى من يستحقونها ، وأن تبحث عن ذوى الكفاية وأن تجزى العاملين . فاذا فُضّل الأنصار الانتخابيون على الموظفين المستقيمين ، فليس يضار هؤلاء الموظفون فقط ، بل تحرم الدولة من خدماتهم . وإذا لم يعهد بالوظائف العامة إلى الرجال الاذكياء ، ذوى الخلق المتين ، فلا فائدة ترجى بعد ذلك منهم ، بل قد ينقلبون ضارين .

وكان كل حكم جديد ، فى العهود السابقة ، يتميز بهجوم عام على الوظائف والمرتبات . فنى بداية حكم هنرى الثانى ، شغل آل مونمورنسى وجيز جميع الوظائف . ويقول أحد المعاصرين « إن الوظائف لم تفلت من أيديهم الا كما تفلت الذبابة من العنكبوت ، وكانت الوظائف والأوسمة والاسقفيات والابراشيات ، تختطف اختطافا (١) . »

وأدت كثرة تبدل الحكومات والوزارات إلى زيادة السعى وراء الوظائف وأثارت شهية الساعين . ولقد سبق مونتسكيو الى القول « بأن الوزارات تتبع بعضها البعض وتهدم بعضها البعض كفصول السنة » .

---

[١] عند وفاة هنرى الثانى تجمهر طلاب الوظائف فى فونتانبلو لدرجة أن الكاردينال لورين نصب مشنقة فى مدخل السراى وأمرهم بأن ينصرفوا فى خلاله أربع وعشرين ساعة والاشنقوا .

ولقدازداد عدم استقرار الوزارات سوءاً من أيام مونتسكيو ، إذ يحدث أن يشهد الفصل الواحد من السنة عدة وزارات . ولكل وزير ، عند توليه الحكم ، أقاربه وأصدقاؤه وناخبوه يريد أن يخدمهم ، وأمامه عدا ذلك إعادة انتخابه تمنعه من تفضيل الموظفين الأكفاء على أنصاره فى الانتخابات . لذلك أصبحت الوزارات مكاتب تسجيل للوكلاء الانتخابيين .

وقد لاحظ القس سييس فى كتابه عن امتيازات النبلاء أن الدس والشحاذة أصبحتا من صفات الطبقة الراقية ، وهما الآن من صفات السياسيين . فلم يعد المواطنون يركنون لتحسين حالتهم الى جدهم واجتهادهم بل يطلبون رضاء الحكومة ويعتمدون على توصية رجال السياسة . وأصبحت ترى فى كل مكان أيادى ممتدة وأفواها مفتوحة . لذلك فأن من الخطأ القول بأن وباء التوظف قاصر على الحكومات الملكية . انه مرض يصيب جميع الأنظمة ، والأنظمة الديموقراطية أكثر من سواها . فالديموقراطية تزيد فى عدد الوظائف لتكافئ الخدمات الانتخابية وتستعين بالرفت والاحالة على التقاعد لتوجد خلوا . والنبلاء ، فى الممالك المستبدة ، يتسابقون الى البلاط التماسا للوظائف والمرتبات ، وحتى قتل دوق انجين لم يخفف من حماسهم فى خـــدمة نابليون ، فكان حماة العرش والهيكل الذين حرضوا الفنديين على المقاومة ، ينحنون أمام الغاصب ويقفون بين سماسرته . وقد تخلو الجمهوريات من وظائف الأمين

الأول وكبير الياوران وأمثالها ، ولكن هناك مالا حصر له من وظائف إدارية يزداد عددها أبدا . فني سنة ١٧٩٣ احتل اليعاقبة جميع الوظائف ، وإن كانوا فى الغالب لايقدرون على الاضطلاع بها . ويقول ميشيله : «إنه لم تكن لهم أية دراية بالمسائل الادارية ، وكان بعضهم لا يكاد يعرف الكتابة ، ومع ذلك ، فقد أصبح أغلبهم موظفين واحتلوا مراكز مختلفة فى الوزارات وأنشأوا عدداً كبيراً من الوظائف الجديدة » . ولما تولى دانتون الحكم أوجد وظائف لجميع أتباعه .

وبينما كان الجنرال فوا يخطب ، ايام عودة الملكية ، قاطعه أحد زملائه وسأله : « ما هى الارستقراطية ؟ » فأجابه « ان أرستقراطية القرن التاسع عشر هى اتحاد وتحالف بين أناس يريدون أن يستهلكوا بغير إنتاج ، وأن يعيشوا بغير عمل ، وأن يشغلوا الوظائف وليسوا أهلا لها ، وأن ينالوا التكريم وهم لا يستحقونه . »

فاذا نظرنا الى سياسة هذه الأيام ، فما هو الفرق بين الديموقراطية والارستقراطية ؟ إن السياسة لا تزال تنشىء الارستقراطيين ، أى الرجال المحترمين الذين يريدون أن يعيشوا من غير أن يعملوا ، وأن يحتلوا جميع الوظائف وإن لم يستطيعوا الاضطلاع بها .

وكان النبلاء قبل سنة ١٧٨٩ يعدون أنفسهم من المستحقين فى المرتبات ، حتى أن فنلون نفسه تألم لهم إذ رآهم فى غرف انتظار فرسايل دون أن ينالوا بغيتهم . ويعتبر رجال السياسة ، فى أيامنا ، أن

الوظائف من حقهم ، ويتألم النواب كلما رأوا ناخبيهم ينتظرون فى غرف استقبال الوزير ولا يحصلون على المرتبات ؛ فى شكل وظائف لا عمل لها . فنى الجمعية العمومية المنعقدة فى باريس سنة ١٦١٥ التمست الطبقة الثالثة من الملك أن يلغى المرتبات التى كان يدفعها لبعض النبلاء ، وفى استطاعة دافعى الضرائب فى هذه الأيام أن يقدموا مثل هذا الالتماس بالنسبة لكثير من المرتبات التى تغدق على رجال السياسة .

و يستحيل على الاحزاب السياسية أن تحمل نفسها على اتباع المساواة أمام القانون ، وأن تقبل كل شخص فى وظائف الحكومة . فهناك اذاً دائماً طبقة من المواطنين توضع خارج القانون أو تبقى معلقة . وقبل ١٧٨٩ كان هذا هو مصير البروتستانت واليهود ، وفى أثناء الثورة كان النبلاء والقسس هم المبعدون ، وفى أيام عودة الملكية استبعد الأحرار . وفيما سبق كان أهل الحسب وذوو المبادىء الدينية يُفضَّلون ، وفى أيامنا انقلبت الاية فأصبح الذين لا حسب لهم ولا مبادىء دينية هم المفضلون .

وهناك بعض اعتبارات سياسية تشير بوضع الرجال العاجزين فى الوظائف العامة بفكرة سهولة قيادتهم ، ولأنهم أدوات مرنة فى أيدى السياسيين (١)

---

(١) أوصى روبسبير بتعيين المدرس بوشو وزيرا للخارجية وهنريو الكاتب الصغير قائدا لجيوش باريس ، وكانا كلاهما آلات مرنة بين أيدى اليعاقبة . وعين رونسن روسينيول قائدا عاما ليستتر خلفه ويحتفظ بالسلطة بين يديه فقال له روسينيول نفسه « انك مخطىء فأنا عاجز تماما عن قيادة الجيش » ... ومع ذلك ولى القيادة .

وتحط السياسة من قيمة الادارة باسنادها الوظائف العامة الى الوكلاء الانتخابيين ، لأنه اذا لم تكن الوظائف العامة جزاء حتما للعمل والكفاية ، فقدت الاحترام الواجب لها ، وفقد الموظفون أنفسهم - الذين يوضعون تحت رقابة السياسيين - يملكون تعيينهم وترقيتهم ورفتهم بحسب مصالحهم الانتخابية - النفوذ الذى كان يجب أن يكون لوظائفهم ، لو كانوا الممثلين الثابتين المستقلين للسلطة التنفيذية .

إنها مصيبة كبيرة تلحق بالوطن إذا لم تعد وظائفه العامة دليلا على التفوق العقلى والخلق ، فتفقد من أجل ذلك التقدير والاقبال عليها . ذلك أنه يجب ، لحفظ التوازن ضد تأثير المال الآخذ فى الازدياد ، أن توجد بجوار المهن التى تدر الثروة على من يتخذونها ، وظائف أخرى تضمن التقدير والاحترام لأصحابها ، ويزيدها قيمة فى نظرهم ، ماتغدقه عليهم من هيبة . فالاحترام والمال هما العاملان الأساسيان اللذان يؤثران فى الناس . والرغبة فى اكتساب الاحترام تحد من شهوة المال ، فاذا فقدت الوظائف العامة مقامها وهيبتها ، فنتيجة ذلك حتما هو نقص فى احساس الشرف ، وازدياد لسلطان المال . ويقول شيشيرون : « ليس هناك منظر أبشع من مدينة مقياس التفوق فيها هو الثراء . »

وأوجدت السياسة ، بتشجيعها للمحسوبية ، عادات وأخلاقا لاقبل لشعب كريم باحتمالها ، فرفعت قيمة الشحاذة وأنمت الدس وشجعت على الكسل ، وعلمت المواطنين ، الذين يترقبون الوظائف

الحكومية ويبحثون عنها ، الدهاء والمكر وجردتهم من الكرامة .
وفضلا عن ذلك ، فان الاكثار من الوظائف اكثاراً لاداعي له ،
يفسد نتيجة الانتخابات . فالموظفون كثيرون وتأثيرهم كبير ،
لدرجة انهم يمنعون رغبات الوطن من أن تبدو حرة .

وإذا اقدمت السياسة على شراء الأصوات ودفع ثمنها وظائف حكومية ، فما السبيل لأن لا يصاب شعور الأمة الخلقي بعدوى هذا الاتجار ؟ إن الاتجار فيما يتعلق بالانتخابات يعلم الأمم تضحية المصلحة العامة على مذبح المصلحة الخاصة والمحلية . فالناخبون يعملون كما يرون غيرهم يعمل ، فيهملون اعتبار المصلحة العامة ويطلبون نائبا يخدمهم ، ويشغل نفسه بمصالحهم المحلية وصغائرهم ، ويرفع مطالبهم للوزراء وينفذ مآربهم . أنهم لا ينتخبون ممثلا للوطن بل وكيل أشغال لهم .

ولقد تكلم المسيو تيير فى إحدى خطبه عن مضار الحكومات المطلقة ونقائص الحكومات الشعبية والفساد الخلقي الذى تنشره الانتخابات فى أنحاء الوطن فقال « لقد انتقلت السيادة من أعلا إلى أسفل ، وأصبحت الطبقات الدنيا هى التى يجب أن تُتَملق ... وأصبح واجبا أن توجه المحاولات إلى أحط أنواع الانسانية ، ونتج عن ذلك أن الحرية ، التى تسعى لتعميم الاشتراك فى الأعمال العامة ، لا تنشر غالبا الا الفساد ، كتلك السموم التى متى نفذت إلى الدم ، تحمل الموت إلى حيث يحمل الدم الحيـــاة » .
فالمكروب السياسى ينفذ إلى كل مكان ، ويلوث كل أعضاء الهيئة

الاجتماعية ، ومطلب الشهرة يفسد المرشحين والناخبين على السواء ولا يترك مجالا إلا للتملق . فالنواب يتملقون الناخبين ، والوزراء يتملقون النواب ، ويعم التملق حتى يصبح نظاما مسلما به يهدم السلطة فى كل ناحيـــة ، فالاساتذة يتملقون طلبتهم ، والآباء يتملقون أبناءهم . والذين يجب أن يأمروا يطيعون ، والذين يجب أن يطيعوا يأمرون . فما الذى حل بسلطة الهيئة التنفيذية فى الدولة وبسلطة الآباء فى الأسرة ؟ لقد انعدم كل نوع من أنواع السلطة . أنهم يندهشون لتفشى الفوضى ، ولكن الفوضى فى كل مكان ، إنها فى الهواء ، وفى الأفكار ، وفى الآداب ، وفى الأسرة ، وفى الخدمة العامة ، وفى الحكومة .

سادت الفوضى الوظائف الادارية فلم يعد مصير الموظفين بين أيدى رؤسائهم . وأصبحت المديريات والقرى ، هى الأخرى ، فى فوضى وانعدمت سلطة المديرين بسبب نفوذ النواب والشيوخ الذين يحلون طغيانهم المحلى ، بما يتبعه من أثر ضار ، محل الأثر الحسن للادارة العادلة . ولكم وقعت المديريات فى قبضة طغاة من صغار القرويين ؟ (١) . ولا يزال صغار الطغاة المحليين فى أيامنا يلزمون السكان حيفا ثقيلا ويذلونهم . ومرجع هذا الارتباك

(١) يقول جيزو « ان سنتى ١٨١٥ و ١٨١٦ سوف تذكران على الأخص بامتداد طغيان صغار القرويين وتصرفاتهم التى لا تحتمل وبجموع القرويين المجهولين الذين سرعان ما برزوا للصفوف الأولى فى جميع انحاء فرنسا فاخضعوا الوطن لتهديداتهم ، ومضايقاتهم ونشروا القلق فى تلك الجهات وأذلوا جيرانهم » .

الاجتماعي إلى ضعف الهيئة التنفيذية وطغيان النواب . فالأمة تتألم من ضعف الهيئة التنفيذية ، بقدرما تتألم من طغيانها . ولقد كان بوسويه على حق حين قال : « إن ما تريد أن تضعفه حتى لا يضطهدك يضعف حتى يعجز عن حمايتك » .

ويجب أن لا نخلط بين طغيان النواب والنظام البرلماني ، فحكومة النواب مجرد فوضى . وإذا أريد للنظام أن يسود ، فمن المحتم أن يؤدى كل فرع من فروع السلطة اختصاصه الطبيعي ، فعلى الحكومة أن تحكم ، وعلى النواب أن يراقبوا . فالمجلس التام السلطان ، كالملك المفرد ، يسيء استغلال سلطته . وكل سلطة فى حاجة إلى ما يحدها حتى لا تنقلب إلى طغيان . وفى هذه الأيام يعتدى السياسيون على الاختصاص الادارى لدرجة أن النواب والشيوخ يتدخلون ، فى المجلس أو فى الاجتماعات العامة ، فى المحاكمات الجنائية فيعلنون براءة متهمين ادانهم المحلفون ، ويثيرون الشبهات على الأبرياء .

لقد كان الفساد السياسي فى أثينا وروما نتيجة للفساد الخلقي ، ولكن الفساد الخلقي ازداد بدوره بسبب منازعات واطماع السياسيين الذين افسدوا الشعب ليزداد سلطانهم عليه ، وليتخذوه آلة بين أيديهم . وفى هذه الأيام ، يتسرب الفساد من الحياة الخاصة الى الحياة العامة . فكيف ينتظر أن تكون الأخلاق الانتخابية والبرلمانية طيبة ، اذا كانت الاخلاق العامة فاسدة . لماذا يطالب السياسيون بالزهد وانكار الذات ، اذا كان الجشع والشهوات هى الخلق السائد فى الآداب الحاضرة ؟ واذا كان كتاب كثيرون يدنسون أقلامهم

المأجورة ، فلماذا يدهشنا أن نرى السياسيين يساومون بنفوذهم وأصواتهم ؟ ولكن هذا لا يمنع أن أعمالهم الضارة تضعف متانة اخلاق الأمة التي تشاهدها . فلكم سمعنا ناخبا يقول « بودى أن أصبح وزيرا للمالية ، ولو يوماواحدا !! » إن سلوك الوزراء الذين يستغلون وجودهم فى الوزارة ليثروا لم يعد يجرح الناخبين بل هم يغارون منهم ، ويودون لو كانوا محلهم ، ليعملوا عملهم .

ولقد بدلت الاخلاق السياسية الفاسدة الخلق الوطنى الفرنسى الذى كان مستقيما كريما ، لايعير المال أهمية ، ويقدر الشرف تقديرا كبيرا ، حتى أن بنتام كتب فى بداية القرن التاسع عشر : « لا يكاد الانجليزى يدخل فرنسا حتى يلاحظ تغلغل التمسك بالشرف وازدراء المال فى فرنسا الى أبسط الطبقات ، أكثر منه فى انجلترا » أما اليوم فليس شعور الشرف وازدراء المال هو الذى يتغلغل من الوسط السياسى الى الطبقات البسيطة ، فقد انحلت أخلاق البلد ، بما يشهده من أمثلة الفساد السياسى ، لدرجة أنه لايكاد تحركه فضائح لو أنها وقعت له فى أزمنة أخرى لبلغ اشمئزازه اقصى الدرجات(١)

ولا محل للشكوى من أن الشعب لم يعد يترجم عن غضبه بالهياج ، فقد أخذنا نصيبنا من الثورات ، ولو كان الاشمئزاز يسقط الحكومات لأسرفنا فى تبديلها ؟ ، ومع ذلك فعدم الاكتراث بفقدان

---

(١) قال لى أحد عمد البلاد : « انى أعلم أن نائبنا مريب ولكننى سأنتخبه ، ولو حكم عليه بالسجن ، لأنه يؤدى لى خدمات جمة » .

السياسيين النزاهة له دلالة خطيرة . إنه خطر على الحرية السياسية لأن متانة الخلق من ألزم شروطها . فالفساد يؤدى الى الاستبداد ، والفساد الاجتماعى يعبّد الطريق امام الديكتاتورية .

ومهما يكن من تفكك الأخلاق البرلمانية فى فرنسا وايطاليا وأمريكا وباقى البلدان فيجب أن لا يُظن أن سقوط هذه الدول محتوم . لقد خلق الله للامم مناعة واستعدادا كبيرا للعلاج . وجعل فرنسا أكثر مناعة من غيرها من الأمم لسرعة تبدل اخلاق سكانها . فاذا كانت فضائلها قليلة فعيوبها أيضا سطحية . انها تنتقل من شهوة الى شهوة بسرعة البرق الخاطف ، كانت فى ١٧٨٩ تفيض حماسا للحرية وبعد سنوات قليلة ملت الحرية وارتمت بكليتها فى احضان الملذات ، ثم زهدتها واندفعت نحو طلب المجد العسكرى . وهى الآن تحب الراحة والترف ، وغدا تهزها عواطف أكثر نبلا كالعناية بالفقراء وروح التضحية والرغبة فى الاصلاحات الاجتماعية . لقد اجتازت انجلترا كما اجتازت فرنسا عهود فساد سياسى فلم تستسلم لها .

حقا إن الفساد الاخلاقى والسياسى فى حالة شعوب أخرى كاثينا وروما بصفة خاصة قد جر وراءه فقدان الحرية والعظمة القومية . وبين أخلاق هذه الشعوب وأخلاق الشعب الفرنسى توافق يدعو الى القلق ، ومع ذلك فهناك فروق كثيرة لمصلحة فرنسا ، ففى شعب فرنسا قوى أخلاقية ودواعى للأمل لم تكن متوفرة لشعب روما . ففرنسا جيش وطنيته وتضحيته يدعوان للاعجاب ، سليم إلى أطرافه

أصابعه ، لا شأن له بالسياسة ، بينما كان الجيش الرومانى ، على العكس ، فى أيام سيلا و بومبي وقيصر ، قد افسدت أخلاقه الهبات التى كانت تصله من قواده وغنائم المقاطعات وتفشى الفجور وادمان السكر . فالجيش الرومانى هو الذى اسقط الجمهوريه وأقام صرح الديكتاتوريه .

وسقوط عدد قليل من الساسة الفرنسيين فى وهدة المال لا يمكن أن يقارن بعبادة المال التى انتشرت بين الرومانيين .

وبالرغم من زيادة عدد الطفيليين الاجتماعيين ، تلك الزيادة التى هى من فعل السياسة ، فانه لا يمكن مقارنة أخلاق الشعب الفرنسى بأخلاق الحثالة التى كانت تحيط دائما بالحكام الرومانيين « أولئك الذين كانوا يتسولون دائما ولا يشبعون أبدا » على حد قول شيشيرون .

ولم يكن لدى الرومان من سند أخلاقى الا ذلك الدين الوثنى الذى انحط مع ذلك فى السنين الأخيرة للجمهورية ففقد كل تأثير خلقى . أما الهيأة الاجتماعية الحاضرة ، فتقوم على أساس خلقى متين ، وبدأت العقائد الروحية تسترد سلطانها على العقول المثقفة . وهناك جهود كبيرة تبذل لأفهام الناس ان الالحاد ، لا الدين ، هو عدوهم الحقيق ، وأن الحرية والمساواة والأخاء تتحقق بتطبيق القواعد الدينية ، لا قواعد الالحاد والمادية . ان فى الجو دلائل صادقة على بعث خلقى .

لقد أظهر بوسويه منتهى الحكمة حين قال : « يجب على الانسان أن لا يزدرى نفسه » . وهى نصيحة تستفيد بها الأمم كما يستفيد بها الأفراد . إن احتقار الانسان لنفسه يؤدى لضرر كبير ، وعلى الأمم ان لاتغالى فى ذكر عيوبها الأخلاقية ، ونشر نقائصها الاجتماعية ولكن هذا لا يمنع من علاجها بالكى بحديد العدالة المحمى . ويجب أن يتم ذلك الكى بسرعة وبهمة ، فى الحالات المرضية ، حتى لا يطول زمن المرض أكثر مما يجب ويسهل استئصال الأجزاء المتعفنة . ان العدالة كالنار تطهر كل ما تلمسه .

وفضلا عن ذلك فليس من العدل ان نقيس الأمة بطبقة ساستها وحدهم ، فكثيرا ما تكون الأمة أفضل منهم . إن متعصبي عهد الارهاب ورجال الديركتوار الفاسدين وسماسرة نابليون لايمثلون فرنسا ، إنهم أقلية ضئيلة اشتركت فى جرائم وفساد الحكومات المختلفة . أما غالبية الشعب فظلت دائما نزيهة عاملة مقتصدة محبة للنظام والحرية ، وكانت ابداً أقل تعصبا وفساداً وخضوعا وضيقا من الأحزاب الحاكمة . وليس القول بأن الشعوب تنال الحكومة التى تستحقها بصحيح على اطلاقه . فقد احتملت فرنسا على التوالى سياسة الأرهاب ، وسياسة الافساد ، وسياسة الديكتاتورية ، وسياسة التعصب الدينى ، وسياسة التعصب اللادينى ، دون ان تمثل شعورها الصحيح .

ان فرنسا تريد حكومة لا تضطهد احدا ، تحمى حقوق الناس

جميعا وتصون السلام وتقيم الحريات الضرورية : الحرية السياسية والحرية الدينية وحرية التعليم . حكومة تتولى احلال النظرة القومية الواسعة محل النظرة الحزبية الضيقة (١) انها تطلب ايضا حكومه تحكم وتضع حداً لمضايقات الطغيان المحلي وضغط السياسيين غير المشروع وتدخلهم فى الادارة ، وهى تطلب قبل كل شيء ان يفصل بين عالم الاعمال وبين السياسة فصلا تاما .

(١) « إن الحكومة التى لا تستطيع أن توقف حزبا عند حده ، والتى تسمح له بأن يقودها ، حكومة جديرة بالاحتقار » تيير - ملكية سنة ١٨٣٠ .

الخاتمة

فقدت السياسة مكانتها بسبب الالتجاء الى الوسائل المجرمة واعتناق المبادىء الفاسدة ولابد ، لرد الاعتبار اليها ، ان نعود بها الى مبادىء الخلق السليم . فبعد ان لجأت السياسة ، كل هذا الزمن ، إلى المكر والخداع والدس والقوة ، لابدلها ، ولو من باب حب الاستطلاع ، أن تجرب تأثير الاخلاص فى المعاملة والتسامح والعدل . ان كل جديد فى هذه الأيام محبوب ، وأى شىء اكثر جدة من ان تختط السياسة خطة اخلاقية ؟ فقد ينتهى الناس الى ادراك ان النزاهة فى الحياة العامة ، كما هى فى الحياة الخاصة ، اقوى اثراً واقوم سبيلا . وليس يكفى ان تنظر الشعوب الشريفة نظرة ازدراء للمكيافيلية ، بل يجب ان تعتبرها ضارة بمصالح الامة الحقة . وليس يمكن ان تكون السياسة العظيمة هى السياسة الفاسدة المفسدة ، فقد يأتى الدهاء والعنف بنجاح زائل ، ولكنهما لا يضمنان عظمة الوطن ورفاهيته . فالنجاح وليد السياسة الفاسدة لادوام له ، والأمم كالافراد ، والسياسيون كعامة الناس ، لابد ان ينالوا عاجلا او آجلا

جزاء ما قدموا من خير أو شر . والجرائم السياسية تنال عقابها اكثر مما قد يظن ، فالذين يعدمون خصومهم بالسم او الشنق كثيرا مايلاقون نفس المصير ، والذين ينفون الاخرين يُنفون بدورهم .

والمكيافيلية نظرية فاسدة اكثر منها عميقة . فلم يكن سان لويس ولويتال وهنرى الرابع وسولى وتورجو وفرنكلين وواشنجتون يتبعون سياسة متقلبة اومتطرفة ، وهم مع ذلك الدليل القائم على ان من الممكن ان يكون الانسان ملكا عظيما ، ووزيرا كبيرا ، ومواطنا خطيرا ، مع احتفاظه بالاستقامة والنزاهة . كذلك نستطيع ان نجد — فى الناحية الاخرى — نبغاء عظام سببوا خراب الشعوب التى حكموها ، لانهم ازدروا العدالة واتبعوا سياسة مكيافيلية . فنابليون الاول الذى كان يسترشد فى كل تصرفاته بمصلحة الدولة ، غاضا النظر عن كل عدالة ، فقد اتزانه فى أواخر أيامه فقذف بنفسه فى حرب اسبانيا وحملة روسيا. ودانتون وروبسبيرا ، اللذان لم تكن تنقصهما الكفاية ، سببا خراب الجمهورية بمحاولتهما انقاذها بالارهاب . ان المقصلة لاتقيم الحرية ، واعدام خصوم المساواة لايثبتها ، والاغتيالات الشعبية والقضائية لاتؤسس حكم العدل والانصاف .

ويقول تلامذة مكيافلى إن على السياسيين أن يلجأوا الى العنف بل والجريمة إن كان ذلك ضروريا لخلاص الشعب ، ولكن مايسمونه هم خلاص الشعب هو ، فى أغلب الأحيان ، بقاء حكمهم . فأصحاب ١٨ فركتيدور ، الذين أقاموا ذلك الانقلاب بدعوى حماية الجمهورية ، لم ينتهكوا القانون إلا لينجوا بأنفسهم من الخطر

وبدلا من أن يخلصوا الجمهورية بالتماسهم تدخل أحد القواد ، أوجدوا سابقة خطرة ليوم ١٨ برومير . ان دعوى سلامة الشعب هى وسيلة لتبرير كل عنف وظلم . وفضلا عن ذلك ، فان الجريمة السياسية اذا ارتكبت لسلامة الشعب فعلا فما الدليل على أنها كانت محتومة أو أنه لم يكن هناك سبيل غيرها لسلامة الشعب ؟ إن سلامة الشعب تنحصر فى احترام العدالة أكثر منها فى اتنها كها . ان الشعب الذى يؤدى واجبه يستطيع أن ينتظر المستقبل مطمئنا ؟ فاذا هو تألم مؤقتاً فى سبيل قضية العدالة فيندر أن لا يأتى يوم الخلاص ، لان الأمم كالأفراد ، الفضائل ترفعها والرذائل تحط من قدرها .

إن السياسة المكيافيلية ليست بالسياسة العظيمة ، ولا يتطلب اتباعها نبوغا خاصا ، والحكم وفق المصالح والأهواء أسهل من الحكم وفق المبادىء . وفضلا عن ذلك فهى سياسة لا حاجة لنا بها فى هذه الايام . فقد يفهم ان «أمير مكيافلى »، أى الحاكم المطلق ، يجد مصلحته فى بذر الشقاق بين رعاياه ليحكمهم . ولكن ما محل نظرية «فرق تسد» فى حكومة حرة ، سندها الرأى العام ، ومصلحتها ان توحد بين رعاياها لا ان تفرق بينهم ؟ وقد يصلح الارهاب اداة للحكم فى يد دكتاتور شعبى أو عسكرى ، ولكنه لا يصلح فى يد حكومة حرة ! وما دام الأمر كذلك فبدلا من القول ، كما كان يقال فى الأنظمة السياسية القديمة «الدهاء الدهاء والدهاء دائما ، الجرأة الجرأة والجرأة دائما » يجب أن نقول فى أنظمتنا الحديثة «النزاهة النزاهة والنزاهة دائما ، العدالة العدالة والعدالة دائما »

لقد أصبح الكتمان الدبلوماسى ، مع علانية المناقشات البرلمانية ، مستحيلا . وهذه العلانية ، وان أضرت ، مفيدة من الناحية الخلقية . إذ يستحيل على وزير أن يسلم ، فى مناقشة علنيـــة ، بأنه يؤيد مشروعات ظالمة . وفضلا عن ذلك ، فأن الرأى العام يزداد ادراكا ونفوذاً ، ويحل تقديره السليم محل مهارة الدبلوماسيين . وليست سياسة الخداع خير السياسات دائما ، فلم يلجأ هنرى الرابع للخداع أبداً (١) . فالسياسى الذى اعتاد الالتجاء الى الكذب لايوثق به ويفقد أهم ميزاته .

والسياسة المبنية على الفساد سياسة عتيقة لاتليق بالجماعات العصرية . أنها تدل على احتقار للأنسانية وعداء لامحل له بين الحاكمين والمحكومين . ويجب أن تختلف سياسة الشعوب الحرة عن سياسة الملوك المطلقين ، وأن يكون اساسها احترام العدالة والحقوق .

ومهما قال المتشككون فالخداع والعنف ليسا من ضرورات السياسة . وكلما ازدادت الهيئة الاجتماعية تنورا استطاعت السياسة أن تزداد اكتمالا ؛ فليس الفساد طريقة لامفر منها للحكم . وقد توجد الحرية بغير الأستهتار ؛ ومن حقنا ان نأمل فى وجود إدارة غير متحيزة وتشريع عادل وانتخابات صحيحة ، وأن ينال الاجتهاد

---

(١) وعندما كان ملكا لنافار قال مباهيا - وله الحق - من يستطيع أن يتهم ملك نافار بانه كذب وعده يوما من الايام ؟

والكفاية استحقاقهما . إن الحكومات ، فى هذه الأيام ، تحترم تعهداتها المالية اكثر من ذى قبل لانها تدرك ان من مصلحتها أن لاتتلاعب بعملتها وان لا تفلس ، لعلمها بأن ثقة الناس بها هى أساس قوتها ، فلماذا لاتفهم أن عليها أن تبدى نفس الاحترام لحرية الناس وارواحهم ، كما تحترم اموالهم ؟

ويجب علينا أن نركن فى زيادة نزاهة واستقامة السياسة ، الى التقدم المحسوس فى حسن ادراك الجمهور . فالساسة والمجالس والحكام ، لعلمهم بانهم مطالبون بتقديم الحساب عن تصرفاتهم الى محكمة الرأى العام ، يزدادون حيطة ، ولايقدمون على اختيار وسائل تستجلب الاستهجان العام . وواجب السياسة أن تربى الناس وأن ترعى النظام والمصالح المادية . فالناس يحكمون بالآراء والعواطف كما يحكمون بالقوة وبتحقيق مصالحهم المادية والعاطفة الساميه لاتفسد السياسة . بل إن التقدم الكبير المشاهد فى ميدان السياسة هو فى الواقع وليد التأثير الفلسفى والمبادىء الدينية فالسياسة المجردة عن المبادىء سياسة وثنيـــة لاتؤدى الى تقدم الهيأة الاجتماعية . والسياسة الصحيحة تتلخص فى تطبيق العقل على مصالح الدولة .

لقد أوجد الالحاد ، فى هذه الأيام ، جيلا من الساســـة يهتم بالحقائق الملموسة أكثر من اهتمامه بالمبادىء . فسياسة المصالح وارضاء الشهوات هى سياسة مادية . ويرجع التغيير الذى ادخل

على أخلاقنا السياسية الى أسباب عميقة قديمة . فالشعب الكريم الخلق ، الذى كان يزدرى المال ويمتلىء حماسا للاغراض النبيلة : للحرية السياسية تارة ، وللمجد العسكرى تارة أخرى ، لاينقلب فى يوم واحد ملحدا يزدرى المبادىء ويتعلق بمصالحه المادية ! ان هذا التغيير فى الاخـــلاق نتيجة الفشل المتعدد الذى منى به ، والثورات المتكررة التى مرت عليه واضعفت عقائده الروحيـة .

يقول مونتسكيو : «عندما تصاب جمهورية بالفساد فانه لاسبيل لعـــلاج الاضرار الا بازالة الفساد واعادة المبادىء وما عدا ذلك فلا فائدة منه بل هو شر جديد . » والغاء النظام البرلمانى ليس علاجا ، واقامة الدكتاتورية شر جديد ، بل شر أكبر . أما العلاج الصحيح فى العودة الى المبادىء السليمة . فالسياسة كالحياة الانسانية بحاجة الى الاحساسات الروحية ، إلااذا أريد بها أن تسقط فى المستنقع وتظل فيه . وليس يكفى تغيير الاشخاص السياسيين الا اذا اعقبه اصلاح اخلاقهم . فاذا كان الساسة الجدد مجردين من المبادىء كمن سبقوهم تماماً فكل ما يكون قد حصل هو أننا استبدلنا بقرة سمينة اخرى هزيلة تود بدورها أن تكدس الشحم ، والفرق ضئيل بين الملحد السمين والملحد الهزيل ؛ وإذا وجد فرق فهو لمصلحة الأول ، ذلك أن من الواضح أن الملحد الذى قد شبع أقل خطرا من الجائع الذى لاتزال شهيته مفتوحة للطعام ، ولأن الأول ، بعد اهتمامه بمصالح نفسه ، قد يهتم بمصالح الوطن . ويروى

سان سيمون إن هذه الملحوظة الفاجرة هى التى أبداها ميزون عندما انتزعوا منه ادارة المالية : «إنهم يخطئون ، فبعد أن اهتممت بمصالحى ، كنت سأهتم بمصالحهم » .

ان العلاج الصحيح للفساد السياسى ، ذلك المرض الكريه ، ينحصر فى اعادة المبادىء السليمة والاعتقادات الخلقية ، واحلال الآراء محل الشهوات . فالمبادىء النبيلة المتحمسة هى وحدها التى تستطيع ان تقتلع بذور الشهوات الدنيئة . وطالما لاتنمو العواطف النبيلة وحب الوطن والحرية وطهارة العقائد فى بلد من البلدان ، فسيبقى جوه البرلمانى موبوءاً .

ومما لاشك فيه ان مجرد تولى السلطة لا يكفى لرفع الانسان فوق المطاعن ، اذ لابد من الادراك السليم ، والذوق ، والتجربة . والاستعداد المجرد من الأخلاق لا يكفى ، كما أن مجرد الذكاء لا يعصم من الوقوع فى الزلل . اننا لا نأمن على بناتنا او ثرواتنا بين يدى رجل ماجن ، منحل الخلق او مسرف ، مهما كانت كفايته ، فكيف نرضى بتسليم مصالح الوطن الى أيدى رجال منهمكين فى الملذات ، سرعان ما تنحصر جهودهم فى توفير المال لأنفسهم ؟ كيف نستطيع ان نثق فى اخلاص رجل محب للمال ، شغوف بالملذات ، لمجرد ان يعلن عن نفسه أنه صديق للشعب ؟ إن المحبة لاتثبت بالأقوال بل بالافعال ، وعواطف السياسيين الصحيحة لا تقاس بالمبادىء التى يعلنونها والخطب الانسانية التى

يتفوهون بها ، بل باخلاقهم وسلوكهم اليومى . إن النزاهة المطلوبة من رئيس الحكومة ليست مجرد استقامته الشخصية ، بل ايضا اختياره رجالا مستقيمين كأعوان له . يقول شيشيرون «اذا أردنا ان نُعرف بالنزاهة ، فيجب ان لا نقنع بأن نكون أنفسنا نزيهين ، بل نحتم ذلك على من يحيطون بنا » (١)

ولو ان الساسة كانوا اكثر احتراما للعدالة لتجنبوا اخطاء سياسية جمة ، فكثيراً ما تكون اخطاؤهم السياسية اخطاء اخلاقية . فتفكيرهم السليم ومهارتهم تضعف بنسبة ابتعادهم عن الانصاف ، انهم يتركون انفسهم للشهوات التى تلبد الغيوم امام ذكائهم . والضمير المستقيم يسيطر على الذكاء ويوجهه الى الاراء السليمة والقرارات الحكيمة ، إذ يكفى ان يكون الانسان مستقيم الخلق ليستقيم تفكيره .

فمتى عادت السياسة الى الخلق الحسن اتفقت مع التفكير السليم ، وشفت من مرضين خطيرين : الجنون الاشتراكى ، والجنون الفوضوى وليد السفسطة التى غمرتنا وترك الحبل على الغارب للشهوات الضارة . ان التفكير السليم يعوزنا فى هذه الايام ، فعقولنا مرتبكة ، واستقامة تفكيرنا ، تلك الصفة التى كانت من ميزات الفرنسين ، قد ابتليت بمغالطات عديدة فلسفية واقتصادية وسياسية ترد علينا من المانيا وايطاليا وانجلترا ومن الهند . فلم يعد التفكير السليم يوجه آراءنا واعمالنا من وقت ان اعتنقنا تشاؤم الاشتراكية

---

(١) الخطاب الثانى ضد فيريس الكتاب الثانى فقرة ١٠

الألمانية ، ومبدأ النشوء والارتقاء الانجليزى ، والالحاد الايطالى ، والنهيلية الروسية ، والبوذية الاسيوية . فلنعد فرنسيين من جديد ، لنعد الى مدرسة التفكير السليم والاخلاق المتينة .

ان المرض الذى تشكو منه الهيأة الاجتماعية الحالية هو مرض خلق اكثر منه مرض سياسى أو اقتصادى . لست انكر أن تحسين الانظمة واصلاح الاخطاء مفيد ، ولكننا فى حاجة اكبر إلى اصلاح الاخلاق واحسان توجيه عقول الناس إلى الآراء السليمة والمعتقدات الخلقية . فاذا أردنا أن تنجو الجماعة الانسانية من الفساد الذى يغزوها والثورة الهمجية التى تهددها ، فيجب رد التعاليم الروحية إلى مكانتها السابقة من عقول الرجال ومن السياسة . ان هذه هى الوسيلة الوحيدة لانقاذها من مخالب الحسد والحقد .

يجب اعادة الشعور بالواجب والمسئولية الشخصية الى عقول الجمهور وإلى دراسات الشباب . يجب مقاومة السفسطة التى تدعو إلى ابتلاع الدولة للفرد وتحويل المواطن الى جزء من آلة ضخمة تنتج الثورة وتوزعها بنسبة احتياجات كل فرد . إن العلاج الصحيح للازمات التى نجتازها هو فى العودة إلى الاخلاق السابقة التى تعلمنا انه يجب على العمال واصحاب الاعمال أن يؤدوا واجبهم ، وأن يعملوا وينهضوا بمسئولياتهم . فهل هناك مبادىء أخرى تعلم الأغنياء روح التضحية والنزول طواعية عما يفيض عن حاجتهم ، وتعلم الفقراء ضرورة المجهود الشخصى وفضيلة الصبر واحترام العدالة ؟

أن الحكومة بتشجيعها الالحاد والمادية لاتساعد على تحسين الاخلاق ، وتهدئة الشهوات ، وتقليل المفاسد . ان معاداة الدين ليست من السياسة السليمة فى شىء . أننا لانفهم، حتى من مجرد الناحية العملية المحضة ، ماهى الفائدة التى يرمى اليها الجهلاء والمفسدون ، أولئك المتعصبون الذين يريدون حرمان مواطنيهم من المعتقدات التى يجدون فيها عزاءهم ؟ لااحد ينكر أن العقائد الدينية تدعو الى حسن الخلق، وأنه ، كلما زاد عدد المتدينين فى دولة ، قل فيها القلقون والاشتراكيون والفوضويون . ففى عهود الافكار المادية والواقعية والنشوء والارتقاء والنيهيلية هذه ، من ينكر الخدمات العظيمة التى أداها الدين ببثه روح الكرامة فى قلوب الناس ، وتلقينهم الواجب ، واحلال عبادة المثل العليا محل عبادة العجل الذهبى ؟ ففى الهيئات الاجتماعية التى لاحديث لها الا تنازع البقاء ، وحقوق القوة والتخلص من الضعفاء ، ومذلة الفقر ، وسلطان الثروة ، يعلمنا الدين تضحية النفس واحترام الفقير ومحبته ، ويشعرنا بالمسئولية نحو الله ونحو الضمير .. وفى عهد تطلب فيه الاشتراكية ، التى أخذ تهديدها ينمو وينمو ، ان تكون الحكومة صاحبة سلطان غير محدود ، يقف الدين بجانب حقوق الفرد الانسانى وحقوق الضمير ، فيضع حدا لسلطان الدولة (لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق) . انه ، إذا لم تسترد العقائد الدينية سلطانها على عقول الناس ، لوجب أن نرتعد فرقا على مستقبل الهيئة الاجتماعية ، لأن الحقائق التى كبتت طويلا سوف تعلن عن نفسها بأصوات كأنها الرعد .

ومن مصلحة الأمم أن لاتفرق بين السياسة والأخلاق فى علاقاتها المتبادلة . إن السياسة السلمية كالأخلاق الطيبة تطلب العدل وحسن المعاملة وهما قوام السلام وما يتبعه من خير . أما السياسة التى تعلم الامم الحسد ، والبغضاء ، والسباب ، والاسترشاد بمصلحتها الذاتية فى تصرفاتها ، وحسم الخلافات التى تنشأ بالقوة وحدها ، فهى سياسة مجرمة وخاطئة . والساسة الذين يشيرون بهذه السياسة النفعية الضيقة ، سياسة الحسد والشره هذه ، قصار النظر يرون مصلحة الساعة ، ويغمضون عيونهم عن المصالح المشتركة بين الشعوب ، وبالأخص عن النتائج الضارة للعداوة والحروب ، وينسون فوائد السلم وفظائع الحرب .

اليست السياسة العادلة الحبية المعتدلة التى توفق بين الأمم أفضل بكثير من سياسة الحسد والطمع التى تفرق بينها ؟ ما اسعد الامم لو أنها تمتنع عن اتباع سياسة الانتقام وقطاع الطرق ! وأية رفاهية كانت اوروبا تصل اليها لو أنها حققت مشروع هنرى الثامن فطبقت على السياسة قواعد التفكير السليم والاخلاق الدينية ؟ إن مظهر العالم كان يتغير لو أن الأمم نظرت الى انفسها باعتبارها افراد اسرة واحدة فأقصت عن علاقاتهـــا العنف والخداع . ان سياسة الشعوب المتمدينة لاتزال مع ذلك سياسة وثنية ولابد لها من أن تعود الى الدين اذا أريد للعالم أن يحظى بالسلام .

لقد تساءل المسيو تيير، مدفوعاً وراء حماسه للمجد العسكرى، «فيم

تستخدم قوى الدول ان لم تستعمل فى محاولة كسب السيادة بعضها على بعض ؟» ويبدو لى أن قوى الدول يمكن أن توجه لفائدة أفضل من تحقيق احلام فتح يدفع ثمنها غاليا من المال والدماء وتنتهى بالمصائب والويلات . ففى كل مرة حاولت أمة أن تغزو أمة أخرى أراقت سيولا من الدماء دون فائدة تجنيها ، وباء جميع الذين امتلأت رؤسهم بأحلام الفتح بخيبة مريرة : لقد اهلك شارل الخامس ونابليون الأول ملايين من الناس فى سبيل اقامة سلطانهما ، ومع ذلك لم يحققا اغراضهما ، فمات الأول فى الدير ، ومات الثانى على صخور سنت هيلين . ولقد عم الخراب اسبانيا وفرنسا بسبب سياسة الطمع . وكم من الفاتحين يمكن أن يقال عنهم : «إن المطرقة التى دقت العالم كُسرت بدورها » .

ان السياسة التى ترمى الى التوازن الدولى افضل من سياسة الفتح ، والامبراطورية الواسعة جداً لا يمكن ان تدوم ، ولا بد أن تسقط ، عاجلا او آجلا ، امام اتحاد الدول الاخرى . واستعباد أمة لأمة اخرى خطر دائم على حريتهما المشتركة ، لان الامة القوية جدا ، كالملك الكامل السلطان ، يصعب عليها ان تبقى فى حدود الاعتدال الحكيم . واذا كانت الرغبة فى السيادة من بواعث العمل فى الامم ، فلماذا لا تكون السيطرة الاخلاقية سيطرة العلوم والآداب والانظمة هى موضع مباراة الامم ؟

ان الملحدين يبتسمون كلما سمعوا رجال الاخلاق يظهرون املهم

فى ان يجىء يوم تنعدم فيه الحروب الدولية ويحل فيه التحكيم محل الالتجاء إلى القوة . ان ادوات الحروب الجديدة ، التى تزداد قدرتها على الهدم فى كل يوم ، تساعد على بقاء السلم لان الشعوب والامم تتقهقر فزعاً امام ما تجره مثل هذه الحروب من ويلات . إن ميول الرأى العام تزداد اتجاها الى الزام الحكومات بالمحافظة على السلم ، والمأمول اذاً ان تصبح الحرب نادرة الوقوع .

ولما كانت الانتصارات تسكر الشعوب والملوك على السواء ، فان واجب المؤرخين والاخلاقيين ان يتحدوا ليقاوموا ذلك الاندفاع . إن المؤرخين الذين يمتدحون الانتصارات ينسون ، عندما يتحدثون عن الحروب ، ان يبحثوا وراء فائدتها ومغزاها . إنهم غالبا ، عند ما يمتدحون الفاتحين ، يفسدون الرأى العام بتعويده أن يبهره النجاح . وهم يحسنون صنعاً لو احتفظوا بجزء من الاعجاب الذى يغدقونه على الفاتحين للرجال النزيهين الذين أثبتوا حبهم للأنسانية واحترامهم للحياة البشرية .

وواجب رجال الاخلاق أن يحاربوا ، بغير انقطاع ، سفسطة السياسة الفاسدة ، وأن يعلنوا أن مايسمى مصلحة الدولة هو انكار لكل تفكير سليم ، وأن الغرض من الحكم التوفيق لاالتفريق ، وأن التمسك بالأخلاق واجب فى صغار الأمور وكبارها ، لأن الخلق واحد لايتجزأ ، وأن العدل ، دون سواه ، أساس سياسة المجموع ، وأن الغاية لاتبرر الواسطة ، وأن الوسائل غير المشروعة

لاتحقق مطلبا ، وأن الحق فوق القوة ، وأن العدل هو القانون الأعلى وأن المبدأ القائل بأن الحق للقوة مبدأ يصلح للذئاب لا لبنى الانسان .

لقد قال رابليه إن العلم بغير ضمير يهلك الروح ، كذلك السياسة بغير أخلاق تهدم الهيئة الاجتماعية .

تصويبات

أرجو من حضرة القارىء أن يتفضل بتصحيح الأخطاء المطبعية التالية قبل أن يشرع فى القراءة ليضمن بذلك أن يجد الكتاب خلواً من كل شائبة .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	١٦	سفينة	سنيه
١٦	٦	ساسية	سياسة
٢٣	٤	أصدقائه	أصدقاؤه
٢٦	٦	بائها	باءها
٢٨	١٣	الثلاث	الثلاثة
٢٩	٩	أى	أية
٤٥	٩	بضع	بضعة
٥٩	٥	تلخصنا	تخلصنا
٦٤	١٤	المتساويين	المتساوين
٧٢	٢١	....	بالفوضيين إلى ارتكاب جرائمهم . وإنك لتجد سان سيمون
٧٣	٨	الثورة	الثروة
٧٤	١١	متساويين	متساوين
٨٢	٧	يقلونهم	يقتلونهم
٨٧	٥	أى	أية
٩٢	١٣	التكافىء	التكافؤ
٩٤	٨	تكافؤه	تكافئه
١٢٢	٣	مأجورين	مأجورون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٢	١٠	ليسوؤا	ليسوئوا
١٢٥	٤	البائسين	البائسون
١٢٧	٦	ثوروو	ثوريو
١٢٨	١	مراؤن	مراءون
١٣٣	١		
١٣٤	٥	يقامونه	يقاومونه
١٣٤	٨	يسمعون	يسعون
١٥٨	٩	تعبَّد	تعبِّد
١٦٠	١٢	مشترِى	مشترى
١٦٠	١٦	مدينين	مدينون
١٦٣	٩	اثنتا	اثنتى
١٦٥	٢	الأقدميون	الأقدمون
١٨٧	٩	اتفاقى	اتفاق
٢٠٧	١٠	٣٢٨	١٣٢٨
٢١٣	١٣	ليزوودنى	ليزودونى
٢١٧	١٣	١٧٩٦	١٧٦٩
٢٢٧	١٨	الجيروندبين	الجيرنديون
٢٣٠	٨	زوجته	زوجة
	٩	النقل	الفضل
	١٠	كتيموس	كتجوس
	١١	تابغة النفس	تابغة وضيع النفس
٢٣٢	١٠-١١	ملذاتهم فى بينما يخفقون التبذل	ملذاتهم بينما يحققون
٢٧٢	١٥	منوالد	منواله
٢٧٥	٧	شهدت	شدهت


Bibliotheca Alexandrina
04334021